المواد الغيثية

الناشئة عن الحكم الغوثية

أحمد بن مصطفى العلاوي

الجزء الثاني

الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي

المواد الغيثية

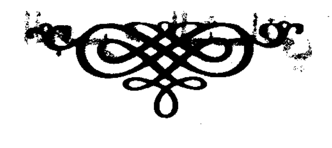
الناشئة
عن الحكم الغوثية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

المطبعة العلاوية بمستغانم

سنة 1994



رقم التسجيل : 87/ 2460



مقدمة الطبعة الأولى من:
المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية

الحمد لله الذي تجلى بصفاته حكمة وعلما ، فعلمه من اصطفاه لحضرته ظاهرا وباطنا ، وجهله من أعرض عنه إلحادا وظلما ، سبحانه المنزه عن التقييد ، الظاهر بسلطانه وجلاله في حقيقة التوحيد **(وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون)** « الذاريات : 21 »

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عجزت عن إدراكه أفكار العبيد ، وشاهده المقربون في القريب والبعيد .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله المصطفى لحمل رسالة التبليغ ، شرح الله به الصدور ، وأخرج الناس من ظلمات الكفر إلى النور ، فصل اللهم على النور المبين ، والسراج المنير ، والصراط المستقيم وعلى آله وأصحابه ووارثيه وسلم تسليما .

وبعد . فإن المكتبة الدينية للطريقة العلاوية ، لا تزال تواصل التحقيق والبحث عن ثراث الأستاذ الكبير مولانا أبي العباس أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي - رضي الله عنه - باعتباره جزءاً من التراث الثقافي الجزائري المعاصر ، وقد ساهم الأستاذ بنصيب وافر في تاريخ النهضة الجزائرية في ميدان الإصلاح الديني والإجتماعي والثقافي ، تشهد له بذلك آثاره التي تحتاج إلى الدرس والتعريف .

- **ترجمة موجزة للمؤلف :** هو الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي (ولد سنة : 1870 م – وتوفي سنة : 1934 م) (1) عمدة السالكين، ومربي العارفين المشهور بتلقين الإسم الأعظم. أسس طريقته الصوفية (سنة : 1914 م) وهي فرع من الطريقة الدرقاوية الشاذلية، كرس حياته للتربية والإرشاد والإصلاح الديني والإجتماعي، فأسس عدداً من الزوايا لأتباعه ومريديه بلغت (50 زاوية) منها (21 زاوية) في الجزائر. والباقي في المغرب وتونس، والمشرق وأروبا. وفي سنة « 1923 » أنشأ جريدة « لسان الدين » الاسبوعية، ثم جريدة « البلاغ الجزائري » سنة : 1926 م لنشر آرائه الاصلاحية في الدين والأخلاق والاجتماع، كما ترك مجموعة من الآثار العلمية معظمها في التصوف والفقه والتفسير، نشر بعضها في حياته، وبقي الآخر مخطوطا، منها هذا الجزء الثاني من كتاب «المواد الغيثية...» الذي نقدمه للنشر، تناول فيه بالشرح والتحليل (مائة حكمة وواحدة) من حكم الشيخ أبي مدين الغوث : شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي البجائي دفين تلمسان « العبّاد » المتوفي سنة : 594 هـ / 1197 م (2)، وهو

---

1) راجع ترجمة الشيخ في الأعلام : للزركلي 1 / 243 – الأعلام الشرقية : 2 / 93. أضاميم المد الساري لصحيفة البلاغ الجزائري : الجزء الأول ط طنجة 1986.

– الروضة السنية في المآثر العلاوية : للشيخ عدة بن تونس. ط مستغانم 1936.

– معجم أعلام الجزائر : عادل نويهض « الملحق : 367 ».

– الشيخ أحمد العلاوي الصوفي... مارتن لينجز. ترجمة محمد إسماعيل الموافي : ط بيروت 1973.

2) راجع ترجمة الشيخ أبي مدين في : – شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث : د / عبد الحليم محمود.

– البستان... لابن مرين ص 108 – 114 – ابن الخطيب القسنطيني : أنس الفقير وعز الحقير. ط الرباط

– دائرة المعارف الاسلامية : 1 / 141 – 142. – نفخ الطيب : للمقري – نيل الابتهاج... لأحمد بابا التنبكتي. – المواد الغيثية... الجزء الاول « المقدمة » ط مستغانم.

– عنوان الدراية... للغبريني – تحقيق : رابح بونار ط الجزائر – 1970.

في طريقه من بجاية إلى مراكش بأمر من سلطان أبي يوسف يعقوب الموحدي، وقبره ما يزال قبلة للزوار يستجاب عنده الدعاء.

- **محتوى هذا الجزء :** يتضمن الجزء الثاني من المخطوط عشرة فصول حسب تقسيم المؤلف، أولها : (في التوكل...) وآخرها في (الخمول وفضائله) أي من الفصل العاشر حتى الثامن عشر، شارحا لمقامات العارفين من أهل السلوك، معربا عن حقيقة التوحيد عند القوم - رضوان الله عليهم - مستشهدا بأقوال وأحوال أهل العرفان شعراً ونثراً، وختم الشرح بحكمة أبي مدين - رضي الله عنه - حيث يقول : « من لم يقم بأدب البداية، كيف تستقيم له دعوى مقامات النهاية ».

وصف المخطوطة

1 - يبدأ الجزء الثاني من المخطوطة من صفحة « 107 » وينتهي بصفحة « 238 » عدد الصفحات « 132 ص ».

2 - عدد السطور في كل صفحة « 33 سطرا ».

3 - مسطرة المساحة المكتوبة « 26 × 16 سم ».

4 - والناسخ مجهول وتاريخ النسخ 30 رمضان عام 1328 هـ = 24 سبتمبر 1910. ولعلها بخط الشيخ « أحمد العلاوي » نفسه.

5 - والكتابة بخط مغربي واضح، قليل الأخطاء إلا نادراً، والمخطوطة تامة من أولها إلى آخرها، تحت ملكية الزاوية الكبرى بمستغانم. وعليها كان اعتمادنا في التحقيق « أي الصورة المصورة عنها ».

6 - يتضمن الجزء الثاني عشرة فصول شرح فيها « 101 حكمة » من مجموع « 178 حكمة » من حكم الإمام الرّباني « أبي مدين الغوث » - رضي الله عنه - موزعة على ثمانية عشر فصلا.

عملنــا في التحقيــق

1 - قمنا بضبط الحكم بالشكل التام مفصولة عن الشرح بخط مغاير.

2 - عملنا على تخريج الآيات بذكر السورة ورقم الآية بخط بارز مغاير للنص، وكذلك بالنسبة للأحاديث النبوية.

3 - قمنا بتصحيح النصوص الشعرية بالرجوع إلى المصادر والدواوين في حين لم نتمكن من تصحيح بعضها لعدم معرفة أو جهل قائلها، ولم ندخل تغييراً على النص الأصلي إلا ما يقتضيه السياق اللغوي والرسم الإملاىء.

4 - يجد القارىء وصفا للمخطوطة المعتمدة في هذه الطبعة وهي المخطوطة الوحيدة التي تملكها المكتبة العلاوية بالزاوية الكبرى بمستغانم.

وأسأله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، ولا يؤاخذنا عما فيه من الخطأ والتقصير، ويلهمنا السداد والرشاد إلى ما فيه خير العباد إنه سميع مجيب.

وصل اللهم على نبيك في البدء والختام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ : يحي الطاهر برقة

وهران : 10 مايو 1993 م

- 9 -

الفصل التاسع

في التوكل على الله عز وجل

قال رضي الله عنه:

التّوَكُّلُ تَوَكُّلٌ بِالْمَضْمُونِ وَاسْتِبْدَالُ الحَرَكَةِ بِالسُّكُونِ

حقيقة التوكل هو ثقة العبد بربه، واكتفاؤه بمشيئته، وسكون القلب عند ما قسم له، وعدم التشوق لما وراء ذلك، فلا تتكلف أيها المريد لذلك، فقد قام به غيرك عليك، لما قيل في الحكم العطائية: « أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك ». وفائدة التوكل هي استراحة القلب من تعب التدبير المنغص للعيش، وهو سر من أسرار الله يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، فيكتفي ذلك القلب بتدبير الحق عن تدبيره، وباختيار الحق عن اختياره، وبعلم الحق عن علمه قائلا: (**لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله**) « يونس: 49 » فتحصل له الراحة الأبدية ويصير محمولا على بساط التوكل قائلا: ما قام به الحق سقط عن الخلق. فيجب عَلَيَّ القيام بما لم يسقط. قال تعالى مخبراً للمتوكلين: (**لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى**) « طه: 132 » (**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**)« الطلاق: 3 ». فكن يا أخي واثقا بالله في رزقك، وما كان لك سوف ياتيك على ضعفك، وما ليس لك لا تناله بقوتك، فالذي قام بك قبل الوجود وأظهرك للشهود لا زال متكفلا بك، هلا تترك له التدبير! فهو أولى بك من نفسك قال بعض المتوكلين:

ثم قال رضي الله عنه:

تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ حَتَى يَكُونَ الغَالِبُ عَلَيْكَ ذِكْرُهُ عَلَى ذِكْرِكَ، فَإِنَّ الخَلْقَ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا

توكل أيها المريد على الله في أمورك، واسلب له الإرادة في شؤونك، واشتغل بذكره وتسبب في قربه حتى يصير ذكرك له غالبا على ذكرك لنفسك بسبب امتزاجه بلبك وسرك ودمك ولحمك. فإذا تحقق لك ذلك يكون دليلا على قربك من الله، حيث أجرى ذكره على لسانك، بل حتى برز من قلبك بدون تكلف منك. قال في الحكم العطائية: « أكرمك بكرامات ثلاثة: جعلك ذاكرا له، ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك ». وإذا لم تتوكل أيها المريد عليه وتغيب في ذكره عن ذكرك، وتسير على هذا المنوال بل استبدلت ذكره بذكر ما سواه كائنا من كان فإنك تهلك، لأن الخلق لا يغنوا عنك من الله شيئا، وكفى بك جهلا أن تتعلق بمن هو أحوج منك، أي شيء ينفعك الخلق وهم مخلوقون مثلك، وهل يستطيع يرفع عنك ما نزل بك من لم يستطيع أن يرفع عن نفسه ما نزل به **(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له)** « الحج: 73 » **(أموات غير أحياء)** « النحل: 21 » قال بعضهم: « من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين القدم فقد وصل ». وقد قلت:

توكلت على الإله في كل حالة ☆ وإياك والمخلوق تركن لفعله
فإن الناس أموات كلا فما ترى ☆ عاجز ومضطرب فقير في نفسه

ثم قال رضي الله عنه:

تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ حَتَى يَكُونَ الغَالِبُ عَلَيْكَ ذِكْرُهُ عَلَى ذِكْرِكَ، فَإِنَّ الخَلْقَ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا

توكل أيها المريد على الله في أمورك، واسلب لـه الإرادة في شؤونك، واشتغل بذكره وتسبب في قربه حتى يصير ذكرك له غالبا على ذكرك لنفسك بسبب امتزاجه بلبك وسرك ودمك ولحمك. فإذا تحقق لك ذلك يكون دليلا على قربك من الله، حيث أجرى ذكره على لسانك، بل حتى برز من قلبك بدون تكلف منك. قال في الحكم العطائية: « أكرمك بكرامات ثلاثة: جعلك ذاكرا له، ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك ». وإذا لم تتوكل أيها المريد عليه وتغيب في ذكره عن ذكرك، وتسير على هذا المنوال بل استبدلت ذكره بذكر ما سواه كائنا من كان فإنك تهلك، لأن الخلق لا يغنوا عنك من الله شيئا، وكفى بك جهلا أن تتعلق بمن هو أحوج منك، أي شيء ينفعك الخلق وهم مخلوقون مثلك، وهل يستطيع يرفع عنك ما نزل بك ممن لم يستطيع أن يرفع عن نفسه ما نزل به **(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له)** « الحج : 73 » **(أموات غير أحياء)** « النحل : 21 » قال بعضهم: « من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين القدم فقد وصل ». وقد قلت:

توكلت على الإله في كل حالة ☆ وإياك والمخلوق تركن لفعله
فإن الناس أموات كلا فما ترى ☆ عاجز ومضطرب فقير في نفسه

ثم قال رضي الله عنه:

العَبْدُ مَنِ انْقَطَعَتْ آمَالُهُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ مَوْلاَهُ

وكيف لا تنقطع آماله مما سوى الله وقد انعدمت الأشياء في نظره، فهو لا يرى للخلق ثباتا حتى يحصل له الالتفات، فلهذا انقطع أمله واجتمعت همته على الله فلا يؤمل سواه، ولا يرجى عداه، بل الكل يشتاق إليه ويرضاه، فهذا هو العبد إلى الله، وما سواه رق لغيره. فكل من كان أمله في شيء، فذلك حظه من مولاه، ومن انقطع أمله من كل شيء، فلا جرم يتولاه الله وهو يتولى الصالحين.

ثم قال رضي الله عنه:

هِمَمُ العَارِفِينَ لاَ تَسْمُو لِغَيْرِ مَعْرُوفِهِمْ

وكيف تسمو لغيره، والغير عندهم مفقود، أم كيف تتشوف لسواه وكل ما تهواه في ذاته موجود. فكل ما تهوى العشاق موجود في ذات الخلاق.

جمعت في حسنك المطالب ☆ فما لنا للسوى نظر
وكل شيءٍ نراه غائب ☆ لما بدا وجهك الأغر
يا سيداً كلما تجلى ☆ إلى محب له خضع
وكل حسن بكم تجلى ☆ طوبى لمرء بك اجتمع

سبحان من جمعت فيه المحاسن، فمن عرف الله لا يلتفت لغيره لأنه يجد فيه كل ما يحتاج إليه لما قيل:

«ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل»

ثم قال رضي الله عنه:

هِمَمُ العَارِفِينَ لَا زَالَتْ عَاكِفَةً عَلَى مَوْلَاهَا

وكيف لا تعكف على مولاها وقد عدمت الغير وفرغت من كل شيء، ولم يبق لها أدنى شيء، حطت رحالها في حضرته وعكفت عن مشاهدته، ليس لقلوبهم أدنى التفات، وإن التفتت وجدوا لسان الموجودات قائلا: (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) «البقرة: 115» وفي ذلك قالوا:

همم العارفين بالله علقت ☆ فما هم همة ترق إلى أحد
مطلبهم قد فاق المطالب جملة ☆ همتهم جاوزت مقاصد العُبَّادِ
وقفت ببابه تنتظر لوجهته ☆ عكفت في قربه لا تنظر لأحد

منذ وصلوا ما رجعوا، فهم قوم اصطنعهم الحق لنفسه، وكيف يمكن أن تعكف همتهم على غيره. «كل ميسر لما خلق له».

ترى العارفين مع الخلق في معاملتهم ومجالستهم ومحادثتهم كأنك تحسب أنهم مع الخلق، كلا إنما هم مع الحق، فكل يرى حسب نظره. (**تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل**) «الرعد: 4» المشهود واحد واختلفت المشاهد. والعارفون لم تزل همتهم عاكفة على الله في كل وقت وحال، وأنت لا تدري كيف كان عكوفهم على الحق، كان كما كان عكوفك أنت مع الخلق. قال مولانا عبد القادر الجيلي رضي الله عنه:

فؤادي عند حبيبي مقيم ☆ يناجيه وعندكم لساني

كان ﷺ يتكلم مع سيدنا جبرائيل والناس تظن أنه يتكلم مع

دحية الكلبي. فكان دحية عند من نظره دحية لا عند من عرفه جبرائيل. ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وها دحية وافى الأمين نبينا ☆ بصورته في بدإ وحي النبوءة
أجبريل قل لي كان دحية إذ بدا ☆ لمهدى الهدى في هيئة بشرية
وفي علمه عن حاضريه مزية ☆ بماهية المرئي من غير مرية
يرى ملكا يوحي إليه وغيره ☆ يرى رجلا يدعى إليه بصحبة

وهذا المعنى خارج عن العقل لا يطلب فيه الدليل.

فثم وراء العقل علم يدق عن ☆ مدارك غاية العقول السليمة

ظاهر ولكن لا يدرك إلا بعد صفاء السرائر، وافتتاح البصائر وفناء الأشياء باطنا وظاهرا، كما قال شيخ مشايخنا سيدي أبو عزة المهاجي رضي الله عنه:

ولم يدركها ذو العقل إلا إذا فنى ☆ عن الأشياء كلها يراها تشعشع

ثم قال رضي الله عنه:

العَبْدُ يَيْأَسُ مِنَ الْفَرَحِ إلاَّ مِنْ مَوْلاَهُ

أي المتحقق بحقيقة العبودية، فهذا هو العبد لله حقيقة، فليس له فرح إلا بالله، فهو آيس من أن يفرح بغيره لعدم الغير في نظره، وهذا هو الفاني عن الكل، فلا يمكن له أن يفرح بغيره.

قيل: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام: **(يا داود قل للصديقين بي فليفرحوا، و بذكري فليتنعموا)**. ولبعضهم:

أجل أجلى أرضي انقضاه صيانة ☆ ولا وصل إن صحت لحبك نسبتي

وإن لم أفز حقا إليك بنسبة ☆ لعزتها حسبي انتحاراً لتهمتي

قيل: إن عتبة الغلام دخل في بعض الأيام على رابعة العدوية رضي الله عنها، وعليه قميص جديد وهو يتبختر في مشيه بخلاف ما سبق من عادته، فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل اليوم؟ فقال: يا رابعة ومن أولى بهذا التيه مني، وقد صح لي مولى وأصبحت له عبداً.

قوم تخللهم زهو بسيدهم ☆ والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له ☆ يا حسن رؤيتهم في حسن ما تاهوا

وقيل: إن الصوفية اتخذوا الرقص من هذا القبيل كما ذكره ولي الله سيدي محمد بن عبد الله:

فغن يا صوفي وارقص في أمن ☆ واشطح لقد وصفت بالدلال

أنت محبوب الحضرة دون مين ☆ ومرغوب لها فلا تبالي

وقيل: إن بعض الفقهاء كان ينكر على صوفي في رقصه، فدخل الصوفي على الفقيه ذات يوم فوجده يرقص في بيته، فقال له الصوفي: ما هذا الرقص؟ فقال له: إني وجدت بعض النصوص كنت ضللتها منذ أيام، فلما وقعت بيدي لم أبال حتى رقصت فرحا. فقال له الصوفي: فوا عجبا لمن يرقص إذا وجد شيئا يمكن بدله وذلك نصوص، وقد دونت مثلها دواوين، وينكر على من وجد الحق وتعرف له، وأصبح عنه راضيا إذا رقص.

أما تنظر الطير المقفص يا فتى ☆ إذا ذكر الأوطان حنّ إلى المغنى

يفرج بالتغريد ما بفؤاده ☆ فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى

ويرقص في الأقفاص شوقا إلى اللقا ☆ فتهتز أرباب العقول إذا غنى

كـــذلك أرواح المحبين يـــا فتى ☆ تهزهـــا الاشـــواق للعـــالم الأسنى
أنلزمهـــا بـــالصبر وهي مشوقـــة ☆ وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

فهذا حال الواصل، وكذلك المستشرف ييأس من الفرح إلا من مولاه لحقارة الأشياء في نظره، وإنما عرض زائل، فهو لا يفرح إلا بالباقي (**فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**) « يونس : 58 » .

الفصـــل العـاشـــر

في الفقـر وحقيقتـه وفضائلـه

قال رضي الله عنه:

الفَقْـــرُ فَخَـــرٌ

الفقر فخر العارفين، وكيف لا وقد افتخر به سيد المرسلين واتصف به وانتمى إليه، وقد كان يقول: (**الفقر فخري**) يا له من نبي كريم بالمؤمنين رءوف رحيم، وما أحسن ما قيل في مدحه:

وليـس يـدرك أدنى وصفـه بشر ☆ أيقطع الأرض ساع وهو مكبول
كل البلاغـــة عي في مناقبـــه ☆ إذا تفكـرت والتيسير تقليـــل
لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبـه ☆ أعيتهـم جملة منهـا وتفصيـــل
عذراً إليك رسول الله مـن كلمي ☆ إن الكريم لديـه العـذر مقبـول

ولا تخفى على العاقل سيرته وسيرة أصحابه ومن انتمى إليهم إلى يومنا هذا، ولو لم يكن الفقر فخرهم لما جعلوه علما على المنتسب

إليهم بمجرد الانخراط في سلكهم يلقبونه بالفقير، ولو كان من أغنى الأغنياء. وهل هذا إلا افتخار الفقراء، وهو أمان على التوحيد والناس فيه مراتب، صابر ومتلذذ، والفرق واضح، والكل يمدحه حسب ما كشف له عن فضائله. كان يقول الإمام الشافعي رحمة الله عليه: «لا شيء أزين للعلماء من الفقر والقناعة والرضى بهما». وقال أيضا: «لا عيب للعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه». وكان يقول: «طلب الفضول الدنيا عاقب الله بها أهل التوحيد». وما أحسن ما قيل:

النفس تأبى أن تكون فقيرة ☆ والفقر خير من غنى يطغيها

فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ☆ فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وقال غيره:

تمتع بما يكفيك واستعمل الرضى ☆ فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي

فليس الغنى عن كثرة المال إنما ☆ يكون الغنى والفقر من قبل النفس

قلت:

لو كانت النفس تعلم ما في الفقر من شرف ☆ لحنت إليه حنين الطير للوكر

قال ﷺ: (**ثلاثة يدخلون الجنة بغير خساب: رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلفة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قِدْرَيْنِ، ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد**). اهـ

وروي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال: (**لأن أقع من فوق قصر فأنحطم أحب إلي من مجالسة الأغنياء، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم ومجالسة الموتى، قيل:**

يا رسول الله ومن الموتى؟ قال: الأغنياء).

فإن وقع صدق هذا الحديث في قلبك، وعرفت أن الفقر نور، وأن الغنى ضده فهو دونه في الرتبة، وإن كان محموداً من وجوه، فكيف لا يكون الفقر فخر العارفين. قال في الحكم العطائية: «إن أردت ورود المواهب عليك، فصحح الفقر والفاقه لديك». **(إنما الصدقات للفقراء)** «التوبة: 60» ومن افتخارهم بالفقر ما يحكى عن عطاء السلمي - رضي الله عنه - أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام، فسر قلبه بذلك غاية السرور وقال: «يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة».

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في غاية الزهد، وأن قميصه كان فيه أربع رقعات، ومن افتخاره بالفقر: أنه أبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة وهو خليفة، وعندما خرج اعتذر للناس وقال إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره. وقيل: إنه كان يبرد في الشتاء حتى ترعد مفاصله، فقيل له: ألَّا تأخذ من بيت مال المسلمين كساء فإنه أوسع، فقال: لا أنقص للمسلمين من بيت مالهم شيئاً.

وقيل: إن فتحاً الموصلي - رضي الله عنه - دخل إلى بيته ليلة فلم يجد فيها أكلاً ولا شرابا، ولا حطبا، ولا سراجا، فأخذ يحمد الله عز وجل ويقول: «إلاهي لأي سبب وبأي وسيلة استحققت ذلك حتى عاملتني بما عاملت به أوليائك».

الفقر منوط بالولاية في الغالب، وقد كان أغلبهم يتسبب فيه. ومن نعتهم لبس المرقعة وترك الكسب، وغير ذلك مما يقتضيه. كان الإمام علي - كرم الله وجهه - يرفع قميصه ويقول: « إن لبس

المرقع يخشع القلب» وقد كانوا يتسببون فيما يصلح بواطنهم، أعني هو وصحابة رسول الله ﷺ. ومن قوله رضوان الله عليه:

حقيق بالتواضع من يموت ☆ ويكفي المرء من دنياه قوت

فما للمرء يصبح ذا هموم ☆ وحرص ليس تدركه النعوت

فيا هذا سترحل عن قريب ☆ إلى قوم كلامهم السكوت

ومن النصائح النبوية قوله ﷺ: (**أيها الناس اذكروا هادم اللذات، فإنكم إذا ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم، وإن ذكرتموه في غنى بغضه إليكم، إن المنايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الأجال، وأن العبد بين يومين: يوم مضى أحصي فيه عمله فختم عليه، ويوم قد بقى لا يدري لعله لا يصل إليه، وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف، وقلة غنى ما خلّف، أيها الناس إن في القناعة لغنى، وإن في الاقتصاد لبلغة، وإن في الزهد لراحة، وإن لكل عمل جزاء، وكل آت قريب**).

ثم قال رضي الله عنه:

الفَقْرُ نُورٌ مَا دُمْتَ تَسْتُرُهُ فَإِذَا أَظْهَرْتَهُ ذَهَبَ نُورُهُ

قلـت:

الفقر نور يضيء على الفتى ☆ وهو له عز ما دام مكتوما

ومن أفشاه للخلق باء بضده ☆ وكان له ذلا ووصفا مذموما

الفقر فخر العارفين، وعز الواصلين، وسنة المريدين، وهو نور

لصاحبه ما دام يستره عن الخلق، فإذا أظهره ذهب نوره وانكشف شعاعه، وصار مذلة وإهانة بعد أن كان عزا وإعانة بسبب إظهاره، وما أظهره إلا ليستشرف الناس عليه ليتوصل لغرض من الأغراض التي لا تزيد له في رزقه إلا ضيق الحال وتعسر المنوال، والإياس عما في أيدي الناس غني، مع وجود الفقر. وقد مدح الله عز وجل من قطع نظره عن الخلق وعن الشكاية لهم بقوله: (**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً**) «البقرة: 273» لاكتفائهم بقسمتهم من الله (**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**) «الزخرف: 32» فصار الفقر لهم نوراً يمشون به في الناس.

ثم قال رضي الله عنه:

الفَقْرُ أَمَانٌ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى التَفْرِيدِ، الفَقْرُ أَنْ لَا تَشْهَدَ عَيناً سِوَاهُ

هذا بيان للفقر الخاص، وليس المراد به فراغ اليد من الدنيا، إنما هو فراغ القلب مما سوى الرب، فهذا هو الفقير إلى الله من كل الوجوه المضطر إليه، ومن أجل هذا كان أماناً على التوحيد، ودلالة على التفريد لما فسره المصنف - رضي الله عنه - بقوله: الفقر أن لا تشهد عينا سواه. وقد يتحقق العارف بفقره إلى الله ويبالغ في التحقيق إلى أن يصل إلى غاية يلزمه أن يقوم بوجود الحق لافتقاره في الوجود، لأن العبد في أصله لا شيء. فلهذا لما يضع العارف معيار التحقيق، ويبالغ في التدقيق ينشأ له من ذلك أن العبد عدم

محض، وأن الحق فرد لا وجود يضاهيه، ولا ضد فيلزمه الرجوع إلى الحقيقة وكف البصر عن الخليقة، وإذا لزمه الرجوع إلى الوجود والتمييز بين عابد ومعبود، فلا يلزمه أن يثبت وجوداً زائداً على الوجود. ولهذا يقال: الحق منستبد والوجود مستمد والمادة من عين الوجود، ولو انقطعت المادة لانهدم الوجود. فتحصل من هذا وجود العبد وما اتصف به ليس له فيه إلا مجرد النسبة. فمن تحقق بهذا المعنى فلا يجد عينا سواه، ولا وجود معه، فيلزمه أن يشاهده في كل شيء، وإذا عرفه في كل شيء فهل يفتقر إلى شيء دونه؟ كلا! فكان فقره إلى الله لازما، فهذا هو منتهى فقر القوم فيما هم عليه. **(إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله)** «النور: 32».

ثم قال رضي الله عنه:

أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ مَنْ أَبْدَلَهُ الحَقُّ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِهِ

الحق عز وجل هو حقيقة الوجود لا محالة، ولولا ظهوره في المكونات لما وقع عليها البصر لأن الأشياء من ذواتها العدم المحض، والبصر لا يتعلق بالمفقود. إياك يا أخي أن يقع بصرك على الموجودات فتتوهم أنه وقع على وجودها لذاتها، وذا محال، إنما وقع على وجود موجودها الذي هو معار إليها، خلقها ثم ظهر فيها. قدر الحق تبارك وتعالى الأشياء في سابق علمه، ثم أفرغ عليها من وجوده. **(الله نور السموات والأرض)** «النور: 35» أو تقول: **(له الكبرياء في السموات والأرض)** «الجاثية: 37». يا عجبا كيف تثبت الأرض والسماء مع وجود العظمة. قال في

الحكم العطائية: « كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحدوث مع من له وصف القدم ».

وحاصل الأمر أن الحق تبارك وتعالى هو حقيقة الوجود كما تقدم لعدم حقيقة تضاهي حقيقته، وقد اتفقت مقالة العارفين بأن ما سوى الله تعالى عدم محض من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصف به لكان ذلك شركاً واثنينية، وهو مناقض لإخلاص التوحيد قال: **(كل شيء هالك إلا وجهه)** « القصص: 88 » أي ليس هنالك إلا وجود الله **(فأينما تولوا فثم وجه الله)** « البقرة: 115 » يا من حجبت بأينما ألا ترفع بصرك إلى قوله: **(ثم وجه الله)** ما على هذا البيان من مزيد. **(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)** « فصلت: 53 » الحق أحق أن يتبع، فاتبعه حيث وجدته لعله يبدو لك ويظهر لك حق من هذه الحقيقة، فتكون حينئذ أغنى الأغنياء، لقول المصنف: أغنى الأغنياء إلى آخره، أي من كشف له عن حقيقة ما تقدم، وإلا فالحق تبارك وتعالى متبرع بهذه الحقيقة على كل أفراد العالم. والإنسان من جنسه بل هو سلطان العالم وخليفة الحق في خلقه.

قال مولانا عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في غوثيته: قال الحق تبارك وتعالى: (يا غوث الأعظم، ما ظهرت في شيء مثل ظهوري في الإنسان، ولو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نفس **(لمن الملك اليوم)** « غافر: 16 »). لأن الحق تبارك وتعالى وإن كان هو ظاهرا في الأشياء بتجلياته وعموم صفاته على اختلافها، فقد ظهر في الإنسان ظهوراً لا خفاء فيه أي بالربوبية،

أو تقول بالذات المستحقة للألوهية. قال ﷺ: (**خلق الله آدم على صورة الرحمٰن**) خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وظهر فيه بنفسه، وأمر الملائكة بالسجود إليه، وخلفه في خلقه، وجعله في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته، وله حظ من الجبروت من حيث سره، فقد اجتمع فيه الوجود بأسره، فكانت نسبته بين ملكه وملكوته وهي المسماة بالإنسان، والنسبة التي بين الملكوت والجبروت هي المسماة بخليفة الرحمٰن، فكان من حيث ظاهره نقطة من طين، ومن حيث باطنه خليفة رب العالمين.

فحقيقة الإنسان أعظم حقائق الوجود، إلا أنها خافية لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها الأفكار. فمن أبدله الحق حقيقة من هذه الحقيقة وكشف له عليها، فذلك قربه منه المخبر عنه في قوله عز من قائل: (**لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...**) إلى آخر الحديث.

فكفى بهذه المحبة حتى أبدله حقيقة من حقه، فكيف لا يكون أغنى الأغنياء. ولا تقل يا أخي كيف تكون صيرورة الحق سمعاً وبصراً لهذا العبد، فالإيمان بهذا الحديث واجب، والتعبير عنه قبل الوصول إليه حرام:

لا زلت أقرب منه حتى صار لي ☆ سمعا وبصرا حيث كنت وساعدي
فإذا رأيت فلا أرى إلا به ☆ وإذا بطشت فلا يزال مساعدي
إن شئت شاء وإن أمرت فأمره ☆ ما شاء يصنع حاسدي ومعاندي

وحاصل الأمر إن الغنى هو الغنى بالله، ومن لم يستغن به وبمعرفته فهو شقي، لقوله ﷺ: (**من لم تغنه معرفة الله فذلك هو الشقي**). وكيف لا يستغنى بمعرفته، ويكتفي بمشاهدته،

ويتلذذ بمناجاته! وهل بقي على هذا الغنى من مزيد حيث صار الكل طوع يديه، والناس محتاجون إليه، وهو لا يحتاج إلى شيء، لما منحه الله تبارك وتعالى وأبدله حقيقة من حقه، فكيف لا يتيه بحقيقته ويستغنى بحظه من الله. (**فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**) « يونس : 58 ».

صرت غنيا بلا درهم ☆ أتيه على الناس تيه الملوك
ومن ذا الذي نال مكانتي ☆ في الخلق من مالك أو من مملوك

وقال غيره:

فقل للملوك الأرض تجهد جهدها ☆ فهذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وقال ابن الفارض - قدس الله روحه - :

فيا سكرة منها ولو عمر ساعة ☆ ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم

وقال الأمير عبد القادر - قدس الله روحه - :

فقل للملوك الأرض أنتم وشأنكم ☆ فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كثر
خذ الدنيا والأخرى أبغيهما معا ☆ وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر

ثم قال رضي الله عنه:

أَفْقَرُ الفُقَرَاءِ مَنْ سُتِرَ الحَقُّ عَنْهُ

لا فقر يضاهي فقر من ستر الحق عنه مع شدة ظهوره، وعظم نوره. (**يهدي الله لنوره من يشاء**) « النور : 35 » (**ومن يضلل الله فماله من هاد**) « الرعد : 33 » فيا حسرته ويا بعده عن الحق مع قربه

منه، خاب سعيه، وضاع عمره في البطالة ولم ينزعج مما هو عليه. روي أن أهل الجنة في الجنة يعوون كما يعوي أهل النار في النار، وذلك إذا ستر الحق عنهم. يا من فنيت عمرك في الطريق ولم تحصل على شيء من غوامض التحقيق، ألا تنزعج مما أنت عليه، فمثلك كفاقد الماء وهو على شاطيء النهر. فمن لم يحصل على شيء من علم القوم فهو مسكين ذو متربة، ولو حاز من المال ما حازته الفراعنة:

مسكين ما ذاق طعم العشق مذ بدا ☆ فذاك من جملة الأنعام سارح

مسكين الجاهل المغتر يحسب أنه على شيء مفتخراً بما لا بقاء له. فالمفتخر بغير الحق مغرور:

فلا غبن في الدنيا ولا من رزيّةٍ ☆ سوى رجل عن نيلها حظه وزر

ولا حسْر في الدنيا ولا هو خاسر ☆ سوى واله والكف من كأسها صفر

الجاهل الغافل عن الحق لا يرى أكثر مما هو عليه، فهمته لا تتجاوز سقف بيته. فكان حظه من ربه كحظ المعرفة من قلبه. (الحق ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه).

الفقر فقر الفؤاد الخالي من اللقا ☆ والغني بغير الحق في غاية الفقر



الفصل الحادي عشر

في الزهـد والقنـاعـة

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْـــدُ عَـافِيَـــةٌ

الناس في طلب العافية مصطلحون، ولن تتمحض هذه المسألة في الغالب، لأنها موقوفة على الزهد، والبلية مقرونة بعدمه؛ الزهد عافية في الظاهر والباطن. ولا تحسبن العافية تنافي مواقع القدر، كلاَّ، وإنما هي كناية عن تخفيف أثقال البلايا. ولو كانت العافية تنافي ما سبق به القدر، لما وقع بأسلافنا ما وقع. وقد سألها سيدنا عمر، ومات مطعونا، وسألها سيدنا عثمان، ومات مذبوحا. وسألها سيدنا علي، ومات مقتولا. مع أنهم مجابوا الدعوة. نعم، قد أجيبت دعوتهم فقواهم الله على حمل ما نزل بهم حتى لا يؤثر ذلك في بواطنهم. وقد بلغك كيف كان ثباتهم وتلقيهم لسهام القدر بأنواع القبول، والمعين لهم على ذلك زهدهم في الدنيا، لما قيل: «من زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب».

وما عظمت البلية إلى على من لم يكن له أدنى زهد في الدنيا. وحاصل الأمر إن تخلي القلب من حب الدنيا هو العافية نفسها. وإن كان مُعَافًى من حب الدنيا، فالغالب لا تؤثر فيه البلية، وقد شاهدنا من خرج من الدنيا بقلبه كيف يتلذذ بالبلية ويذكرها أنها هي عين العافية. ومن لم يصل إلى ما ذكرنا يتألم من أدنى شيء أصابه. وفي هذا المعنى قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: «العارف بالله

يحمل الوجود من عرشه إلى فرشه على شفر من أشفار عينه، والمتباعد عن الله، إذا تعلقت بجناحه بعوضة ضج منها ». وكان يقول في مجالسه : يا غلام أنت تدعى معرفة الله، وإذا قرصك برغوث قامت قيامتك. وكل ذلك من محبة الدنيا، أعاذنا الله من شرها.

أيها المرء إن دنياك بحر ☆ موجه طافح فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها منير ☆ وهو أخذ الكفاف والقوت منها

ثم قال رضي الله عنه:

الإِيَاسُ رَاحَةٌ، وَالقَنَاعَةُ غِنًى

الإياس والقناعة من نعم الحق عز وجل على عباده المخلصين، فمن حصل عليهما كان في راحة والناس في تعب. ليس الغنيُّ من جمع المال، إنما هو من أفقر الفقراء، لو كشفت على اللهيب الموقود في باطنه، وتشوفه، وطمعه لأشفقت من حاله، فتعرف حينئذ أن الغنيَّ من كانت القناعة من نعته، والإياس من وصفه، قد عاش والله وتلذذ وتنعم بنعمة قليلة الوجود، والناس في غفلة، حتى لو سألته وقلت له : ما تحتاج ؟ لأجابك بعدم الاحتياج إلى شيء. بل لو سأله مولاه لأجاب بما أجابك. وأي غنى أعظم من هذا :

إن الغنى غنى النفس عما تشتهي ☆ وفقرها تشوفها إلى الفضول

ولبعضهم رحمة الله عليه :

إن قيل لي يا عاري أسألن ما تريد ☆ قلت الرضى يا باري عسى نموت شهيد

سألت شيخنا سيدي محمد البوزيدي - رحمة الله عليه - عن

البركة ما هي ؟ فقال لي : هي القناعة، لأنها كنز لا يفنى . فمن كان له نصيب منها، كان لا يحتاج إلى أحد . وكان له - رضي الله عنه - حظ وافر منها، ومن العجب أنه لم يذكر لنا احتياجاً مدة اجتماعنا معه، وكنا إذا ناولناه بعض الأطعمة أو الأشربة حسب الزمان، يقول : كنا عند سيدي « محمد بن قدور » - رضي الله عنه - في بعض الأيام نأكل الحشيش ونشرب الماء من عين زورة ونفترش الحلفاء، وكان الفقراء يسمونها بالسندس الأخضر، ونسكن الغيران، وكان إذا بعثنا الشيخ - رحمة الله عليه - لنأتي بنبات الأرض للمعاش، أنا ومن معي من الفقراء، فيأخذ الفقراء في تخيير النبات الذي يناسب الطبخ، وكنت أنا آخذ ما يحاذيني بدون أن أتشوف لما وراء ذلك، فأنكر علي الفقراء وقالوا : يوجد في العشب ما لا يصلح للأكل . فقال الشيخ : دعوا البوزيدي هو ناقة الله يأكل في أرض الله. وكنا في راحة وقناعة لم توجد لذتها. فانظر يا أخي وقس راحة هؤلاء مع راحة المتعوبين. فالراحة كل الراحة في القناعة:

هي القناعة فالزمها تعش ملكا ☆ لو لم يكن منك إلا راحة البدن

وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ☆ هل راح منها بغير القطن والكفن

وفي الحديث : (**ما من يوم طلعت فيه شمس، إلا وملكان يناديان يسمعهما خلق الله إلا الثقلين : أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**) وقال بعضهم : « صاحب القناعة ومالك الدنيا غير متساويين، بل صاحب القناعة أقل حزناً، وأطيب نفساً، وأقر عيناً ».

قيل : إن بعض الملوك كان يترقب من قصره وإذا بفقير أسفل القصر يلتقط من المزابل ما يقتات به، فوجد قطعة من خبز فأخذها

وأتى بها إلى عين من الماء كانت في جانب القصر، فغسلها ثم أكل منها وشرب من ذلك الماء، وحمد الله عز وجل وأثنى عليه بالشكر، ثم توضأ وصلى ما وجب عليه، ثم افترش ثوبه في ظل القصر ونام ما شاء الله، والملك يتفكر في حاله، فلما أَفَاقَ من نومه، أمر الملك بإحضاره، فلما أحضروه سأله: ألك احتياج إلى شيء حتى أكفيك مؤنته؟ فأجابه: إني لا أحتاج، فقال له الملك: وكيف ذلك؟. قال: كنت جائعا، فأكلت وشربت ونمت وأنا الآن مستريح. فقال الملك: والله ما توصلت أنا لما حصلت عليه أنت، فإني ما استرحت ولا قنعت منذ خلقت، ثم خلع الملك وانفرد لله عز وجل. ولبعضهم رضي الله عنه:

قناعـــة المرء بمـــا عنـــده ☆ مملكة مـــا مثلهـــا مملكـــة
فارضوا بمـا قـد جـاء عفوا ولا ☆ تلقـوا بأيـديكم إلى التهلكـة

نتحصل من هذا أن الغنى هو عدم التشوف، ورفع الهمة عن الكل، والفقر هو بعكسه. وللإمام النووي في هذا المعنى:

وجـدت القنـاعـة أصـل الغنى ☆ فصرت بأذيالهـــا متمســـك
فـــلا ذا يراني على بابـــه ☆ ولا ذا يراني لـــه منهمـــك
وعشـــت غنيـــا بـــلا درهم ☆ أمر على النـــاس شبـــه الملـــك

قال بعض العارفين: خرجنا من المدينة حجاجاً، فلما كنا بالزاوية نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة، وله هيبة وصورة حسنة ومروءة، فقال: من يبغي خداماً، من يبغي سقاة؟ فقلت: دونك هذه القربة، فأخذها ثم وضعها وهو كالمسرور ضاحكاً، ثم قال: ألكم غيرها؟ قلنا لا، فأطعمناه قرصاً بارداً، فأخذه وحمد الله سبحانه

وشكره، ثم اعتزل وقعد يأكل أكل الجائع، فأدركتني عليه شفقة وقمت إليه بطعام طيب كان معنا، وأكثرت له منه، فقلت له: قد علمت أنه لا يقع القرص منك موقع الاستحسان، فدونك هذا الطعام، فنظر في وجهي وتبسم وقال: يا عبد الله، إنما هي فورة جوع، فلا أبالي بأي شيء أردُّهَا عني. فرجعت عنه. فقال لي رجل إلى جانبي: أتعرفه؟ قلت لا، قال: إنه رجل من بني هاشم من نسل العباس بن عبد المطلب، فذهبت إليه وطلبت منه أن يقدم عندي لرحلي، فجازاني خيراً وقال لي: لو أردت هذا لكان لي ميعاد، ثم آنس إلي وجعل يحدثني وقال لي: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبرٍ شديد وتجبر، وإني أمرت خداما لي أن يحشوا لي فرشا من حرير ووسادة بوردٍ كثير، فبينما أنا نائم إذا بقماع ورد قد غفلت عنه الخادمة، فقمت إليها وأوجعتها ضربا، ثم عدت إلى مضجعي ونمت، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال لي: أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك، ثم أنشأ يقول:

يا خـذُ أنك إن توسـد لينـا ☆ وسدت بعد الموت صم الجندل
فمهد لنفسك صالحـاً تسعـد بـه ☆ فَلَتَنْـدَمَنَّ غـداً إذا لم تفعـل

قال: فانتبهت فزعاً فخرجت من ساعتي إلى ربي هاربا. فهذا خبرى.

فهذا حال من أثرت فيه الموعظة، وإلا قد يرى الغني الجاهل المثبور من يزهده في الدنيا بأجمعها ولا يبالي (**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**) « **المطففين: 14** » فلو تأمل الإنسان فيما وراء ذلك لأخذ من الدنيا ما يكفيه. وقد انقضت الأيام. ولله در القائل:

وزهرة الدنيـا وإن ينعـت ☆ فإنهـا تسق بمـاء الـزوال

ثم قال رضي الله عنه:

«الطَّمَعُ فِي الخَلْقِ شَكٌّ فِي الخَالِقِ»

لا يطمع في الخلق إلا محجوب، ولا يشك في الخالق إلا مسلوب. سئل النبي ﷺ عن القناعة فقال: (**هي الإياس مما في أيدي الناس، وإياكم والطمع، فإنه الفقر الحاضر**) وقال أيضا: (**عز من قنع وذل من طمع**) وقال بعضهم: «لو سئل الطمع من أبوك؟ لقال الشك في الخالق».

وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

أمت مطامعي فأرحت نفسي ☆ فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ☆ ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد ☆ علته مهانة وعلاه هون

وقال غيره:

لا تخضعن لمخلوق على طمع ☆ فإن ذلك وهن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ☆ فإن ذلك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ☆ استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقيل إن الإمام علياً - كرم الله وجهه - دخل إلى مسجد البصرة فوجد الحسن البصري في مجلسه فقال له: يا فتى إن جاوبتني على مسألتين أقررتك على ما أنت عليه، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك. فقال: على ما في علمي يا أمير المؤمنين. فقال له: ما صلاح الدين؟ قال: الورع. فقال له: وما فساد الدين؟ قال: الطمع. فشكره على ذلك وأوصى بتعظيمه.

الطمع هو الفقر اللازم والإحتياج الكلي المقرون بالهوان.

والخلق ليس لهم ما يكفيهم، فكيف أنت تحتاج إليهم وتطمع فيما في أيديهم. فلو فتشتهم وسألتهم عما احتجب عنك من سرائرهم لو جدتهم أحوج منك. ما أحوجك للخلق إلا عدم ثقتك بالخالق. فقسمتك من رزقك لا تفوتك، وقد قام به غيرك، فلا تتهمه في قسمته لك، فإنه أولى بك من نفسك، فإذا كنت من عياله، كيف تحتاج إلى غيره. قلت:

أيا فقير الحال تطمع في مثلك ☆ فصرت لجهلك فقيراً إلى الفقر

فالحق سبحانه وتعالى ينفق على كل أحد حسب ما يستحقه إليه من حيث الحكمة. فرغ ربك من أربع: من خلق، وخلق، ورزق، وأجل. لا يكون تشوفك اللاحق سببا في عطائه السابق، **(لا تبديل لخلق الله)**. أسكن تحت رضاه، وخذ ما أتاك، وكن من الشاكرين، وإن لم يأتك فكن من الصابرين، فإن منع الحق أحسن من عطاء الخلق. الخلق ليس لهم من الرزق إلا مجرد النسبة، أتطلبهم أن يعطوك ما ليس لهم. فكن يا أخي واثقا بالله، وارض بما قدره وارتضاه، وانظر لما دونك تسترح، وأشفق من نفسك ساعة وقد أتى الرحيل، فتأتي الراحة الأبدية والمنة الدائمة تدخل **(جنة عالية لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة)** « الغاشية: 10 » ذلك وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد. وقد وعد الله بذلك من صبر من الفقراء الصالحين أن يدخلوها قبل الأغنياء الشاكرين. قال ﷺ: **(ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلفة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قدرين، ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد)**.

المؤمن لا يخلو في الدنيا من تعب لأنها دار عذاب وعسر ونصب. وكيف يتخلص من ذلك وقد قال ﷺ: **(الدنيا سجن المؤمن)**. الإيمان مقرون بالمحن. قال في الحكم العطائية «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار، فإنها ما برزت إلا موجب وصفها ومستحق نعتها».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ اشْتَغَلَ بالدُّنْيَا ابْتُلِيَ بِالذُّلِّ فِيهَا

أي من اشتغل بالدنيا اشتغالاً كلياً حتى أدبر عن الأخره ابتلي بالذل فيها، لأنه صار مملوكاً لها، مقهوراً في حياطتها بل أسيرها. وقد قيل: إن عبد الدنيا أسير. وكفى بالأسير ذلًّا، فهو تعيس السيرة، مطموس البصيرة. قال ﷺ: **(تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم)** حيث كانت همته لا تخرج عن الدرهم، وكلما انحط للدينار إلا وازداد في الانحطاط حتى تجد أن من ابتلي بمحبة الدنيا وجمع الأعراض الزائلة، لو قيل له: إن في جمع القاذورات فائدة غزيرة لصار يجمع في ذلك بدون أن يبالي بشيء، فهو يقصد الدرهم حيث وجده بقطع النظر عن كل عارض خير أو غير.

فالدنيا في نظر العارفين الذين تجافوا عن زينتها أقذر من القاذروات وأخبث من الخبائث. وكفى بما وصفها به ﷺ: **(الدنيا جيفة وطلابها كلاب)** ومن حيث أنها جيفة لا يحل لمن اطلع على عورتها أن يَدَّخِر أكثر مما يحتاج إليه في ذلك الوقت، لأن الميتة تؤكل عند الاضطرار **(فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه)** «البقرة: 173»

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في مقالته الخامسة من كتابه « فتوح الغيب » : « إذا رأيت الدنيا في يد أربابها بزينتها وأباطيلها، وخدعها، ومصائدها، وسمومها القتالة مع لينٍ من ظاهرها، وضرورة باطنها، وسرعة هلاكها، وقتلها لمن مسها واغتر بها وغفل عن وبالها وغرورها بأهلها، ونقض عهدها، فكن كمن رأى إنسانا على الغائط بالبراز بادية سوءته وفائحة رائحته، فإنك تغض بصرك عن سوءته، وتسد أنفك من رائحته ونتنه ». فهكذا كن في الدنيا إذا رأيتها، غض بصرك عن زينتها وسد أنفك عما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها تنج منها ومن آفاتها، ويصل إليك قسمك منها وأنت مهنى. قال الله تعالى لنبيه ﷺ : **(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى)** « طه : 131 » اهـ.

وكلام القوم في ذم الدنيا لا ينافي بعض الاشتغال، بل ينافي الاشتغال الكلي، وهو ميلان القلب وتعلقه بحبها والرغبة في جمعها. وأما السبب المطلوب لا يناقض وجود التوكل، بل مما يزيد عزّاً لصاحبه: **(ولا تنس نصيبك من الدنيا)** « القصص : 77 ». قلت :

تسبب ولا تحسب إنك متسبب ☆ ففي السبب عز إذا رأيت المسبب
فلا يشغلك عنه سبب وإن جرى ☆ فاتركه لغيرك ولله فاطلب

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ تَزَيَّنَ بِزَائِلٍ فَهُوَ مَغْرُورٌ

كل ما سوى الله زائل لا محالة، خصوصا الدنيا وزخرفها لقوله ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)**.ومن تزين بالباطل فهو مغرور، لأنه زائل **(فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)** «الرعد: 17». وقد قيل: من أراد أن يتعزز بعز لا يفنى، فلا يعتز بعز يفنى. ومثل المتعزز بالزائل كمن رآى في منامه أنه قابض على دراهم وأفاق في أثر ذلك المنام فيصير ينظر في يديه فلا يجد شيئا، لأن الحالة التي كان عليها ليس لها وجود في الخارج، إنما هي اعتبار للمعتبرين، فكذلك المتزين بالدنيا من مال، وجاه، وصولة، ورئاسة وما أشبه ذلك، إذا خرج إلى الآخرة يجد يده فارغة **(إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه)** «الرعد: 14» فيرى الحالة التي كان عليها مجرد منام، لقوله ﷺ: **(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)**.

أهل اليقظة، العارفون بالله لم يتزينوا بالزائل، إنما زينتهم العلم بالله والخشية منه. وقد قيل في مدحهم:

تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب ☆ فما استقرَّ بهم ربع ولا طلل
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ☆ ولا جناها ولا حلي ولا حلل

فعلوا ذلك اقتداء بأسلافهم الصالحين والخلفاء الراشدين، حيث جفوا الدنيا وزخرفها، إنما أخذوا منها ما مستهم الحاجة إليه، لم يشتغلوا بها عن آخرتهم.

ثم قال رضي الله عنه:

اِطْرَحِ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا وَاقْبِلْ عَلَى مَـوْلاَكَ

الناس في حب الدنيا سكارى وفي طلبها حيارى (**وترى الناس سكارى وما هم بسكارى**) «الحج: 2» قد أخذت قلوبهم وأفئدتهم، بل سمعهم وأبصارهم. (**وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**) «الأعراف: 198» (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون**) «البقرة: 17» ما سواها ولا يلتفتون لما عداها، فارين من الله فرار الحمار من الأسد، (**كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة**) «المدثر: 50» إذا خاطبتهم لا يسمعون، وإذا نصحتهم لا يستنصحون، يقولون لك سمعنا وهم لا يسمعون. فاطرح أيها المريد الصديق الدنيا على من اشتغل بها، واقبل على مولاك، فإن المجال رحب واسع، والميدان شاسع، ولا معارض لك إن طرحت الدنيا ولا مانع، فانفرد بهذه النصيحة واقبل على مولاك، فإن المقبلين على الله أقل من القليل، وقليل ما هم، فتكون عند الله عزيزا لقلة أمثالك في الإقبال على الله، حتى إذا وصلت وجاوزت ما جاوزت، وكنت مقبولا عند الله عز وجل، وكيف لا وقد طرحت الدنيا على أهلها وأقبلت على خالقها، فلا جرم أنه يجذبك إليه ويقتنيك لنفسه، وذلك من نعته، فقد قال في بعض كلامه: (**من اشتاق إلي اشتقت إليه، ومن تقرب إلي تقربت إليه، وإني أولى بالعبد من نفسه**).

ثم قال رضي الله عنه:

تَـرْكُ الدُّنْيَـا لِلدُّنْيَـا شَرٌّ مِنْ أَخْذِهَـا

أي من ترك الدنيا من أجل الدنيا ليتوصل بتركه لها أكثر مما تركه منها، فكان تركه شرًّا من أخذه لها، أي أشد عقوبة عليه، لأنه جعل الزهد وسيلة في الرغبة، صير الطاعة معصية حيث جعل تركه لها سلما يتوصل به إلى غاية لا يصلها بغيره كانتشار الصيت، وتربية الجاه، وما أكنته طويته، فليته أخذ ولم يترك. ولهذا قال بعضهم: « احذر أيها المريد آفات الرد أكثر من أن تحذر آفات الأخذ ». ولا تترك يا أخي شيئاً من دنياك حتى تعلم من نفسك أنها تريد به وجه الله وثواب الاخرة، وإلاّ تكن معاقبا على الترك أكثر من عقوبتك على الأخذ. فمهما فهمت من نفسك أنها تريد أن تترك شيئا لتنال ما أضعف منه، فأمسك ولا تتسبب في ذلك وفر منه فراراً كلياً، وارجع لله فيما سولت لك نفسك، واتبعها باللوم على قلة حيائها من الله. قال بعض العارفين: « لا ينبغي للمخلص أن يترك شيئاً يريد به ثواب الآخرة » لأن الله قال: **(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)** « **الأنعام: 160** ».

العارف يستحيي من الله أن يترك شيئا لكي ينال ما أضعف منه بل يريد أن يترك شيئاً لله لا يريد به جزاء ولا شكوراً. فانظر - بارك الله فيك - أحوال المخلصين، فإنهم لا يتركون الدنيا لأجل الآخرة، فكيف حال من يترك الدنيا للدنيا، فهل هذا إلا تاجر إن لم يكن فاجراً، فمثله كصاحب الربا، فكل يحتال بسيرته. إلا أن ترك الدنيا للدنيا أشد عقوبة من غيره لتستره بالدين، بخلاف صاحب الربا فهو متلبس بقلة الدين، لا يخفى حاله على الخلق، فكل يعلم حقيقته. إياك يا أخي وأكل الدنيا بالدين. فلا تستعمل عملا حتى تستحضر فيه نيتك وتخلص فيه كل الإخلاص لرب العالمين.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ كَانَ الأَخْذُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الإِخْرَاجِ فَلَيْسَ بِفَقِيرٍ

لاَ يَكُون الفقير فقيراً والمراد به الصوفي المنقطع إلى الله، إلا إذا كان عنده الأخذ والعطاء على حد سواء، وإلا فهو تاجر كما تقدم، لأن الأخذ فائدته لينفق به على نفسه ومن يعوله ومن أحوج منه، وبهذا رخص له في الأخذ. ومن كان الأخذ أحب إليه من العطاء فهو مُتَّهَمٌ لجمع الدنيا ممن يأكل الدنيا بالدين، فهو أشر المنتسبين إلى الله. إياك أيها الفقير أن تركن للأخذ دون العطاء، فإن كنت تأخذ من الخلق، فلك أن تمد للخلق ولا تمنعهم حقهم. وإن كنت تزعم أنك تأخذ من الحق، والكلام يعود على المتجرد عن الأسباب، لا على أهل الحرف والتجارة، فذلك حكم أخر، فأخذهم موقوف على وجود الأسباب، لا يدخل فيما ذكرناه.

وانظر بارك الله فيك، وفي نسلك فيمن مضى من رجال الطريق وآثارهم، وبذلهم وإعطائهم وزهدهم في ملكهم فضلا مما يأخذونه من الناس، فهم ينفقونه على الناس. فانفق بارك الله فيك، ولا تشتغل بما تتركه لأبنائك، فذلك موكول لله عز وجل.

دخل بعض الفقراء على زوجته يستأذنها في الذهاب لبيت الله المعظم، وقال لها: نترك لك زاد سنة وأذني لي في الذهاب، فقالت: لا نرضى حتى تترك لي ما يكفيني طول حياتي، فقال لها: ذلك موكول لله عز وجل. فقالت: إن كنت تعلم ذلك، فلماذا لا تتوكل عليه فيما تركته في هذه السنة؟.

فانظر رحمك الله ما أزهد هذه المرأة مع ضعفها من كل الوجوه. فكيف بك أيها الرجل الذي وصفك الله عز وجل بالقوة حيث قال: **(الرجال قوّامون على النساء)** « النساء : 34 ».

خصوصا مع نسبتك إلى الله، فلا يسوغ لك الرغبة في الدنيا، وليس ذلك من شيمتك، وغير مطابق لمقامك. فإن كنت تأخذ ما تتركه لأبنائك فيحرم عليك الأخذ، لأنك تأخذ من الناس ما يتركونه لأبنائهم، وتتركه أنت لأبنائك. فهل هذه قسمة بالسوية؟ كَلَّا! إنما هي رغبة بالكلية، وليس ذلك من أفعال العارفين، إنما هو من أفعال المتلصصين. اتق الله في سيرتك لئلا تكون حجة عليك، ويطرأ عليك قوله عز وجل: **(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب)** « البقرة : 44 » **(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)** « الصف : 3 ».

اترك الدنيا أخي لأهلها، وإن أخذتها خذها لتستعين بها على الله، ومن يعولك وواس الفقراء والمساكين، فإنهم عيال الحق، وأقرب الخلق إلى الله أحسنهم لعياله.

ارحم بني جميع الخلق كلهم ☆ وانظر إليهم بعين الحلم والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم ☆ وراع في كل خلق حق من خلقه

وواس نفسك وأهلك، فإنك من جملتهم فيما تحتاجونه في الوقت القريب. ولا تمدن عينيك من بعد موتك، فذلك موكول للحق عز وجل، ومهما اشتغلت به وكلت إليه أمورك وانسلخت مما كنت عليه تفز بكل خير.

قد يوجد في بعض العارفين من كان العطاء أحب إليه من الأخذ، ولولا أن أخذهم كان من الله لما أخذوا من الخلق.

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ فَضِيلَةٌ، وَفَرِيضَةٌ، وَقُرْبَةٌ. فَفَضِيلَةٌ فِي المُتَشَابِهِ، وَفَرِيضَةٌ فِي الحَرَامِ، وَقُرْبَةٌ فِي الحَلَالِ

إنّ الزهد إما أن يكون فرضا، وإما أن يكون فضيلة، وإما أن يكون قربة. فتنقسم مراتب الزهد إلى مراتب ثلاثة، فالمرتبة الأولى هي: الزهد في الحرام، وهي فريضة في الجملة، أي فريضة على كل مسلم أن يزهد في الحرام، ويقطع النظر عليه كأنه لم يكن موجوداً، وهذا هو زهد العامة. وزهد الخاصة في المتشابه، وهو فضيلة وذلك أن المريد يطلب في حقه أن يترك كل ما فيه شبهة لله عز وجل، لا يتشوق إليه كأنه لم يكن، معدوماً من أصله. وزهد خاصة الخاصة الذي هو قربة يكون في الحلال، فصاحب هذا المقام خارج عن الكل بقلبه بل بروحه وعقله، عازف عن الدنيا وشهواتها، بل عن الآخرة ولذاتها. فأهل هذا المقام انقطعوا عن الكل، فارتضاهم الحق لنفسه واصطفاهم من بين خلقه، واختصهم بقربه واصطنعهم لحضرته، فلم يأخذوا من الدنيا ولم تأخذ منهم، ولا تشوقوا للآخرة وكم طلبتهم، يشتاقُ لهم كل شيء، ولا يشتاقون لشيء، يحبهم كل شيء، ولا يحبون شيئاً، استعبدوا كل شيء، ولم يستعبدهم شيء. فهؤلاء عباد الله حقاً، وأحبابه صدقاً، خرجوا من الدنيا كأنهم لم يدخلوها، ومكثوا في الحضرة الإلهية كأنهم لم يفارقوها.

الذكر مطعمهم والشكر مشربهم ☆ والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا
تراهم الدهر لا يمضون من بلد ☆ إلا ويبكي عليهم ذلك البلد

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) « النور : 37 » .

لم تلهيم زينـة الدنيـا وزخرفهـا ☆ ولا جناهـا ولا حلي ولا حلـل
تاهوا على الكون مَن وجد ومن طرب ☆ فمـا استقـل بهم ربع ولا طلـل

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ العُزُوفُ عَنِ الدُّنْيَا، وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا لِحَقَارَتِهَا، وَتَرْكُهَا لِاسْتِصْغَارِهَا وَهَوَانِهَا.

الزهد والعزوف عن الدنيا ينشأ بسبب نظر العارف لزوالها وانكساف نورها. فإذا تمكن ذلك من قلبه، فلا محالة يعرض عنها حيث يلاحظها ببصر الإيمان والإيقان، فيظهر له ما هنالك من خستها وبشاعتها، فيكون فيها كالغريب وعابر سبيل، فيتجافى عن لذتها، ويتسلى عن نعيمها حيث يرى وجودها زائلاً، وجمالها ذابلاً، وعقابها بعد ذلك لا محالة حاصلاً، فالعزوف عنها سمة العارفين، والوقوف معها وصف الجاهلين المغترين. ولبعضهم في هذا المعنى:

فحلاوة الدنيـا لجاهلهـا ☆ ومرارة الدنيـا لمـن عقـلا

وقيـل أيضـا:

إذا أدبرت كانت على القلب حسرة ☆ وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

لا تغتر يا أخي لزخرفها فإنه بطال، وبقاءها محال، وأنت ترى تقلباتها في كل وقت وحال، طعامها قتال، وأبناؤها جهال. ومن النصائح لبعضهم:

كلفت بها دنيا كثيراً غرورها ☆ تقابلنا في نصحها بالخديعة

إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت ☆ أساءت وإن صافت أتت بالكدورة

ولو نلت منها مال قارون لم تنل ☆ سوى لقمة في فيك منها وخرقة

فدكها وأهلها بقسم وخذ كذا ☆ بنفسك عنها فهي كل الغنيمة

ولا تغتبط منها بفرحة ساعة ☆ تعود بأحزان عليك طويلة

فعيشك فيها ألف عام وينقضي ☆ كعيشك فيها بعض يوم وليلة

عليك بما تجزى عليه من التق ☆ فإنك في لهو عظيم وغفلة

فإن استقر في ذهنك وصفها، وتمكن في قلبك نعتها، أي شيء تعمل بصحبتها، وماذا تقضي في محبتها، إنما تأخذك عبداً مملوكاً حتى إذا استفرغت فيها كل الجهد قابلتك بالأضداد. كلما أضحكتك أبكتك، وكلما حبتك جفتك، فستراها زائلة عنك، أو تزول أنت عنها. تقبض منها كالقابض على الماء. لا ميثاق لها ولا عهد، ولا محبة لها ولا ود، كم أخذت رجالاً من مناصبهم العالية ووعدتهم بتمام المنية، ولما جالت بهم في ميدان الحرص والإنهماك، نكلتهم وتركتهم، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. كن عاقلاً واعتبر بمن سبق وبما سيلحق، وناهيك قوله عز وجل في وصفها: **(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو)** وقوله أيضا: **(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، وفي الأخرة عذاب شديد)** « الحديد : 20 » فكان منتهى وصفها العذاب الشديد. العاقل لا يعقل، وأعقل الناس من خرج منها بقلبه حتى صارت مصائبها لا تؤثر فيه، وجمالها لا يعبأ به، لأنها دار لمن ليست له دار، وقرار لمن

ليس له قرار والكل يعلم منها ذلك حقيقة. (**فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**) «الحج : 46» فمن له قلب يراها كما رآها حارثة رضي الله عنه لما سأله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا. فقال: ما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي مدرها وذهبها، وكأني بعرش ربي قد نصب، وكأني بأهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. الخ الحديث. فتأمل بارك الله فيك كيف كان له ذلك لما تمكن نور الإيمان من قبله، فهو في الدنيا وكأنه لم يكن فيها. قال بعضهم:

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ☆ ولا تخطبن فتالة من تناكح
فليس يفي مرجوها بمخوفها ☆ ومكروهها إن ما تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا ☆ وعندي لها وصف لعمري صالح
سلاف قُصَارَاهَا زعاف ومركب ☆ شهي إذا استلذذته فهو جامح
وشخص جميل يؤنس الناس حسنه ☆ ولكن له أسرار سوء قبائح

كان إبراهم بن أدهم - رضي الله عنه - صاحب خراسان فإذا هو ذات يوم على جواده، فنودي من قربوصه، ما لهذا خلقت عبادي، ولا بهذا أمرت أهل ودادي. فقال: أصابني سهم في مقتل فؤادي، فخربت ملكي وتغربت عن بلادي، فلما انفصل عن ملكه، وساح في البوادي، وانقطع عن الرفيق، بقي سبعة أيام لم يصل إلى بطنه لقمة من طعام، فغار الشيطان من صدقه وشدة عزمه، وأتاه على صورة شيخ قائلا له: يا إبراهيم إني لك من الناصحين، إن الحبيب الذي تركت لأجله ملكك، قد ضيعك حتى أشرفت على الموت. فقال له: لا بأس بذلك. فبينما هو كذلك إذ أقبل عليه شخص من أحسن الناس وجها، وقال: يا إبراهيم، تريد أن أعلمك الإسم الأعظم، فتسقى

به وتطعم ؟ فقال نعم . فعلمه إياه ، فقال له من أنت ؟ قال أنا الخضر ، أتريد أن أصحبك ؟ قال لا ، قال وَلِمَ ؟ قال : لأن الصحبة لا تحصل إلا بالمشاركة، وأنا لا أريد أن أشاركك في مصحوبي ، ولا أصحب غير محبوبي . فانفرد كل من ساعته.

كان إبراهيم – رضي الله عنه – لما انفصل عن أهله فارق زوجته وهي حامل ، فولدت له ولداً فسموه أدهم باسم جده ، فلما كبر قال لأمه : يا أماه أما كان لي أب ؟ قالت بلى والله يا بني ! كان لك أب ، وأي أب ! فقال : أين ذهب ؟ فقالت يا بني ذهب في طلب ربه ، فقال يا أماه ، دعيني أذهب وأطلب ما طلب أبي لعلي أفوز بأربي . فقالت بالله عليك يا ولدي إن أباك قد أحرق قلبي بفراقه، فلا تحرق أنت قلبي بفراقك. فمكث رعاية لأمه حتى ماتت فبقي حزينا لا أم له ولا أباً. فخرج حافيا وعن الناس خافيا، يبيت بالمساجد المهجورة ويسأل اللقمة من الأبواب ، إلى أن وصل إلى مكة شرفها الله تعالى ، فبينما إبراهيم في الطواف ومعه بعض مريديه، إذ نظر الشيخ إلى الشاب وجعل يحدق بالنظر إليه ، فأنكر المريد عليه وقال : يا سيدي ما هذه الغفلة في هذا المكان والوقت، تحدق بالنظر إلى صورة مستحسنة ؟ فبكى الشيخ وقال للمريد : إذهب واسأله من هو ؟ فذهب المريد إليه وسلم عليه وقال له : من أين أنت أيها الشاب ؟ فقال : من بلاد العجم من بلخ، فقال : ابن من ؟ فقال : لا أدري ، إلا أن أمي قالت لي إن إسم أبيك إبراهيم بن أدهم ، ثم تناثرت دموعه على خده . قال المريد : فرجعت إلى إبرهيم فوجدته قد بكى حتى غشي عليه ، فجلست عند رأسه حتى أفاق . فقلت له : يا شيخ ، الله يأخذ حقك من هذا الشاب ، فقال : هذا والله ولدي تركته لله تعالى فلا أعود فيه .

فقلت له: أيها الشيخ، سألتك بالله إلا ما قمت إليه، فقام إليه، فقال له الصبي: من أنت؟ فقال: أنا أبوك إبراهيم بن أدهم، ثم ضمه إلى صدره وقال: إلاهي هذا ولدي وقطعة من كبدي، وقد جاء في طلبي، وقد علمت موضعه من قلبي وأنا لا أتفرغ له، وأنت أعلم بمصالح عبادك. فما مضت على الشاب سبعة أيام حتى قضى نحبه، فغسله أبوه بيده وكفنه في قطعة كساء غليظ كلما غط رأسه بانت رجلاه، وكلما غطى رجليه بان رأسه، وهو يقول: قرة عيني، الله يجمع بيني وبينك يوم القيامة. اهـ

فتأمل بارك الله فيك، زهد هذا الإمام وعزوفه عن الدنيا. ومن قوله رحمة الله عليه:

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا ☆ فلا ديننا يبق ولا ما نُرَقِّعُ
فطوبى لعبد أثر الله ربه ☆ وجاد بدنياه لما يتوقع

وقال غيره في هذا المعنى:

هب الدنيا تساق إليك عفوا ☆ أليس مصير ذاك إلى الزوال
وما دنياك إلا مثل ظل ☆ أظلك ثم آذن بانتقال

ومن النصائح أيضا:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ☆ إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة ☆ كل الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ☆ قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ☆ يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة كيا تعانق في الفردوس أبكارا

ولا شك أن المؤمن إذا علم هذا علم يقين وتمكن من قلبه غاية التمكين، تسقط رغبته في الدنيا، وتنهدم لذته، ويتشوف لما وراء ذلك من النعيم المقيم، لأن الدنيا ليست دار مقام، فلهذا كانت محلاًّ للأهوال في الغالب. يقول كمن قال:

وقد جاء وقت الزهد أهلا ومرحبا ☆ مكانك بين السحر مني والنحـر

خلوت عن الأملاك طراًّ فلا أرى ☆ أميل إلى ملك ولو كان ذا خطر

لك الصبر عن حمد الورى ولك الثنا ☆ ولا خير في عز يفـــارق في حشر

ولم يبق من الزهد في زماننا هذا إلا مجرد الذكر على نعت التورية، وأما وجوده حقيقة فهو أعز من أن يوجد.

تجد كل الناس على اختلاف طبقاتهم طالبين الدنيا فضلاً عن أن يتركوها من عامة الخلق وخاصتهم، ولهذا كان الوعظ لا يسري في بعضهم، لأن الكلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي برز منه.

سئل الجنيد – رضي الله عنه –: ما بال علماء زماننا لا نتعظ بوعظهم كما كان علماء السلف؟ فقال: « علماء السلف كانوا أيقاظاً والناس نيام، يمكن انتباه النيام، وعلماء زماننا نيام والناس أموات، وهل يمكن للنائم أن يحيي الميت ». هذا في زمان الجنيد، وكيف بزماننا. قد تجد المنتسب مفتونا في حاله فضلاً عن أن يذكر غيره، ذاهلا في عبادته ومعاملته مع الحق، استولت الغفلة على القلوب.

أشفق أخي على نفسك، وقم بما وجب عليك، وأفرغ قلبك من هم ما ليس في طوقك، وأزل الكل من قلبك وأقبل على الله بسرك، فإنك في فتنة ولم تشعر، واسمع ما قال الشاعر:

تصلي بلا قلــب صــلاة بمثلهــا ☆ يصير الفتى مستوجبا للعوقبـة

تصلي وقد أتْمَمْتَهَا غير عالم ☆ تزيد احتياطا ركعة بعد ركعة

فويلك تدري من تناجيه معرضا ☆ وبين يدي من تنحني غير مخبت

تخاطبه إياك نعبد مقبلا ☆ على غيره فيها لغير ضرورة

ولورد من ناجاك للغير طرفه ☆ تميزت من غيظ عليه وغيرة

أما تستحيي من مالك الملك أن يرى ☆ صدودك عنه يا قليل المروءة

صلاة أقيمت بعلم الله إنها ☆ بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة ☆ إذا عددت تكفيك عن كل ـة

هكذا حال الغالب كما هو حالنا، وكيف حال المقتدي بنا. **(إنا لله وإنا إليه راجعون)** « البقرة : 156 ».

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ أَعَمُّ مِنَ الوَرَعِ، لِأَنَ الوَرَعَ اتِّقَاءٌ، وَالزُّهْدَ قَطْعُ الكُلِّ

إلا أن الزهد ينقسم إلى قسمين، زهد فيما في يديه، وزهد فيما سوى الله في الجملة، فصاحب هذا المقام الثاني زاهد حتى فيما عند الله، فهو لا يبغي بمحبوبه بدلاً ولا يرقى لشيء في العالم من علويات وسفليات، فلو عرضت عليه الدنيا وزخرفها والآخرة ونعيمها لم يلتفت لذلك أدنى التفات، لرؤيته الكل هباءً منثوراً. ومن هنا قوله ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر):**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ☆ وكل نعيم لا محالة زائل

فهذا معنى زهد الخاصة، وأما زهد العامة فقد تقدم الكلام عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَخْلَعِ العِذَارَ لَمْ تُرْفَعْ عَنْهُ الأَسْتَارُ

قد يطلق العذار في هذا المعنى عن كل ما سوى الله، وربما كنى به المصنف عن المألوفات النفسانية والعوائد البشرية والتقييدات العادية وعلى كل حال، من لم يخلع العذار لم ترفع عنه الأستار، إذ كل من تقيد بشيء من العوائد اعتقل واحتجب به عن ربه، ولا يتخلص المريد إلا إذا خلع الكل.

أترك جميع المراد ☆ ومل إلى الله مَيْلاَ
لا ترى في الكون سواه ☆ وفي الجميع تَجَلَّى

ثم إن الحجب والأستار قد تكررت في ألفاظ القوم حتى يشك السامع أو يعتقد أن هنالك حائلاً بين العبد وربه ولا بد من خرقه، وهو المانع، وربما يصوره أمراً محسوسا وجوديا مع أن كلًّا من الحجب والأستار، والقواطع والأغيار والظروف، وما في معنى ذلك، كناية عن أمور وهمية لا حقيقة لها ولا وجود لها في الخارج، أي بين العبد وربه، ومن كان يعتقد أن الحجاب في حق الله أمر وجودي بحيث هو كالحاجز بين الشيئين فقد ضل ضلالاً بعيداً، تعالى الله عن الحصر والتقييد، تالله ما هو إلا هو، فما حجبه غيره، ولو حجبه غيره لكان قاهراً له، وكيف **(وهو القاهر فوق عباده)** **« الأنعام : 18 »**.

قال في الحكم العطائية: « وكيف يحتجب الحق بشيء، والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر». وفيها أيضا: « كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء، كيف

يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود كل شيء ».

فما أحسن هذه الألفاظ، قد حازت والله كل المراد، خصوصا لما أتحفها بها شارحها ابن عباد، فإنه قال: قد أبدع المصنف في هذا الفصل غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقر به الأعين وتلذ به الأسماع، فإنه - رضي الله عنه - « ذكر جميع متعلقات الظهور، وأبطل حجابية كل ظلام ونور، وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان، كل ذلك في أوجز لفظ وأفصح عبارة وأتم تصريح، وأَلْطَفِ إشارة. فلو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافيًّا شافيا، فجزاه الله عنا خيراً ».

وحاصل الأمر ما حجب العبد عن ربه إلا عدم خروجه عن مألوفاته، فلو رفع نظره أدنى ارتفاع لوجد الحق أقرب إليه من أن يرتحل إليه. فلا جرم أنه يخلع العذار وترتفع له الأستار، ويصير خلع العذار من شعاره. قال بعضهم في هذا المعنى:

خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ ☆ خلاعة مسروراً بخلعي وخلعتي

وخلع عذاري فيك فرضي وإن أبى اقتـ ☆ رابي قومي والخلاعة سنتي

وليس بقومي ما استعابوا تهتكي ☆ فأبدوا قلًى واستحسنوا فيك جفوتي

وأهلي في دين الهوى أهله وقد ☆ رَضَوْا لي عاراً واستطابوا فضيحتي

فمن شاء فليغضب سواك ولا أذى ☆ إذا رضيت عني كرام عشيرتي

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الأَعْرَاضِ أَدَباً فَهُوَ الحَكِيمُ المُتَأَدِّبُ

من أعرض عن الأعراض الزائلة، وذلك كل ما سوى الله في الجملة، وَاجتنبها أدباً مع الله فهو الحكيم المتأدب، وكان صالحاً لرفع الحجاب والاقتراب، لأن الحكمة تساعده وتأخذ بيده لقوله ﷺ: (**الحكمة ترفع العبد المملوك، وتجلسه مجالس الملوك**). وكفاه من الحكمة ما أظهره الله على ظاهره من إعراضه عن الوجود أدبا مع المعبود، واحتقر الخلق في نظره، أي بالإضافة لما اتضح له من تعظيم الألوهية، وصفة الجلال، فلا جرم يتسع له المجال، ويظهر له المخيل على وجود الخيال، أي لا وصول إلى الله إلا بالإعراض عما سواه. قلت:

ففارق كل الاعراض وارق لربها ☆ لأنها تزول وأنت تزول
ومن أدب الحكيم يسمح بتركها ☆ لأنه يراها ميتة مجهولا

ومن تحقق بعظمة الألوهية احتقر في نظره ما سواها من الأشياء، وأعرض عن كل شيء، لأن الأشياء إذا لم تعرف أصلها يحرم عليك النظر لها، والتمتع بها، ولا يجوز لك الوقوف معها، لأنها أجنبية منك (**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**) «النور: 30» وقال أيضاً: (**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه**) «طه: 131».

موسى عليه السلام لم يأخذ العصا لما تحقق الضرر منها حتى قيل له: (**خذها ولا تخف**) «سورة طه: 21»، فأخذها بربه، ولو أخذها

بنفسه لما استطاع أخذها، خاف منها ابتداء، ثم خافته انتهاء، فكانت له معينة على ما يريد. فكذلك الدنيا هي فتنة على من جهلها، وعبرة لمن عرفها. فلهذا يجب الإعراض عنها قبل معرفتها، ورجوعها لأصلها، لأن العارف إذا رجع لها فلا يأخذها من حيث ذاتها، بل رجع لها من حيث ربها، ولو لم يتحقق له ذلك لما رجع، فهو مع الله في كل شيء، فلا يعرض عن شيء، ولا يستوحش من شيء لمعرفة الله في كل شيء. ومن فقد الله في الأشياء، لا يجوز له النظر إلى شيء بإرادته وشهوته، لأنه يقطعه عن الله وعن الوصول إليه. والحكيم هو من أعرض عن الكل أدباً مع الله، حتى إذا عرفه وناجاه في سره، وأشار له في جهره وقال له: (**خذها ولا تخف**) « طه: 21 » فيأخذها حينئذ بالله، فتكون الدنيا في يديه كعصا موسى المخبر عليها بقوله: (**أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي، ولي فيها مئارب أخرى**) « طه: 18 ».



الفصل الثاني عشر

في الإخـــــلاص

قال رضي الله عنه:

لاَ يَكْمُلُ العَمَلُ إلاَّ بِالإِخْلاَصِ وَالمُرَاقَبَةِ

قال في الحكم العطائية: « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود الإخلاص فيها ». فالعمل بدون إخلاص وبدون مراقبة معدوم لا وجود له، وربما يكون عقوبة على صاحبه. ومن لم يخلص في عمله، **فا**لاستراحة اولى به، فليس له من عمله إلا مجرد التعب والنصب، لأن الله لا يقبل العمل المشترك، فهو يريد ذرة من أعمال القلوب منوطة بمثلها من أعمال الجوارح، أفضل من الجبال من العمل بدون إخلاص. والناس مراتب في الإخلاص، فمنهم من يرى طلب الجزاء على العمل ليس بإخلاص، وهذا أشرف المنازل.

مر نبي الله عيسى – عليه الصلاة والسلام – على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله. فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: خوفنا الله من ناره فخفنا منها. فقال حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه. ثم جاوزهم. فمر بآخرين أشد عبادة منهم، فقال: لأي شيء تعبدتم؟ فقالوا: شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه، فنحن نرجوها. فقال: حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم. ومر بآخرين يتعبدون، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبون لله عز وجل، لم نعبده

خوفاً من ناره، ولا شوقا إلى جنته، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقا، معكم أمرت أن أقيم. فأقام بين أظهرهم. وفي لفظ آخر قال للأولين مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً أحببتم، وقال للآخرين أنتم المقربون. اهـ

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

خليلي قطاع الفيافي إلى العلا ☆ كثير وأن الواصلين قليل
وجوه عليها للقبول علامة ☆ وليس على كل الوجوه قبول

وعن أبي حازم المدني – رضي الله عنه – أنه كان يقول: «إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء، إن لم يخف لم يعمل، وأستحي أن أعبده لأجل الثواب، فأكون كأجير السوء، إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له. فما أكثر العاملين، وما أقل المخلصين».

وعدم الإخلاص في العمل ينشأ عن عدم المراقبة، فلو راقب الله العبد في عمله لما فقد الإخلاص لرؤيته العامل له، وإن كانت هذه الرؤية رؤية أيقان، لا رؤية عيان، مأخوذة من قوله ﷺ: (**أعبد الله كأنك تراه**) فهي عاملة في العمل وجود الإخلاص، وإن عدمت المراقبة يتعذر وجود الإخلاص في الغالب لغيبة العامل عن العامل له، فهو لا يرى نفسه وعمله، ولما يؤول إليه ذلك العمل من الأغراض المختلفة. فهذه حالة لا تنفك عن عادم المراقبة. وأما العارفون بالله المستحضرون لعظمته فقد تخلصوا مما يقدح في عبادتهم، فهم واقفون مع الله من حيث ذاته.

سئل معروف الكرخي – رضي الله عنه – عن الشيء الذي أهاجه

في عبادته، والانقطاع عن الخلق، فسكت، فقيل له ذكرت الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قيل له ذكرت القبر؟ قال: وأي شيء القبر؟ قيل له: أخوف من النار ورجاء في الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا، إن من ملك هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. اهـ

وفي هذا المعنى قلت:

رجال تاهوا في الكون عن كل ذرة ☆ فما هالهم جحيم ولا راقهم ضد
وقفوا مع الإله في كل حالة ☆ فليس لهم أرب سواه ولا قصد
عباد زهاد في الوجود كما ترى ☆ وكل له حزم إلى منتهى الحد

وناهيك قوله تعالى في معنى الإخلاص: (**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**) «البينة: 5» وفي الحديث القدسي: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء**) (**ألا لله الدين الخالص**) «الزمر: 3».

ثم قال رضي الله عنه:

الإِخْلَاصُ مَا خفى عَنِ النَّفْسِ دِرَايَتُهُ، وَعَلَى المَلَكِ كِتَابَتُهُ، وَعَلَى الشَّيْطَانِ غِوَايَتُهُ، وَعَنْ الهَوَى أَمَانَتُهُ

الناس في الإخلاص مراتب، وإخلاص العارفين ما ذكره المؤلف، إلا إنه بلوغ الغاية، وقد يتعذر وجوده في عقل السامع، وربما يقول دللتني على أغرب من عنقاء مغرب. ومن ذا الذي يتصف بما ذكرت

حتى يكون عمله أخفى من كل خفي. فهذا وصف يخرج عن مقتضى البشرية، وما تضمنته حقيقتها من النسب والإضافة ودعوى الملك وغير ذلك، وأيضا يخرج عن مقتضى وظيفة الملك ومراقبته لأفعال العبيد والشيطان وغوايته، وما تقتضيه حقيقته من الإمتزاج بدم الإنسان ومقتضى الهوى وميلانه خصوصا النفس وتداخلها في كل شيء شيء، فكيف حتى يخفى ذلك عن درايتها. قلت: إن العارف يكون عمله في حضرة القدس، وهي محرمة على كل من النفس والشيطان وأعوانهما حتى الملك، لا وظيفة له هنالك. فلهذا كان عمل العارف خافياً عن كل الخلق، وكفى بخفائه حتى خفي عن نفس العامل. فإن قلت: كيف يخفى العمل عن نفس العامل له؟ قلت: إنه ليس هو العامل له في الحقيقة، إنما العامل هو الحق، فكان هو العامل والمعمول له.

وزيادة إن نفس العارف زالت، فلم يمكن العود لها، وقامت نفس الحق بدلها. ومن هذه الحيثية كان العارف لا يرى لنفسه مع نفس الحق وجوداً، ولا يثبت لها شهوداً، خرج عنها وإليها لم يعد.

وفي هذا قال من حقق المقصود:

خرجت بها عني إليها فلم أعد ☆ إلي ومثلي لا يقول برجعة

وأفردت نفسي عن خروجي تكرما ☆ فلم أرضها من بعد ذاك بصحبة

وعنيت عن إفراد نفسي بحيث لا ☆ يزاحمني إبداءُ وصف بحضرتي

فمن كان على هذه الحالة فهل يكون له حظ في هذا العمل؟ وكيف يكون له والحق هو العامل له، وإذا كان هو العامل له فليس يسأل عن عمله. (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**) «الأنبياء: 23»

وهذا بلوغ الغاية في الإخلاص، ولا يكون إلا بعد تصحيح البداية وهو الإخلاص المعقول حسبما دلت عليه النقول، فمن ذلك قوله تعالى: (**ألا لله الدين الخالص**) «الزمر: 3» واعبدوا الله مخلصين له الدين. والمعنى أن العبودية لله جميعا، وأن لا ترجو بعبادتك إلا وجه الله، وإن كان لك غرض غير هذا فإنك لم توف بحق الله عز وجل. قال في الحكم العطائية: «من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحق أوصافه». وفي هذا المعنى قوله ﷺ: (**لا يكون أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء، إن لم يعط الأجر لم يعمل**). وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه: إن سفيان الثوري كان يجالس رابعة العدوية ويقول لها: علميني مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول له: نعم الرجل أنت، ولولا أنك تحب الدنيا. وكان يعترف لها ويسلم قولها، وكان عالماً زاهداً، إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والإقبال على الناس وهي أبواب الدنيا. وقال لها الثوري يوماً: لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفاً من النار فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبًّا للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطى عمل، ولكن عبدته حبًّا له وشوقًّا إليه.

وفي هذا المعنى ما نقله وهب بن منبه من الزبور، قوله: (**ومن أظلم ممن عبدني لجنتي أو لناري، لو لم أخلق الجنة ولا النار لم أكن أهلاً لأن أطاع**) أو كما قال عز وجل.

قد قامت جماعة من السلف على جادة هذه الطريقة واستوطنوا ربوعها، ودونوا حقيقتها. فمن ذلك قول أبي حازم المدني: إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفاً من العذاب فأكون كالعبد السوء إن

لم يخف لم يعمل، وأستحيي أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء، إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له: وأنشد بعضهم:

كلهم يعبدون من خوف نار ☆ ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا ☆ في رياض ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار رأي ☆ أنا لا أبتغي بحبي بديلا
قد تخللت مسلك الروح مني ☆ وبذا سمي الخليل خليلا

ومضمون كلامهم إنهم لا يرون لأنفسهم رتبة يستحقون بها الثواب، أو هنالك من عملهم ما يقيهم من وجود العقاب، بل حالهم لا حال مع الله. بضاعتهم الإفلاس، ليس معهم شيء، ولا يستحقون لشيء. العبد خلق، والعمل خلق، والثواب خلق، والعقاب خلق، (**ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين**) « الأعراف: 54 ».

ثم قال رضي الله عنه:

عَلاَمَةُ الإِخْلاَصِ أَنْ يَغِيبَ عَنْكَ الخَلْقُ فِي مُشَاهَدَةِ الحَقِّ

أي لا يتمحض لك أيها المريد مقام الإخلاص، إلا إذا غبت عن الخلق في شهود الحق، فتكون حينئذ مخلصاً، ويكفيكَ قليل العمل لما قيل: « أخلص في العمل يكفيك قليله ». وقول بعضهم: إذا فتح لك جهة التعريف فلا تبالي بالعمل قل أو كثر، وما دمت ترى الخلق لن تخلص في عملك، وكيف تخلص في العمل وأنت تفعل للخلق بالخلق، فأنت خلق والآخرة خلق، فعملك بارز من الخلق إلى الخلق، وأين الحق؟ ولبعضهم:

فمن نظـــر الخلــق بـــالخلق ☆ عزيــــه أعمـــــى البصيرة
ومن نظـــر الحـــق بـــالحق ☆ صَـــادَفَ عـــلاج السريرة

وأين الإخلاص إذا كنت أيها المريد ترى نفسك وأن لها عملاً، وإنها مستحقة للثواب، فهذا عمل خالٍ من وجود الإخلاص عند المحققين، ولا نجاة لك مما أنت عليه إلا إذا غاب عنك الخلق في شهود الحق، فتكون حينئذ مخلصاً، لأن عملك يكون بالله، وليس للعبد دخول فيه البتة. فهذا هو الإخلاص عند ذوي الخصوصية، وصاحبه لا يرى لنفسه عملاً ولو صام النهار وقام الليل، فلم يرتسم ذلك في فكره، ولا يكون له أدنى اعتبار لحاله، ولا يراه لنفسه، فضلا على غيره حتى على المنهمكين في المعاصي، وسبب ذلك غيبته عن الخلق في شهود الملك الحق، فهو غائب حتى عن الإخلاص، لأن المخلص هو العامل لله وهو لا يرى لنفسه عملا، فلو تعمد الإخلاص أو عدمه، لم يقدر عليه. وهذا سر من أسرار الله بين العبد وبين ربه. لما قيل في بعض الأحاديث القدسية: (**الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي**).

منتهى الإخلاص منوط بالغيبة عن الخلق، فمن اتصف بما ذكرناه، من أين يدخل عليه عدم الإخلاص، ومن لم يصل إلى هذه الرتبة في الغالب يتعذر عليه وجود الإخلاص. ولولا لطف الله بخلقه لما تقبل منهم عمل عامل لما فيه من رائحة الشرك الخفي الذي هو أخفى في البشر من دبيب النمل.

الناس لهم أغراض في أعمالهم، وفي أغراضهم لزوم عدم الإخلاص في أعمالهم. وهل أخلص في العمل لله من عبده خوفا من ناره، أو طمعا في جنته، أو قام بوظائف العبادة خشية الكرام الكاتبين، أو

اجتهد في العمل لأجل الوصول، أو من شهد لنفسه عملا، أو طلب الجزاء عليه، أو رأى نفسه أعمل من غيره، كلاَّ إنه لم يبلغ حقيقة الإخلاص، إنما هو من عامة الناس، فإن كان صاحب هذا الوصف المحمود الذي عز في الوجود لم يبلغ حقيقة الإخلاص، فكيف بمن أدخل على عمله وطاعته وصيرهما معصية، وقطيعة وبلية، كمن عمل لترى عليه عند الخلق سمة العاملين، أو يذكر عندهم بما فعل. **(ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)** «آل عمران: 188».

اللهم خلصنا من شر أنفسنا، وغيبنا عن الخلق، وغيب الخلق عنا، حتى لا يبقى لنا أدنى نظر إليهم، إنهم لم يغنوا عنك أو منك شيئا. (**ولو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّايَ**) «الأعراف: 155».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، تَخَلَّصَ مِنَ الدَّعْوَى الكَاذِبَةِ

عباد الله المقربون لهم معاملة مع الله في أسرارهم لم يطلع عليها ملك ولا شيطان، وقد تقدم أن الإخلاص ما خفى عن النفس درايته وعن الشيطان غوايته، وعن الملك كتابته. وبسبب إخلاصهم في الباطن ظهرت نسمته عليهم في الظاهر لأنه عنوان الباطن. فلهذا تخلصوا من الدعاوي الكاذبة بدون تحمل مشاق ولا استعمال، لاستشعارهم بقرب الحق لهم واكتفائهم بنظرهم له. وأهل هذا المقام أقل من القليل.

ثم قال رضي الله عنه:

أَهْلُ الصِّدْقِ قَلِيلٌ فِي أَهْلِ الصَّلَاحِ

لا يتحقق الصدق في العمل إلا بشهود العامل له. والمشاهدة تختلف باعتبار الصالحين. فمنهم من يراه مع العمل، ومنهم من يراه قبل وجود العمل، ومنهم من يراه ولا عمل، أي هو العامل والمعمول له. فلهذا يضعف الثواب باعتبار المراتب. والآخر هو غاية الصديقين، وكلهم في مرتبة الصلوحية باعتبار العمل الصادر منهم، وأهل الصدق في ذلك قليل. ومن عدم الصدق في الصلاح طلب الجزاء عليه. فهذا مما يقدح في صدق الصالح حيث طلب الجزاء عن عمل لم يكن له عاملا. (**ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**) «آل عمران: 188» قال في الحكم العطائية: «لا تطلب عِوَضًا على عمل لست له فاعلاً، يكفي لك من الجزاء على العمل أن كان له قابلا». قلت:

فمن صلح الأعمال ضل في فهمه ☆ حيث بنفسه للفعل يصلح
إلا أن يرى الإله يصلح فعله ☆ وهو كميت لديه مطروح



ثم قال رضي الله عنه:

شَتَّانَ مَا بَيْنَ مَنْ هِمَتُهُ الحُورُ والقُصُورُ، وَبَيْنَ مَنْ هِمَّتُهُ رَفْعُ السُّتُورِ ودَوَامُ الحُضُورِ

الفرق واضح والحق لائح. شتان بين الجهل والعلم، والحدوث والقدم. فمن كانت همته الحور والقصور، فليس هو عبد الله على الحقيقة، لأن العبد عبد لما هو له طامع. وكفى أنه إشتاق من خلق إلى خلق، ومن كون إلى كون. قال في الحكم العطائية: « لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى، المحل الذي ارتحل منه هو الذي رجع إليه، وليس الشأن كذلك، إنما الشأن أن ترحل من الكون إلى المكون. (**وجوه يومئيذ ناضرة إلى ربها ناظِرَةٌ**) «القيامة: 23» همم العارفين تسمو لغير معروفهم، والكل عندهم هباء منثوراً.

وما مقصودهم جنات عدن ☆ ولا الحور الحسان ولا الخيام
مقصودهم وجه الحبيب وذا منامهم ☆ هذا مقصود السادة الكرام

ولنا في ذلك:

فما الحور ما القصور ما الأجر ما الذي ☆ يغنينا عن وجهك يا من وجهه الكل
فلا ورب العباد جل غرضنا ☆ ان يكون للمخلوق فيه أدنى ميل

ارفع همتك أيها المريد الصادق عن كل ما سوى الله، فإذا صح صدقك صح اقترابك. (**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**) « العنكبوت: 69 » الحق خلقك لأجله لا لغيره. (**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**) « الذريات: 65 » قال ابن عباس رضي الله عنه: « إلا ليعرفوني ». أعرف الله، واطلب القرب منه، فإنه أقرب إليك

من الجنة مع أنها أقرب إليك من شرك نعليك، كما أخبر بها ﷺ: (**الجنة أقرب لأحدكم من شرك نعليه، والحق أقرب إليك من ذلك**) (**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**) «ق: 16» حتى إذا وصلت إلى الحق فلا جرم الجنة تصل إليك. فتكون خادمة لك، مسخرة لأمرك، وأنت في غنى عن ذلك، والكل من حولك.

آيش تعمل بالجنة وبالحور وأنت في حضرة تسجد لها القصور وما فيهن، حتى إذا دخلت الجنة تكون بجسمك، خارجاً عنها بقلبك فلا ترى في المظاهر إلا تجليات الظاهر، الناس يتنعمون بالمخلوق وأنت تتنعم بالخالق. فشتان بين خلق وحق. فهؤلاء عباد الله حقاً، وأحباؤه صدقاً. العارف لا يدخل الجنة إلا إذا كان غافلا فتكون عقوبة عليه، كما أن النار عقوبة للعاصين.

قيل: إن أهل الجنة يعوون في الجنة كما يعوي أهل النار في النار، وذلك إذا احتجب عن بصائرهم. العارف لا يقع بصره على الجنة إلا إذا غفل عن الحق. ولو كان حاضرا لوقع بصره على رب الجنة قبل أن يقع على الجنة. ولهذا قلنا لا يدخل الجنة إلا إذا غفل عن الحق.



ثم قال رضي الله عنه:

أَهْلُ الرِّيَاضَةِ فِي المُعَامَلَةِ مَعَ الإِلْتِفَاتِ إِلَى الأَعْمَالِ حُجِبُوا بِالأَعْمَالِ عَنِ المَعْمُولِ لَهُ، وَلَوْ حَصَّلُوا المَعْمُولَ لَهُ، لاشْتَغَلُوا بِهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ

أهل الرياضة هم المشتغلون بتصفية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتصحيح الأحوال، ومع شرف مقامهم ورياضتهم، لم يلتفتوا إلى الأعمال، ولو التفتوا لها واستأنسوا بها وركنوا للذتها واكتفوا بوجودها، لحجبوا بها عن المعمول له حيث جعلوها من أشرف المقاصد، فكانت لهم حجابا عن الله، لأن الأنوار تحجب المريد كما تحجبه الأغيار. وقيل: إن حجاب النور أشد على المريد من حجاب الظلمات. قال ﷺ: (**حجابه النور**) **لأن حجاب الظلمة لا يستأنس به العاقل في الغالب بخلاف حجاب النور. قال بعضهم: « ربما حجبت الروح بالأنوار كما حجبت النفس بالأغيار » إذ كل ما يعوق المريد عن الوصول فهو حجاب، والحجاب قاطع على أي وجه كان. فالقرب حجاب، كما أن البعد حجاب.**

ولنا في ذلك:

وإياك أن تقف بالقرب فإنه ☆ إذا لم تر الحبيب فالقرب قَاطِعُ

قال مولانا عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في بعض كلامه: « الذكر حجاب، والصلاة حجاب، والصوم حجاب، وكل أنواع العبادة من حيث هي حجاب ». والمراد منه على من وقف معها واحتجب عن المعمول له، إذ ليس المراد من العبادة إلا شهود

المعبود، وليس المراد بالذكر إلا شهود المذكور. والواقف مع العمل فهو مع الخلق على كل حال، لأن العمل خلق كغيره. (**والله خلقكم وما تعملون**) « الصافات : 96 » والمريد مطلوب بالخروج عن كل مخلوق. فما شرعت العبادة إلا لمجرد الانتباه ليعرف المصنوع صانعه، حتى إذا وصل إليه احتجب عن العمل بحصول المعمول له، كما كان محجوبا بالعمل أول مرة. فلهذا قال المصنف رضي الله عنه: « ولو حصلوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية أعمالهم ». فهذه غاية العاملين، ومنتهى الواصلين، غابوا عن أعمالهم في شهود المعمول له، وهو (الله). لا يلتفتون لما صدر منهم، لأنهم لا يرون لأنفسهم عملا البتة.

كفاهم حيث أجرى العمل الصالح على ظاهرهم، فهم يستحيون من الله أن ينسبوه لأنفسهم، فضلا على أن يقفوا معه لما أحاط بهم من التعظيم والإجلال، فتراهم باهتين في حضرة القرب والمشاهدة، غير متأنسين بشيء سواه، ولا متوقفين على شيء غيره، تقلبهم يد العناية الإلهية بين مجاهدة ومشاهدة، صارت العبادة عادتهم والمشاهدة نسبتهم. قال سلطان العاشقين رضي الله عنه:

رجعت لأعمال العبادة عادة ☆ وأعددت أحوال الإرادة عدتي

وعدت لنسكي بعد هتكي وعدت من ☆ خلاعة بسط لانقباض بِعِفَّتي

والعارفون قيامهم بالله، قد تولى الله أمرهم، أخذهم منهم وقام بدلهم، فكان هو العامل لعملهم، احتجبوا به عن رؤية العمل ورؤية أنفسهم، بل عن العالم بأسره.

تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب ☆ فما استقل بهم ربع ولا طلل

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَصْلُحْ لِلْمَعْرِفَةِ شُغِلَ بِرُؤْيَةِ الأَعْمَالِ

الحق عز وجل خلق الخلق ثم قسمهم أقساماً حسب المراتب الثلاثة: - الجنة وسكانها - والنار وسكانها - والحضرة الإلهية وسكانها. وكل دار إلا وأهلها من جنسها، أي خلقوا لأجلها، وكل ميسر لما خلق له. ثم أبرزهُمْ للدنيا بقدرته. **(قل كل يعمل على شاكلته)** «الإسراء: 84» **(وأصحاب اليمين ما أصاب اليمين) (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) (والسابقون السابقون أولائك المقربون)** «الواقعة».

أهل الجنة لا يمكن دخولهم إلى النار، كما لا يمكن دخولهم للحضرة الإلاهية من حيث تعلق الإرادة الأزلية، ولم يجعل الحق عز وجل في قلوبهم محلاًّ لحمل المعارف والأسرار. فمن أجل هذا اشتغلوا برؤية أعمالهم، لأنهم خلقوا لأجلها. قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: «اطلع الله تبارك وتعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة فأشغلهم بالعبادة».

وقال سهل بن عبد الله: «إن الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يَقْسِمَ لهم من نفسه قسمة فلا يجد في قلوب العباد ولا الزهاد موضعا لتلك القسمة من نفسه، فيمن عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه». قال أبو العباس رضي الله عنه: «إن لله عباداً لم يستصلحهم لمعرفته وأشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته وأهلهم لمعرفته». وقد جمعت هذه المعاني في قول صاحب الحكم العطائية حيث قال: «قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصهم لمحبته».

(كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا) « الإسراء : 20 » فَتَحَصَّلَ من هذا أن معرفة الله ليست مكتسبة بالعمل، إنما هي تحفة إلاهية يقذفها الله عز وجل في قلوب من يشاء من عباده **(ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا)** « الشورى : 52 ».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ طَلَبَ الحَقَّ مِنْ جِهَةِ الفضْل وَصَلَ إِلَيْهِ

وأما من طلبه من جهة العمل قطع به ولن يصل العبد إلى الله ما دام ملاحظا لعمله لأنه لا مدخل على الحق عز وجل إلا من باب الفضل. ومتى أردت أن تدخل على الله بشيء من كواسبك، كان ذلك الشيء حاجزاً بينك وبين ربك، لأنه لا دليل على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره. إياك أيها المريد أن تجعل عملك عمدة في الدخول على الله، فبه لا يجيء شيء. **(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً)** « النور : 21 ».

ولبعضهم :

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى ☆ بنفائس الأموال والأرباح

وظننت أن حبك هيّنٌ ☆ تفنى عليه كرائم الأرواح

حتى رأيتك تجتبي وتخص من ☆ تختاره بلطائف الأمناح

فعلمت أنك لا تنال بحيلةٍ ☆ فلويت رأسي تحت طي جناح

وجعلت في عش الغرام إقامتي ☆ فيه غدوي دائما ورواحي

أطلب أخي مولاك من جهة الفضل، واجعل مطيتك الشوق والإضطرار في طلبه، واغفل عن عملك كيفما كان حالة التوجه، فالوقوف مع العمل في طريق الله مذموم من حيث هو، وأنت مطلوب بالخروج عن عملك وعلمك. وكيف تروم الوصول به، وهو كله معلول مدخول، ومحشو بالآفات، وربما تجد الطاعة كم فيها من معصية إذا فتشتها. ولا يسلم عمل المريد إلا بعد المشاهدة والتفريد. فالمقام الذي تطلبه عزيز جداً، غني عنك وعن أعمالك، وسترى بجانبه الطاعة والمعصية على حد سواء. والله غني عمَّا تعمل. وكيف تريد الدخول عليه بعملك؟ أي شيء أنت وعملك حتى أنك تفتخر به وتزعم أنك قدمت إليه شيئاً تستحق به الدخول، فتلك هي القطيعة نفسها. فإن شئت أن تنجو، فلا ترى لنفسك عملا، بل أقصده فرداً متجرداً من العلم والعمل، إن الله فرد، ويحب الفرد. وقل كما قال:

وإن طلبوني في حقوق هواهم ☆ فإني فقير لا علي ولا معي

وإذا قيل لك بماذا جئت فاستعر هذا الجواب:

بانكساري بذلتي بخضوعي ☆ بافتقاري بفاقتي بغناك
لا تكلني إلى قوى جلد خا ☆ ن فإني أصبحت من ضعفاك
كنت تجفو وكان لي بعض صبر ☆ أحسن الله في اصطباري عزاك
كم صدود عساك ترحم شكوا ☆ ي ولو باستماع قول عساك
شنع المرجفون عنك بهجري ☆ وأشاعوا أني سلوت هواك

قال في الحكم العطائية: «لو أنك لا تصل إليه إلَّا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه

إليك، لا بما منك إليه ». وقال أيضا: « لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول ». فأنت أيها العبد، عدم محض، فارجع لنفسك، وتحقق بأوصافك، فإنه يمدك بأوصافه، ويفرغ عليك من كرمه. أنت مطلوب أن تتحبب للحق بما يريد بدون أن ترى لنفسك استحقاقاً للوصول، أو تقول بالعمل يكون القبول. ففضل الله ليس معللا بشيء، فربما قضى عليك بالذنب، فيكون سببًا في القرب، وهل هذا إلا محض الفضل ومجرد النوال، وما ذكرنا لك هذا إلا لتكون طالب الدخول على الله من جهة الفضل، خشية أن يتعذر عليك الحال.

ولهذا قال رضي الله عنه:

انْكِسَارُ العَاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ المُطِيعِ

لا يوجد في الطاعة ما يفيد القرب أكثر من انكسار القلب، لقول الحق عز وجل في بعض كلامه: (**أنا عند المنكسرة قلوبهم**) فأينما وجدت منكسر القلب إلا وتجد فيه رائحة القرب، وأين الحضور مع المولى لمن كانت له صولة؟ قال ﷺ: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**). وليس المراد من السجود وضع الجبهة على الأرض، بل المراد من ذلك الإنكسار والتذلل. ورد في الخبر عن سيد البشر ﷺ: (**يقول الحق تبارك وتعالى: لا يدخل جنتي من لم يتواضع لعظمتي**). قال في الحكم العطائية: « معصية أورثتك ذلة واستحقاراً خير من طاعة أورثتك عزاً واستكباراً ». وأي طاعة مع الصولة، وأي معصية مع الانكسار.

منكسر القلب كله قرب، يرى نفسه هو أحقر الموجودات،

يستغيث في كل الأوقات، ويقول النجاة! النجاة! (**أمن يجب المضطر إذا دعاه**) « النمل : 62 » فلا جرم يأخذ الله بيده ويغمسه في بحر رحمته. (**فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات**) « الفرقان : 70 » .

روي في الخبر أن داود - عليه السلام - كان يقول: (**اللهم لا تغفر للعاصين**) فعاتبه الله في ذلك، فصار يقول: (**اللهم أغفر للعاصين عسى أن تغفر لداود معهم**) . فلا دخول على الله إلا من باب الإنكسار، وأن الله لا يقبل من عباده إلا المذنب، أي منكسر القلب، المقر بذنوبه، الجازم أن لا يعود لمثلها. (**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**). (**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**) «البقرة: 222».

المفتخر بالطاعة مريب، فكم أخذ الله بيد المذنبين المنكسرة قلوبهم، وكم أبعد الطائعين المتعززين بطاعتهم المعتمدين على أعمالهم. ولهذا قال في الحكم العطائية: « رُبَّمَا قضى عليك بالذنب، فكان سببا لك في الوصول » . ولا تحسب أخي أن القوم يمدحون المذنبين، فحشاهم من ذلك، إنما يمدحون انكسار القلب الذي هو أرجح من عمل الثقلين.

إياك والصولة والعجب بالعمل - بارك الله فيك - فإن ذلك لا يغنيك من الله شيئا . والرجوع إلى الله لا يكون إلا بالذل والانكسار .

قلت في هذا المعنى:

فليس لي شفيـــع ســـوى مـــذلتي ☆ وضعفي وتقصيري وحزني بين الورى

تراني بـــاكي العين تكفيـــك حـــالتي ☆ مهينـــا مكســـور القلـــب إني كما ترى

تشفعـــــــت إلاهي إليـــــــك بزلتي ☆ فلست جميل الفعل أحدث منـه ذكراً

ثم قال رضي الله عنه:

لَا يَنْفَعُ مَعَ الكِبْرِ عَمَلٌ، وَلَا يَضُرُّ مَعَ التَّوَاضُعِ بِطَالَةٌ

لا عمل مع الكبر، لأنه معصية مستمرة، ولا بطالة مع التواضع لأنها طاعة مستمرة، وفي هذا المعنى قيل: « من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خذله الله».

تواضع تكن كالبدر يبصره الورى ☆ على صفحة الماء وهو رافع
ولا تكن كالدخان رفع نفسه ☆ إلى عنان السماء وهو واضع

وأي عمل مع الكبر وأي بطالة مع التواضع، ركعتان من متواضع أفضل عند الله من متكبر وعمله. فإن عمل المتكبر لا يزيده من الله إلا بعداً، فهو صورة بلا معنى، وشبح بلا روح، وقشر بلا لب، وبعد في بعد، وقطيعة في قطيعة.

إياك والكبر فإنه مفسد للعمل، وكيف تركن إليه وأنت ترى أحوال العارفين منحصرة في وجود التواضع وتهذيب الأخلاق، مقتبسة من أحواله ﷺ. وقد بلغك ما كان عليه من التواضع مع شرفه وعلو مرتبته وقد قال: (**إني أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد**) وإن كنت في غمرةٍ عن سيرته فراجعها في محلها. فهل ترى فيما يرخص في أدنى شيء من الكبر؟ كلا! وقد نهى عنه وتبرأ منه حالاً ومقالاً. وحاصل الأمر، إن صاحب الكبر لا يصلح إلا للنار، لأنها مثوى المتكبرين. وقد تقدم لك قوله تعالى: في بعض الأحاديث القدسية: (**لا يدخل جنتي من لم يتواضع لعظمتي**).

وفي بعض الأحاديث النبوية: (**لا يدخل الجنة من في قلبه مقدار حبة الخردل من كبر**) أو كما قال ﷺ: (**يقول الحق تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمته بناري**) وأما حضرة الله فهي محرمة على من فيه أدنى رائحة من كبر. وكل من رأى نفسه عظيماً فهو ساقط من عين الله، ومن أحقر الأشياء في نظر الخلق.

قال بعضهم:

ومن حدثته نفسه بتكبر ☆ تجده صغيراً في عيون الأقلة

ألا تتواضع أيها المسكين، أي شيء أنت حتى تتكبر (**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**) «الإسراء: 37» فأنت أحقر الأشياء، لو تأملت في مساوي نفسك، وفي ابتداء أمرك، أولك نطفة، وآخرك جيفة، وما بين ذلك حامل العذرة، ألا ترجع إلى الله من هذه البلية العظمى التي كانت سبباً في طرد الشيطان من حضرة الله. (**فما يكون لك أن تتكبر فيها**) «الأعراف: 13» فاجتهد - بارك الله فيك - في زوال هذا المرض القتال، واسأل عن الأطباء الماهرين، لعل الله يأخذ بيدك، وينقذك مما أنت عليه (**وما ذلك على الله بعزيز**) «إبراهيم: 20».

ثم قال رضي الله عنه:

العِبَادَةُ تُنْجِيكَ مِنْ طُغْيَانِ العِلْمِ وَالزُّهْدِ

النفس في كل شيء تطغى، والعبادة تمنعها. والعلم إذا لم يكن للعمل يكون للطغيان، لأنه خال من الخشية.

العلم النافع هو علم القلب، لا علم اللسان لقوله ﷺ: **(العلم علمان، علم اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب، فذلك العلم النافع)** فمن اتصف بالعلم دون الاتصاف بحقيقته خرج عن حده، ودخل في حيز قوله ﷺ: **(فساق أمتي قراؤها)** وفائدة العلم تظهر عند العمل به، وهي نفس العبادة التي تنجي العالم من الطغيان.

أما العلم الذي لم يزدد به صاحبه انكساراً وخضوعاً فهو خارج عن العلم المشروع الممدوح في الإسلام. بل ينبغي للعلم أن يكون داخلاً تحت حياطة العبودية، خارجا عن الطغيان، فمن اتصف بالعبودية لم يزدد بعلمه إلا ذبولاً وانكساراً. والناس في ذلك طبقات. **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** « فاطر : 28 » كما أن الزاهد إذا عجب بزهده في الغالب يطغى والعبودية تمنعه كما تقدم.

تلبس أيها المريد بأوصاف العبودية، واجعل كل وصف داخلاً تحت حياطتها، وهي المتصرفة في الكل، تنج من النفس وطغيانها. **(كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)** « العلق : 7 » خصوصا إذا اتصفت بهذين الوصفين العزيزين: العلم والزهد. فلا جرم أنك ترى نفسك حائزة لكل شرف، فتنقطع بذلك عن الله حيث لحظت ما لها من الكمال، وغفلت عما احتوت عليه من النقصان. والمقصود من

العلم والزهد وما في معناهما، هو تحقيق العبودية لله عز جل. والعبودية مقتضاها منك خلو الفكر مما يطغيك حتى إذا اتصف المريد بما ذكرناه، وكان عبداً لله في معاملته، فقد قام بما وجب عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

لَاتَكُونُ لَهُ عَبْداً وَلِغَيْرِهِ فِيكَ بَقِيَّةُ رِقٍّ

أي فلا تدعي أيها المريد العبودية لله، وفيك بقية لغيره فتكون مبغضا، فلم تتم لك العبودية إلا إذا تحررت من رق الغير، ولم يبق فيك أدنى نصيب، وحينئذ تكون عبداً لله من كل الوجوه. وأما إذا كان لك أدنى ميلان لشيء، فتكون في ربقته وتحت حياطته. فاترك يا أخي الكل في جانب الله جليلاً وحقيراً، دنيا وأخرى، علما وعملاً، ففي وجه من تهوى الجلال والجمال، وقل كمن قال:

تركت للناس دنياهم ودينهم ☆ شغلا بك يا ديني ودنياي
تركت للناس ما تهوى نفوسهم ☆ من عز ومن علو ومن جاه
فصار يحسدني من كنت أحسده ☆ وصرت مولى الورى مذ صرت مولاي

وإياك أن يأخذك شيء لجنسه، فإن الله غيور على العبد أن يقف مع غيره، ولا يقف مع غيره إلا الجاهل بمرتبته.

ولابن الفارض رضي الله عنه:

قال لي حسن كل شيء تجلى ☆ بي تملى فقلت قصدي وراك
لي حبيب أراك فيه معنى ☆ غر غيري وفيه معنى أراك
إن تولى على النفوس تولى ☆ أو تجلى يستعبد النساك

فيه عوضت عن هداي ضلالاً ☆ ورشادي غيًّا وستري انتهاك
وحب القلب حبه فالتفاني ☆ لك شرك ولا أرى الاشراك

فهذا حال من حقق العبودية لله عز وجل، لا يرضى سواه بدلا. إياك أخي أن تكون عبداً للغير فتصبح أسيراً، وكن عبداً لله تضح أميراً، ولا تطمع في شيء سواه، ولا ترق، ولا تشتق إليه، دع الكل يسعى إليك، وكن غنيا بالله عن الخلق دنيا وأخرى. فالكل خلق لأجلك، وأنت خلقت لله. العبد وماله لسيده. فلا تتعدى همتك لغيره، لأن الكريم لا يتجاوز الأمل.

مرت رابعة العدوية برجل يذكر الجنة وما أَعَدَّ الله فيها للمحسنين. فقالت له: يا هذا إلى متى تشتغل بالأغيار عن الواحد الجبار؟ ويحك! عليك بالجار ثم الدار. فقال لها: اذهبي يا مجنونة. فقالت: أنا لست بمجنونة، وإنما المجنون من لم يفهم ما أقول. يا مسكين الجنة سجن من لم يكن الله أنيسه، والنار بستان من كان الله مؤنسه وجليسه. ألا ترى إلى آدم - عليه السلام - لما كان في الجنة يرتعى ويتهنى، فلما تعرض للأكل صارت عليه سجنا. وإبراهيم الخليل لما حفظ سره لمولاه قربه واجتباه، وعندما طرح في النار، صارت عليه برداً وسلاماً.



الفصل الثالث عشر

في المحبــة والإشتيــاق

قال رضي الله عنه:

المُهْمَلُ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأَعْمَالِ لاَ يَصْلُحُ لِبِسَاطِ الحَقِّ

الخالي من هذين الوصفين فارغ الظاهر والباطن لا يصلح لبساط الحق، أي لحضرته والنظر إلى وجهه حيث لم يوجد فيه ما يدل على صلاحيته، وكأنه يشير لمن لا يصلح للتربية. وذلك أن المريد إذا فقد الوصفين لم يصلح للإقتراب، أي لا يكون أهلاً أن يعد من جملة السائرين لفراغه من الأحوال والأعمال ووجود تكاسله وقلة نشاطه. وقد تقدم أن أساس هذا الشأن مبني على الجد والإجتهاد، والمراد بالأحوال جند من الواردات الإلهية ترد على القلب تحركه بعد سكونه، وتقلقه بعد روعته، وقد تظهر على الجوارح فيهتز الجسد ويتمايل، وعلى العين فتدمع ولها أثر ينبي على صلاحية صاحبه وشهود عدوله، وقد قيل في هذا المعنى:

أتيت لقاضي الحب قلت أحبتي ☆ جفوني وقالوا أنت في الحب مدعي
وعندي شهود للصبابة والأسى ☆ يزكون دعواي إذا جئت أدعى
سهادي ووجدي واكتئابي ولوعتي ☆ وسقمي وشوقي واصفراري وأدمعي

فصاحب هذا الحال لا يبعد عن درجة الكمال. ولا تقس هذا يا أخي على الحال المستعمل الذي يقصد به بعض الناس المباهاة ليذكر بذلك. فصاحبه لن يزداد من الله إلا بعداً. والكلام على الحال

الطارىء على المتوجه لحضرة الله، وذلك لائح يلوح عليه، تارة يبكيه ببكاء وطرب، وتارة بتعب ونصب، وتارة بتمزيق وعذاب.

قال ذو النون المصري - رحمة الله عليه -: بلغني أن بالجبل المقطم جارية متعبدة، فأحببت أن أزورها، فخرجت إلى الجبل في طلبها فلم أجدها، فلقيت جماعة من المتعبدين، فسألتهم عنها. فقالوا: أتسأل عن المجانين وتترك العقلاء. فقلت: دلوني عليها، وإن كانت مجنونة. فقالوا نراها تجوز بنا تقع مرة، وتقوم مرة، وتصيح مرة، وتسكت مرة، وتبكي مرة، وتضحك مرة. فقلت: دلوني عليها، فقال أحدهم: تراها في الوادي الفلاني. فخرجت في طلبها، فلما أشرفت عليها سمعت لها صوتاً ضعيفاً وهي تقول:

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره ☆ أنت الذي ما إن سواه أريد

يا منيتي دون الأنام وبغيتي ☆ يا من له كل الأنام عبيد

تفنى الليالي والزمان بأسره ☆ وهواك غض في الفؤاد جديد

قال فاتبعت الصوت فإذا أنا بالجارية وهي جالسة على صخرة عظيمة فسلمت عليها، فردت علي السلام، وقالت يا ذا النون، مالك وللمجانين؟ فقلت لها: أمجنونة أنت؟ فقالت: لو لم أكن مجنونة لما نودي علي بالجنون. قلت: وما الذي جننك؟ قالت: يا ذا النون حبه خبلني ووجده أقلقني، وشوقه تيمني. فقلت: وأين محل الشوق منك؟ قالت: يا ذا النون، الحب في القلب، والشوق في الفؤاد، والوجد في السر، ثم بكت بكاءً شديداً حتى غشي عليها، فلما أفاقت قالت: آه من فرط المحبة يا ذا النون، ها هو موت المحبين، ثم صاحت صيحة عظيمة وسقطت على الأرض، فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها.

فهذا مثل أهل الحال الصادق، فمن وجد فيه فقد وجدت فيه أهلية لقبول سر الألوهية، وقد تظهر سمته على صاحبه قبل توجهه لله، يعرف بها عند القوم، وقد جعلوها مقياساً على ذلك حتى قالوا: «من لم يطربه المزمار، وتهزهزه الأشعار، لم يصلح لحمل الأسرار».
وكم للمصنف في هذا المعنى من الترنمات، ومن ذلك قوله:

بكت السحاب فأضحكت لبكائها ☆ زهر الرياض وفاضت الأنهار
قد أقبلت شمس النهار بحلة ☆ خضراء وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده ☆ فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى ☆ فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت ☆ والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب ☆ والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسب الزَّمْرَ الحرام مرادنا ☆ مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا ☆ نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكأسنا ☆ كأس الكياسة والعقار وقار

فهذا شأن من رق قلبه، وتعشقت روحه، وصفا سره، تراه يتمايل من نسيم القرب كأنه غصن رطب. وقد قال في حقهم من جرب الحب:

حيارى فلا يدرون أين توجهوا ☆ فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
فيطربهم برق تألق بالحمى ☆ بسلع له زار
يسكرهم طيب النسيم إذا سرى ☆ تظن بهم سحرا وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى ☆ إذا ما بكت من ليس يدري له وكر
بحزن وتلحين تجاوبنا بما ☆ تذوب له الأكباد والجلمد الصخر

مر الحسن بن الصباغ ببستان فوجد حمامة على شجرة تغرد بصوت شجي، فوقف ثم تواجد وأنشد يقول:

حمـــام الأيـــك ألا فاخبرينـــا ☆ بمـــن تهتفين ومـــن تنادينـــا
فقد سقت ويحك نـوح القلـوب ☆ فـأجريت ويحك مـاء معينـا
تعـــالي نقم مَأْتَمًـــا للفـــراق ☆ ونـنـدب أحبابنـا الظاعنينـا
وأسعدك بـالنوح كي تسعـديني ☆ كذاك الحزين يـواسي الحزينـا

ثم بكى بكاء طويلا وأنشد يقول:

أتبكي حمام الأيك من فقد إلفها ☆ وأصبر عنها كيـف ذاك يكـون
وَلِمَ أنا لا أبكي وأندب ما مضى ☆ ودع الهوى بين الضلـوع دفين
وقد كان قلبي قبل حبـه قاسيـا ☆ فإن دامت البلوى فسوف يلين
أَلاَ هَلْ على الشوق المبرح مسعد ☆ وهل لي على الوجد الشديد معين
سلام على قلبي تعرض بـالهوى ☆ سلام عليـه أحرقتـه شجـون
وعذبـــه هم يهيـــج حزنـــه ☆ فللهم والأحـزان فيـه فنـون

ثم خر مغشيا عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

غن لي بـالفراق صوتـا حزينـا ☆ إن بين الضلـوع داء دفينـــا
ثم جـد لي بـدمع عينك بـالله ☆ وكـن لي على البكاء معينـــا
فسأبكي الدمـاء فضلا على الـدمع ☆ ومثـل الفـراق أبكي العيونـا
كل أمر الدنيـــا حقير يسير ☆ من أن يفقـد القـرين القرينـا

قال: فجرى الدمع من مقلتيه، وسقطت الحمامة إلى الأرض بين يدي الشيخ وجعلت تصفق بجناحيها حتى ماتت. فأنشد يقول شعراً:

وردنا على أن الهوى مشرب عذب ☆ وحط بـه السفـر أشواقـه الركب

فلما وردنـا مـاءه أهب الظمـأ ☆ ألا من رأى الظمآن أهمه الشرب
أهب الهوى يـذكي علي زنـاده ☆ أيا قادحا أمسك فقد قلق الحب
ولـو أنني أخليـت قلبي لغيركم ☆ من الناس محبوبا لما وسع القلب
ترى تسمـح الأيـام منكم بنظـرة ☆ فتلق على الأيدى الرسائل والكتـب
أعـاتبكم لا على مـلال ولا قلى ☆ ولكن إذا صح الهوى حسن العتب

فهذا حال أهل الأحوال، وإن كان المريد خاليا من الحال، فلابد أن توجد فيه خاصية من الأعمال، وكيف لا، وطريق القوم دائرة بين أحوال وأعمال، والمهمل منهما لا يصلح لبساط القرب. ولنقتصر على بعض ما روي عن الإمام علي - كرم الله وجهه -: أن عابدا جاءه يقال له همَّام، فقال له: صف لي بعض المتقين حتى كأني أنظر إليهم. فقال: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله لهم لما استقرت أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى ربهم، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فقلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة صيرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم، ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فما لوى أقدامهم، يرتلون لأجزاء القرءان ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق، ركنوا إليها طمعا، وتعطلت نفوسهم إليها تشوقاً، وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على رُكَبِهم يطلبون من الله فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء علماء، أبرار، أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا ركن أحدهم خاف مما يقال له، فيقول أنا أعلم من غيري بنفسي، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في الدين، وحزنا في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعملا في حلم، وقصداً في غنى وخشوعا في عبادة، وتحملا في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة. إذا استصعبت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب. قرت عينه فيما لا يزال، وزهدت فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل. ترى قريبا أمله قليلا زلله. خاشعاً قلبه، خائفة نفسه، سهلا أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، كظوما غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا محبته، لينا قوله، غائبا منكره، حاضراً معروفه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأتم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ ولا ينابز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت

بالمصائب، إن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له. نفسه منه في غناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لأخرته وأراح الناس من نفسه. بعده عمن تباعد عنه زهداً ونزاهة. ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

فصعق همَّام صعقة كانت فيها نفسه، فقال علي كرم الله وجهه: أما والله كنت أخافها عليه. ثم قال: هكذا والله تصنع المواعظ البليغة بأهلها. فيا له من حال جميل، فما ذكرناه إلا على وجه التعظيم والتبجيل.

ثم قال رضي الله عنه:

الأَحْوَالُ مَالِكَةٌ لِأَهْلِ البِدَايَةِ فَهِيَ تُصَرِّفُهُمْ، ومَمْلُوكَةٌ لِأَهْلِ النِّهَايَات فَهُمْ يُصَرِّفُونَهَا

أهل البداية مملوكون للأحوال، فهي تصرفهم كما يصرف المخيل وجود الخيال. وقد يؤثر الحال في أكثرهم حتى يخرجهم عن عادتهم، ويفسد مزاجهم، ويضاعف قواهم، وربما يقضي عليهم بسببه كما تقدم قبل هذا.

وأما أهل النهاية فتكون الأحوال مملوكة لهم. فهم يصرفونها، لا تؤثر في ظواهرهم لما فيه من القدم الراسخ. (**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**)، « النمل : 88 » ولهذا يقال: « إن الطريقة أولها جنون ووسطها فنون وآخرها سكون ».

ترى أكابر العلماء في نهايتهم ساكني الظواهر كأنهم لا خبر لهم بالحال. وقد كان الجنيد – رضي الله عنه – ثابتاً حتى يوشك أنه فاقد الاشتياق

عند أهل الأشواق. ومن ذلك ما يحكى عنه أنه قال: حججت سنة من السنين على الوحدة، وجاورت بمكة شرفها الله، فكنت إذا جن الليل دخلت الطواف فبينما أنا أطوف وإذا بجارية تطوف بالبيت وهي تقول:

أبى الحب أن يخفى وكم ما كتمته ☆ فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره ☆ وإن رمت قربا من حبيبي تقربا
ويمنحني وصلاً فأحيا به له ☆ ويسكرني حتى ألذ وأطربا

قال الجنيد فقلت لها: يا جارية أما تتقين الله، تتكلمين بمثل هذا الكلام في مثل هذا المقام. فالتفتت إلي وقالت: يا جنيد لا تدخل بينه وبين محبيه، ثم أنشدت تقول:

لولا التُّوقَى لم ترني ☆ هجرت طيب الوَسَنِ
إن الهوى شردني ☆ كما ترى عن وطني
قد همت من حبي له ☆ فحبه هيمني

ثم قالت: يا جنيد أنت تطوف بالبيت، فهل ترى رب البيت؟ فقلت: هذه دعوى تحتاج إلى إقامة حجة. فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: سبحانك سبحانك ما أعظم شأنك وما أعز سلطانك! خلق كالأحجار يطوفون بالإنكار على أهل الأسرار ثم أنشدت:

يطوفون بالبيت العتيق تقربا ☆ إليك وهم أقسى قلوبا من الصخر
فلو يخلصون السر جادت صفاتهم ☆ وقامت صفات الحق منهم على الذكر

قال الجنيد: فأغمي علي من كلامها، فلما أفقت طلبتها، فلم أجدها. مع أن الجنيد - رضي الله عنه - كان من أكابر العارفين، وحيث لم يظهر ذلك على ظاهره، ظنت الجارية أنه فاقد لما هي عليه.

مر السيد علي على أبي بكر – رضوان الله عليهما – فوجده يتمايل من شدة معرفته بالله، فقال له أبو بكر: هكذا كنا، ثم قست قلوبنا. ويعني بذلك رسوخ القدم. فكلما يسكن العارف في ظاهره، إلا ويزداد حركة في باطنه، منذ دخل إلى ميدان المعرفة لم تسكن له روعة في الباطن إلى أبد الأبد **(وللآخرة خير لك من الأولى)** « الضحى: 4 » ومع هذا يكون مصرفا للأحوال لا هي تصرفه.

تجد العارف يتصرف في المقامين مع أهل النهاية كأنه محجوب، ومع أهل البداية كأنه مجذوب، جامع الضدين لابس اللونين، تراه واحداً وفيه إثنان.

وتراني في هواها لابس اللونين ☆ غيرة مني عليها أن ترى بالعين

ثم قال رضي الله عنه:

فَالْمُقَرَّبُ مَسْرُورٌ بِقُرْبِهِ، وَالمُحِبُّ مُعَذَّبٌ بِحُبِّهِ

المنتسبون إلى الله طبقات: محب ومحبوب. أو تقول: طالب ومطلوب. فالمحب معذب بحبه، لأنه يشتهي القرب، يتقلب على جمر الشوق، متألم بآلام العشق، لا يلتذ له جنب ولا ظهر.

سئل الشيخ عبد القادر الجيلي – رضوان الله عليه – عن المحبة فقال: هي تشويش بالقلب يقع من المحبوب،فتصير الدنيا عليه ضيقة كحلقة خاتم، ومجمع مأتم. والحب سكر لا صحو معه، وذكر لا محو معه، وقلق لا سكون فيه، وخلوص المحبوب بكل وجه سراً وعلانية بإيثار اضطرار، لا بإيثار اختيار، وبإرادة خلقة لا بإرادة

كلفة. والحب العمى عن غير المحبوب غيرة عليه. والعمى عن المحبوب هيبة له، فهو عمى كله. والمحبوبون سكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم، مرضى لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم، حيارى لا يأنسون بغير مولاهم، ولا يلهجون بغير ذكره، ولا يجيبون غير داعيه. ثم تمثل بقول مجنون ليلى:

لقد لامني في حب ليلى أقاربي ☆ أخي وابن عمي وخالي وخاليا
فلو كنت أعمى أخبط الأرض بالعصا ☆ أصم فنادتني أجيب المناديا
وأخرج من بين البيوت لعلني ☆ أحدث عنك النفس يا ليل خاليا
وإني لأستغشى وما بي غشية ☆ لَعَلَّ خيالا منك يلق خياليا
معذبتي لولاك ما كنت هائما ☆ أدور على الأطلال في البدء عاليا
فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها ☆ فلم تمنعوا مني البكا وقلاقيا
وأشهد عند الله أني أحبها ☆ وهذا لها عندي وما عندها ليا
أحب من الأسماء ما وافق إسمها ☆ واسمهم أو كان منه مدانيا
يقول أناس كان مجنون عامر ☆ يروم سُلُوًّا قلت إني لما بيا
عذولي ذا داء الهيام أصابني ☆ فإياك عني لا يكن بك ما بيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك ☆ فشأن المنايا القاضيات وشأنيا

وللأمير عبد القادر رضي الله عنه:

ليالي صدود وانقطاع وجفوة ☆ وهجران سادة ولا ذكر الهجر
فأيامها أضحت قتاما ودجنة ☆ لياليها لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوه الهم والضنى ☆ فلا التذ لي جنب ولا التذ لي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيم ☆ ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر ☆ أمولاي هذا الليل هل بعده فجر

فهذا حال المحب متعذب في حبه. وأما المحبوب فهو متنعم بقربه، حيث ارتضاه الحق وجذبه لحضرته، فصار يتنعم في رياض القرب والمشاهدة، لم يتحمل شيئاً من أنواع المكابدة والمجاهدة، اختصه الحق تبارك وتعالى بمحبته له من صنف قوله تعالى: (**فسوف ياتي الله بقوم يحبهم**) « المائدة : 54 ».

وأما الأول وهو المحب المعذب في حبه داخل في صنف الشق الثاني من قوله تعالى: (**ويحبونه**).

قال في الحكم العطائية: «قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته». (**كُلًّا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً**) « الإسراء : 20 » قال شارحها: الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة (**لا يأسأل عما يفعل وهم يسألون**) « الأنبياء : 23 ».

ثم اعلم أن المحبة هي: (**نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة**) « الهمزة : 286 » قال سفيان الثوري في قوله تعالى: (**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**) « البقرة : 286 » هو الحب إذا أفرط بصاحبه، لأن المحب لا راحة له دون لقاء محبوبه. وقيل: إن الجنيد - رضي الله عنه - تكلم مع أصحابه في المحبة، فتكلم كل منهم بما أعطاه العلم والذوق فيها، وكان معهم شاب متكىء ينصت، فالتفت إليه الجنيد - رضي الله عنه - وقال: ما تقول في المحبة يا غلام؟ فتنفس فكانت نفسه مثل النار فأصابت ما حاذاه من المرعى، فتعجب القوم. فالمحبة لا يدريها إلا من جرعها، فهي أشد من نار الجحيم، ومن ورائها جنة النعيم إلى جنة القرب والمشاهدة. فلا بد من عطف المحبوب على حبيبه إن صدق في حبه.

سئل بعض المحبين، كيف رأيت المحبة؟ فقال: وقفت على ساحل بحر زاخر ماله من آخر، فقرب مني قارب **(من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً)**، فركبت موافقة له واتباعاً، فأجابت الروح من دعاها: **(بسم الله مجراها ومرساها)** «هود: 41» فلما توسطت اللجة توعرت سبل اللجة. فما زلت حتى جمعني في مجمع يجري **(يحبهم ويحبونه)**، فأنا بين البقاء والفناء حتى أصل ذلك الفناء.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: بينا أنا مار في شوارع مصر إذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار. فقلت لها: يا جارية أما تستحين أن تمشي بغير خمار؟ فقالت: يا ذا النون وما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار؟ فقال ذو النون: ومن أي شيء علاه الاصفرار؟ قالت: من محبته. فقلت: يا جارية عساك تناولت شيئا من شراب القوم؟ فقالت: أسكت يا بطال، شربت بكأس وده ونمت مسرورة، فأصبحت بحب مولاي مخمورة. فقلت: يا جارية عسى فائدة انتفع بها منك، أو وصية أرويها عنك! فقالت: يا ذا النون عليك بالسكوت حتى يتوهم أنك مبهوت، وارض من الله بالقوت تبنى لك بيت في الجنة من ياقوت. ثم أنشدت تقول:

تهتك ولا تخش في الحب عارا ☆ وإياك إياك تبدي استتارا
وبادر إلى الباب مع فتية ☆ لهم في الظلام عيون سهارا
وإن خفت عند المسير الضلال ☆ فوجه حبيبك يهدي الحيارى

وعنه أيضا أنه قال: سمعت برجل في اليمن قد سما على المحبين، وفاق على المجتهدين، وعرف بالعلم والحكمة. فخرجت حاجاً، فلما قضيت نسكي مضيت إليه لأسمع كلامه، وأنتفع بموعظته أنا وأناس معي يطلبون مثل ما أطلب، وكان معنا شاب عليه سمة

الصالحين وشعار المحبين، فخرج الشيخ إلينا فجلسنا إليه، فبدأ الشاب بالسلام والكلام فصافحه الشيخ وأقبل عليه. فقال له الشاب: يا سيدي قد جعلك الله طبيبا لأسقام القلوب، وبي جرح قد أعيا الأطباء، فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل. فقال الشيخ: عما بدا لك فاسأل. فقال: ما علامة الحب لله؟ قال: أن تنزل نفسك منزلة السقيم، ألا تراه يحتمي كل الطعام حذراً من السقام. فصاح الفتى صيحة ظننا روحه قد خرجت، فلما أفاق قال: يرحمك الله فما علامة المحبين؟ قال: إن درجة المحبين رفيعة. قال: صفها لي. فقال: إن المحبين لله تعالى نظروا إلى نور جلال الله فصارت أبدانهم روحانية، وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة بالعيان، وتشهد تلك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ طاعتهم، لا طمعا في جنته ولا خوفا من ناره. قال: فشهق الفتى شهقة خرجت روحه. فجعل الشيخ يبكي ويقبله ويقول: هذا والله مصرع الخائفين، وهذه درجة المحبين. هذا حال من أحرق الشوق أكباده، وألم فؤاده وأضناه وأخذه، فهل يطيب عيشه هيهات! ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق ☆ وجنة عدن بالمكاره حفت
ولي نفس حر لو بذلت لها على ☆ تسليك ما فوق المنى ما تسلت
ولو أبعدت بالصد والهجر والقلى ☆ وقطع الرجا عن خلتي ما تخلت
وعن مذهبي في الحب مالي مذهب ☆ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

ومن «الروض الفائق» عن السري السقطي - رضي الله عنه - أنه قال: دخلت للمارستان لعلي أعتبر بمن فيه، فرأيت فيه جارية مصفرة اللون، ويدها إلى عنقها مغلولة، وهي بذكر الله مشغولة، فسمعتها تنشد وتقول:

أعيـــذك أن تغـــل يـــدي ☆ بغير جنايـــة سبقـــت
تغـــل يـــدي إلى عنق ☆ ومـــا خـــانت ولا سرقـــت
وبين جـــوانحي كبـــدي ☆ أحســـن بهـــا قـــد احترقت
وحقـــك يـــا منى قلبي ☆ يمينـــا برة صـــدقت
لأن قطعتهـــا قطعـــا ☆ غرامـــا فيك مـــا نطقـــت

قال السري: فقلت للقيم على المجانين ما هذه الجارية؟ قال: جارية اختل عقلها فحبسها مولاها. فلما سمعت الجارية كلامه تنهدت وأنشدت:

معاشر النـاس مـا جننت ولكن ☆ أنـــا سكرانـــة وقلبي صـــاح
قـد غللتم يـدي ولم آت ذنبـــا ☆ غير هتكي في حبـه وافتضـاحي
أنـــا مفتونـــة بحب حبيـــب ☆ لست أبغي عـن بابـه مـن براح
فصـــلاح الـــذي رأيتم فســـادي ☆ وفســـادي الـــذي رأيتم صـــلاحي

قال السري: فلما سمعت كلامها أبكاني وأقلقني وأشجاني. فلما رأت دموعي تنحدر على وجهي قالت: يا سري هذا بكاؤك على صفته، فكيف لو عرفته حق معرفته! فقلت: يا لله العجب، في أي وقت عرفتني هذه الجارية ولم يكن بيني وبينها معرفة سابقة. فقالت: يا سري، ما جهلت مذ عرفت، ولا فترت مذ خدمت، ولا قطعت منذ وصلت، ولا حجبت منذ وقفت، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً. ثم أنشدت تقول:

تحقق حق الحق في نـور بـاطني ☆ فأصبح قلبي للحبيـب مصافيـا
فدمت على وصف وصفت لسيدي ☆ وهل ينعت العبد الضعيف المواليا

فقلت: يا جارية أراك للمحبة تذكرين وللوجد تظهرين، فلمن

تحبين ؟ فقالت : لمن تعرف إلينا بآلائه، وتحبب إلينا بنعمائه، وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب، مفرج الكروب، حليم على من عصاه. قال فقلت لها : من حبسك في هذا المكان ؟ فقالت : حاسدون ومبغضون تعاونوا علي ورموني بالجنون وهم أحق بهذا الإسم مني. ثم أنشدت تقول :

يا من رمى وحشتي فأنسني ☆ بالقرب من وصله فأنعشني
يا ساكني لا خلوت من سكني ☆ دهري ويا عدتي على الزمن
أوحشني ما فقدت منه فقد ☆ عاد بإحسانه يقربني
وعاد أيضا وجاد منعطفا ☆ كذاك مذ كنت منه حين عودني
حسبي من الكون من شغفت به ☆ أصحبه مؤنسا ويصحبني
وكنت في غفلة فنبهني ☆ وكنت في رقدة فأيقظني

فقلت لها : ما الإسم ؟ فقالت : دع الإسم عنك، يكفيك ما سمعت ويغنيك. فبينما نحن كذلك إذ أقبل سيدها فقال للموكل بها : أين تحفة ؟ فقال : قد دخل عندها الشيخ السري، فكلمها بكلام أصغت إليه. فدخل سيدها فرأى السري عندها، فعظمه وقبل يديه وقال : يا سيدي لقد رحمت ببركتك. فقال له السري : أي شيء أنكرته منها ؟ فقال : يا سيدي هذه جارية تضرب بالعود فأعجبتني، فاشتريتها بجميع مالي وهو عشرون ألف درهم لفرط حسنها وحسن ضربها بالعود، وأملت أن أبرح فيها مثل ثمنها، فدخلت عليها في بعض الأيام والعود في حجرها وهي تغني وتنشد وتقول :

وحقك لا نقضت الدهر عهدا ☆ ولا كدرت بعد الصَّفْوِ ودا
ملأت جوانحي والقلب وجداً ☆ فكيف أقرأ وأسلو وأهدا
فيا من ليس لي مولى سواه ☆ تراك رضيتني في الناس عبدا

فلما فرغت من غنائها بكت طويلا وضربت العود في الأرض فكسرته، وجعلت تهيم وتصيح وهي ذاهلة العقل، فاتهمتها بمحبة المخلوق، ثم كشفت عن حالها فلم أجد لذلك أثراً. فقال لها السرى: يا جارية أهكذا جرى؟ فأنشأت تقول:

خاطبني الحق من جناني ☆ فكان وعظي على لساني

قربني منه بعد بعد ☆ وخصني منه واصطفاني

أجبت لما دعيت طوعا ☆ ملبية للذي دعاني

وخفت مما جنيت قدما ☆ فوقع الحب بالأماني

قال السري لسيدها: أطلقها وعلي ثمنها، أنا أزن لك. فصاح سيدها وقال: وافقراه من أين لك ثمن هذه الجارية؟ فقلت: لا تعجل، كن في هذا المكان حتى أزن لك ثمنها. قال السري: فمضيت إلى منزلي وعيناي تذرفان بالدموع، وقلبي بسببها موجوع، وبت ليلتي أتضرع إلى الله عز وجل وأتوجه إليه وأتوكل في قضاء حاجتي عليه، فلما كان وقت السحر إذا بقارع يقرع الباب، فقلت من بالباب؟ فقال: حبيب من الأحباب جاء في سبب من الأسباب، من عند الملك الوهاب. ففتحت له الباب، فإذا هو شاب حسن الوجه والثياب ومعه خَادِمٌ وشمعة وخمس بدر على رأس حمال. فقلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا أحمد بن المثنى قد أعطاني الجبار وما بخل علي بالعطاء، ورزقني من الأموال ما يعجز عن وصفه الرجال وحمله، فبينما أنا نائم إذ هتف بي هاتف من قبل الحق. فقال لي: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: وقد زال النوم عني ومن أولى بذلك مني. فقال: أحمل إلى الشيخ السري خمس بدر يعطيها لمولى «تحفة» ليفك أسرها من الرق، وتحظى منا بالعتق، فلنا بها

عناية ولطف ورعاية. فحملت إليك المال وأطلعتك على الحال. قال السري: فسجدت شكراً لله عز وجل، فلما صلينا الصبح وأضاء النهار، أخذت بيد أحمد ومضينا إلى المارستان، وإذا بالموكل بها يلتفت يمينا وشمالا، فلما رآني قال: مرحبا بك أدخل إليها فإنها عليك لهفانة. ولها عند الله حرمة ومكانة، فإنه أتاني البارحة هاتف وقال لي:

إنهـــــا مني ببـــــال ☆ ليست تخلـــو مـــن نـــوال
قـــربت ثم تســـامت ☆ وعلـــت في كل حـــال

فانتبهت وحفظت ما قاله الهاتف وكررته حتى رأيتكم. قال فدخلنا عليها فسمعناها تنشد وتقول:

قـــــد تصبرت إلى أن ☆ عيـــل في حبـــك صبري
كتمـــت الوجـــد ولكـــن ☆ ليـــس يخفى عنـــك أمري
ضـــاق مـــن قيـــدي وَغِلِّي ☆ ومـــا نهـــاني فيك صـــدري
إن تكـــن عني راضيـــا ☆ لا أبـــالي طـــول دهري
أنـــت لي خير أنيـــس ☆ يـــا منى سُـــؤلي وذخـــري
مـــن ترى يعتـــق رقي ☆ ويفـــك اليـــوم أسري
غيرك اللهـــــم ربي ☆ أنـــت لي كاشـــف ضري

قال السري: فبينما هي تنشد إذ أقبل مولاها وهو يبكي وينتحب. فقلت له: لا بأس عليك، قد أتيناك بمالك الذي وزنته في الجارية وتربح خمسة ألآف درهم. فقال: لا والله لو أعطيتني الدنيا بما فيها لما قبلت منها شيئاً، هي حرة لوجه الله. فقلت: أخبرني ما الخبر؟ فقال: يا أستاذي أتاني آت البارحة في المنام فوبخني بالملام، وأغلظ علي في الكلام وقال: تهين ولية الله يا عدو الله.

فانتبهت مذعوراً مرعوبا، قد هانت علي الدنيا وخرجت عن جميع ما أملكه، وأنا هارب إلى ربي. ثم بكى وخرج على وجهه هائما.

قال السري: فالتفت إلى «إبن المثنى» فرأيته يبكي وينتحب، ودموعه تجري على وجنتيه، وقد ظهرت عليه آثار القبول. فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: ما رضيني مولاي لما ندبني إليه، ولا وجدت لمالي قبولا بين يديه، أشهدك أني خرجت عنه وهو صدقة لوجه الله البديع ولجلاله الرفيع. فقلت: ما أعظم بركة «تحفة» على الجميع.

ثم قامت «تحفة» فنزعت ما عليها ولبست جبة صوف وخماراً من شعر وخرجت هائمة على وجهها، فخرجنا معها وهي تنشد وتقول:

هربـــت منـــه إليـــه ☆ بكيـــت منـــه عليـــه

وحقـــه وهـــو مَـــوْلًى ☆ لا زلـــت بين يديـــه

حتى أنـــال وأحظـــى ☆ مـــا أرتجيـــه لديـــه

فما زلنا نتبعها حتى خرجنا إلى ظاهر المدينة وهي تنشد وتقول:

يا سرور السرور أنت سروري ☆ يا حياة النفوس أنت حبوري

أنـت نـاري وجنتي ونعيمـي ☆ وأنيسي وأنـت نـور النـور

كم ترى يصبر المحـب على البعـ ☆ ـد وكم يلبث الهوى في الصدور

قال السري: ثم مضت حتى غابت عنا، ثم أتى مولاها وصحبني، وكذلك ابن المثنى بُرهةً من الزمان إلى أن توفي سيدها وقضى نحبه، وبقيت أنا وابن المثنى فعزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام. فبينما نحن نطوف بالكعبة وإذا بصوت مقروح من كبد مجروح، وهو ينشد ويقول:

قـــد تهتكـــت بحبـــك ☆ كيـــف لي منـــك بقـــربك

فترفـــــق بفـــــؤاد ☆ يشتكي شـــدة بعــــدك
خبـــت يــا نفـــس إذا آ ☆ خـــذك الله بيـــدك
فسلي العفـــو جهـــارا ☆ والرضـا مـــن عنـــد ربك

قال السري: فاتبعت الصوت فإذا امرأة كالخيال ذاهلة العقل والبال، فلما رأتني قالت: السلام عليك يا سري. فقلت: وعليك السلام، من أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله، وقع التناكر بعد المعرفة، أنت إلى الآن محجوب وقلبك غير مسلوب، ثم قالت: أنا تحفة. فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخُلق؟ فقالت:

أفـــــــادني كل المنى ☆ وخـــص قلبي بـــالغنى
وقـــد أزال سيـــدي ☆ عن بـاطني ثقـل العنـا
إن لم يــــداركني بمـــا ☆ أرجــوه وإلا مـــن أنــا

فلما فرغت من إنشادها بكت وانتحبت، وهاجت واضطربت، ثم رفعت رأسها وقالت: سيدي ومولاي! فاز أهل التقى ونجا من اتقى، وخاب من حظه الطرد والشقا. فأسألك يا سيدي إلا ما قربت الوصل واللقا، فقد تولهت عليك فخذني إليك فلا حاجة لي في البقا. ثم صرخت ووقعت على الأرض، فحركناها فإذا هي ميتة، فنظر إليها أحمد ابن المثنى فطار قلبه وحار لبه، ثم بكى وانتحب، واهتز واضطرب، وأصعد الزفرات وأظهر الحسرات، ثم صرخ ووقع على الأرض فحركته فإذا هو ميت. قال السري: فجهزتهما وصليت عليهما ودفنتهما ورجعت، وقد عجبت من حالهما وقرب آجالهما، رحمة الله عليهما. إنتهى من «الروض الفائق».

وما أوردنا هذه الحكاية مع طولها إلا لوجود مناسبتها لهذا الفصل، والكلام على المحبة طويل عريض لا غاية له.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ هَيَّمَهُ أَثَرُ النَّظَرِ، وَأَقْلَقَهُ سَمَاعُ الخَبَرِ، تَقَطَّعَ فِي مَفَاوِزِ المُخَاطَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الآفَاتِ، يَقُولُ فِي هَيَمَانِهِ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى وَصْلٍ أَعِيشُ بِهِ

أي من هيمه أثر النظر وصح عنده الخبر، وطرق سمعه طريق القبول، ووعده محبوبه بالوصول، هام في مهامه الفلوات وخاطر بنفسه في مهالك الآفات. يقول في هيامه: لا أبالي في هيامي أو هيماني بما يلقاني، كيف السبيل إلى وصول أعيش به. إذ ليس له دون ذلك وطر. ومن شهد المنازل لا يرضى بالمزابل. قال بعضهم: رأيت جارية في البادية وعليها أثر القلق. فقلت لها: رفقا بنفسك يا أمة الله. فقالت: هو هو. قلت: إلى أين تريدين؟ فقالت: هو هو. فقلت لها: من تعني بقولك هو، أ الله تريدين؟ فزهقت زهقة فاضت منها نفسها، فتركتها ودخلت المدينة لنجمع بعض الدراهم لكي أستعين على كفنها، فلم يتيسر لي ذلك، فرجعت لدفنها على ما هي عليه فلم أجدها، إلا أني وجدت رائحة تفوق المسك، فبقيت منتظراً وإذا بهاتف يقول: أقوام اشتاقوا إلينا في حياتهم فرفعناهم إلينا بعد مماتهم. فمن أقلقه أثر النظر وسماع الخبر خاطر بنفسه ولم يبال بجسده.

قيل: إن الحلاج - رضي الله عنه - لما قطعت يده اليمنى ثم اليسرى أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها ☆ إلا لعلم بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة ☆ لعل مسقمها يوما يداويها

ولما قدموه للجذع ليصلب أنشأ يقول:

لبيك يـا عـالم سري ونجـواي ☆ لبيك لبيك يا قصدي ومعنـاي

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ☆ ناجيت إيـاك أم نـاجيت إيـاي

حبي لمـولاي أضنـاني وأسقمني ☆ فكيف أشكـو لمـولاي بمـولاي

يا ويح روحي من روحي ويا أسفي ☆ علي مني فـإني أصـل بلـواي

فهذا حال من أقلقته الأشواق، يكابد في لقاء المحبوب ما يكابده، وكل ذلك أحلى من الشهد.

قال إبراهيم الخواص رحمة الله عليه: حججت سنة من السّنين وكانت سنة كثيرة الحر والسموم، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز انقطعت عن الحاج، وغفوت قليلا فلم أشعر إلا وأنا وحدي في البرية، فلاح لي شخص فأسرعت إليه فلحقته وإذا هو غلام لا نبات بعارضيه، وجهه كالقمر المنير، أو الشمس الضاحية، وعليه أثر الدلال والترفُّه، فقلت له: السلام عليك. فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم. فقلت له: من أنبأك بإسمي ولم تسبق بيني وبينك معرفة؟ فقال: يا إبراهيم ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت. فقلت له: ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر والسموم؟ فقال: يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا وافيت غيره، وأنا منقطع إليه بالكلية مقر له بالعبودية. فقلت له: من أين المأكول والمشروب؟ قال: تكفل لي به المحبوب، ثم أجابني ودموعه تنحدر على خديه كالؤلؤ الرطب وأنشأ يقول:

من ذا يخـوفني بـالبر أقطعـه ☆ إلى المحب وقـد قـدمت إيمانـا

الحـب أقلقني والشـوق أزعجني ☆ ولا يخـاف محـب الله إنسانـا

فهل لصغران سني اليوم تحقـرني ☆ دع عنك عذلك في قد كان ما كانا

ولو كلف المحبوب محبوبه بما زاد على طوقه لتحمله بدون مشاق وبدون أن يتوقف. قال ابن الفارض رضي الله عنه:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضا ☆ لـــوقفت ممتثـــلا ولم أتوقـــف
أو كان من يرضى بخدي موطئـاً ☆ لوضعتـه أرضـا ولم أستنكـف

قيل: إن داود – عليه السلام – قال في مناجاته: (**إلاهي لو كان بيني وبينك واد من نار لقطعته اشتياقا إليك**).

ولنـــا في ذلـك:

ولـــو أن بين المحبين مسافـــة ☆ لقطعتهـــا عزمـــا ولـــو بمشقتي
ولـو كان بيني وبينكم حَـائِلٌ ☆ لمـزقت مـــانع الوصـــول بهمتي
ولو صح ذا الغرام بالفعل هنته ☆ ولا أبالي بمـا فيـه من حسنـاتِ
وهبت ما عندي في الجميع متبرعا ☆ في ديني ودنياي من فرض وسنة
وقلت قل ذا المهر في جانب اللقا ☆ فيا حبـذا التبـذير بين الأحبـة

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) « التوبة: 111 » فإن كان هذا مهر الجنة فكيف بمن يطلب الحق، فحقه أن يخاطر بنفسه وأن يرمي بها في مواطن الهلاك ولو تقطعت أربا أربا في مطلوبه ولا يبالي.

ألا ترى لو أن امرأة فقدت ولدها، وقيل لها: إنه وقع في نهر أو في بحر، لرمت بنفسها وقدمت الهلاك بدون أن تلاحظ ما وراء ذلك. حبك للشيء يعمي ويصم.

كان إبراهيم – عليه السلام – أمر بذبح إبنه، هل توقف في ذلك؟ بل نهض نهوضا يعجز عنه بقية البشر، والحامل له على ذلك

ما أصابه من الشوق، زيادة على الامتثال، حتى اقتحم عملاً ضج منه الثقلان (**إن هذا لهو البلاء المبين**) « الصافات : 106 » فعل الحق عز وجل به ذلك لكي يباهي به الثقلين، ويحتج به على سائر المخلوقين.

رىء مجنون ليلى في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. نال ما ذكر بسبب ما أصابه من التهتك وما لقيه من الشغف حتى قال في طلب محبوبه:

فإن طلبوا رجلي مشيت على العصا ☆ وإن طلبوا الأخرى حبست مكانيا

فإن كان هذا عشق المظاهر لبعضها، فكيف بتشوق الفروع لأصولها والأطيار لأوكارها، بل وما هو أبلغ من ذلك.

ثم قال رضي الله عنه:

الخَالِيُ مِنَ الأُنْسِ وَالشَّوْقِ فَاقِدٌ لِلْمَحَبَّةِ وَلِأَرْوَاحِ الرِّعَايَةِ وَأَشْبَاحِ الوِقَايَةِ

الخالي من وجود الأنس والشوق لا يعد من المتوجهين، والمراد بالأنس، الأنس بالله، وفاقدهما على اختلاف طبقاتهما لفقده نعت المبتدئين وهو الشوق، ونعت المنتهين وهو الأنس بالله، لا يعد من المتوجهين إلى الله. وعليه فهو خال وفاقد للمحبة، بحيث لم تنبت بفؤاده. إذ لو كان له شيء منها لما كان خاليا من وجود الأنس والشوق، ولفقدانه المحبة فلا محالة يكون فاقدا لأرواح الرعاية وأشباح الوقاية. وقد تقدم الكلام على رعاية الأرواح ووقاية الأشباح، لأن العارفين محفوظون من الخطرات والغفلات بالرعاية. وأي رعاية

حصلت له حيث كان خاليا من وجود الأنس ؟ ولأن أشباحهم محفوظة من الوقوع في المكروه أو المحرم. وأي رعاية حصلت لفاقد الشوق ؟

وحاصل الأمر إن وقاية الأشباح هي حفظها من الوقوع في المخالفة، ورعاية الأرواح هي حفظها من الجولان في عالم الأغيار، والغفلة عن الحضور مع الحق عز وجل. وأساس هذا كله وجود المحبة، لأنها إذا وجدت فلا محالة ينشأ عنها كل من الشوق والأنس، كما قلنا:

ومن ليس ذا شوق يقوم بضعفه ☆ وليس من ذوي الأنس تركه أنفع
ومن ليس ذا حب يحتاج لبعده ☆ لأنه بطال في الوصل لا يطمع

وحاصل الأمر إن المحبة أصل عظيم في الطريق، فمن حصل عليها حصل على الخير لا محالة، لأنها تنوب عن بقية الخصال ولا ينوب عنها غيرها.

فهات لي حبا أفوز به ☆ وخذ ما شئت دون المحبة

ثم قال رضي الله عنه:

فَقْدُ الأَسَفِ وَالبُكَاءِ فِي مَقَامِ السُّلُوكِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ الخِذْلَانِ

السالك في طريق الله مجروح الفؤاد باكي الأثماد عما فاته في طلب الحق وما ضيعه في الأيام الخالية. هذا إن تحقق المقصود لديه وانتبه من نومه. وإن فقد ذلك، كان فقده علامة من علامات الخذلان إذا لم يرجع عن غيه وينهض لربه، فيكون سائراً باللسان

معرضا بالجنان، إذ من لم تؤلمه نار الحجاب فهو ميت القلب، إذْ لو علم ما هو عليه من البعد وما فاته من الاستعداد، لطار طيران الظمآن إلى الماء، ولكن مثله مثل الحمقاء عند موت إبنها يكثر ضحكها ويقل بكاؤها، فالعين التي لم تبك على عدم رؤية المحبوب، فالعمى أولى بها. وكيف لا يجري الدمع من عينيه مع قطيعته، وقد كان من تقدم يبكي حتى تجف دموعه. وقد قيل: إن فتح الموصلي - رضى الله عنه- كان يبكى الدموع ثم يبكي الدم، فلما مات رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، وقال: يا فتح هذا البكاء لماذا؟ قلت: يا رب على تجافي عن واجب حقك. قال: فلم بكيت الدم؟ قلت: ياربي خوفا على دموعي أن لا تصح لي. قال: يا فتح ما أردت بذلك كله؟ قلت: يا سيدي أردت بذلك وجهك الكريم، فأرنيه واصنع بي ما شئت. فقال: وعزتي وجلالي لقد صعد إلي حافظاك منذ أربعين سنة بصحيفتك، وليس فيها خطيئة واحدة، فلألبسنك لباس التكريم، ولأمتعنك بالنظر إلى وجهي الكريم.

كان شقيق البلخي - رضي الله عنه - يعاتب نفسه وينصحها ويقول: يا شقيق لا تعصي الله إلا على حسب ما تطيق من عذابه، واعمل لآخرتك على قدر حوائجك، وطالب بالرزق على قدر مقامك في الدنيا، واعمل لدار لا نفاد لها، فسوف ترى إذا انكشف الغبار.

سهر العيون لغير وجهك باطل ☆ وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

قال ابن عطاء الله في مناجاته: « لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا، ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد منْ وجدك ».

ولبغض المحبيـن:

ركبت بحــراً مــن الــدموع ☆ سفينــه جسمــي النحيــل
فمــزقت ريحــه قلــوعي ☆ مــذ عصفت ساعــة الرحيــل

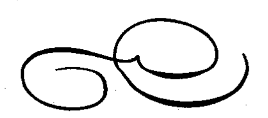
وقــال أيضــا:

والمــاء إن قــل في المنــاهل ☆ أو رمــت عنــد النزول نــار
فــالتمس المــاء من دمــوعي ☆ فكم لهــا في الفــلا سبيــل
واقتبس النــار مــن ضلــوعي ☆ ففي الحشــا حشوهــا شعيــل

وقــال آخــر:

صبرت قلبي عنكم فأجــابني ☆ لا صبر لي لا صبر لي كيف أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بنــاظري ☆ وعلى محبتكم أمــوت وأحشر

وحزن العارفين وبكاؤهم في الطريق وأسفهم على ما فات معلوم بالضرورة، والقلب الذي لا يتأسف على ما فات، ولا يستعد لما هو آت ولا يتشوف لأسرار الذات وأنوار الصفات، فحياته ليست بحياة، فيعد من قلوب البهائم، (**لهم قلوب لا يعقلون بها**).



ثم قال رضي الله عنه:

لَيْسَ مَنْ أَلْبَسَ ذُلَّ العَجْزِ كَمَنْ أَلْبَسَ عِزَّ الإِفْتِقَارِ

شتان ما بينهما، إذ ليس من لبس عز الإفتقار إلى الله، ونهض كل النهوض إليه كمن لبس ذل العجز عن طلبه ورضي بالقطيعة وكان مع الخوالف. فبأي شيء يستبدل الحق إن فقده، فليس له بدل مع أن لكل شيء بدلا. قيل في هذا المعنى:

لكل شيء إن فقدت عوض ☆ وليس لله إن فقدت من عوض

الحق تبارك وتعالى كل من نهض إليه وجده فوفاه حسابه. فما منعنا عن الوصول إليه إلا عدم النهوض إليه. فمن صح له الإضطرار لا يكون له مع غير الله قرار.

ثم قال رضي الله عنه:

المَحَبَّةُ الأُنْسُ بِاللَّهِ وَالشَّوْقُ إِلَيْهِ

المحبة على قسمين: فهي لأهل البداية شوق لله وطلب الوصول إليه. وعند أهل النهاية الحضور معه والأنس به، فتكون على هذا شوقا واشتياقا. فالمريد في شوق إلى لقاء المحبوب، ومتعوب يتقلب على جمر المماطلة، لن يصفو له الوقت، وكيف يصفو له الزمان وهو بين شوق وامتحان.

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق ☆ وجنة عدن بالمكاره حفت
ولي نفس حر لو بذلت لها على ☆ تسليك ما فوق المنى ما تسلت

ولو أبعدت بالصد والهجر والقلى ☆ وقطع الرجا عن خلتي ما تخلت
وعن مذهبي في الحب مالي مذهب ☆ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

هذه حالة أهل القسم الأول. وأما الواصلون فإنهم يكونون في اشتياق، لأن الشوق ينتهي بملاقاة الحبيب، وأما الاشتياق فيزداد صاحبه بعد الوصول إليه لهيبًا. فالأول متعذب في حبه، والثاني مع وجود اللهيب يتنعم بقربه. ولبعضهم:

الحب سكر خماره التلف ☆ يحسن فيه الذبول والدنف
والحب كالموت يفني كل ذي شغف ☆ ومن تطعمه أُوْدَى به التلف
في الحب مات الأولى صفت محبتهم ☆ ولو لم يحبوا لما ماتوا وما تلفوا

وقال غيرهم

إن البلد وما فيها من الشجر ☆ لو بالهوى عطشت لم ترو بالمطر
لو ذاقت الأرض حب الله لاشتغلت ☆ أشجارها بالهوى فيها عن الثمر
وعاد أغصانها جردا بلا ورق ☆ من حر نار الهوى يرمين بالشرر
ليس الحديد ولا صم الجبال إذا ☆ أقوى على الحب والبلوى من البشر

وقال غيره:

وقفت على باب الحبيب مسائلا ☆ فتبدا جوابي قبل أن أتكلما
وكيف جوابي أنت لا أنت ما ترى ☆ قمت بوجود الوجد حتى تَهَدَّمَا
وراع وداد من استطعت فإنني ☆ سأجعل ودي في المعاد معظما
وكشف حجاب العِزّ عني لأنني ☆ أحب نداء العارفين تكرما
شفاؤك عندي غير أني أحب أن ☆ أراك على عرش المحبة مسلما

المحب معذب بحبه لا يلتذ له عيش ولا يخلو من طيش، مؤلم الفؤاد باكي الأثماد، يتقلب على جمر المماطلة، أخذه الحب أسيرا،

لا شفيع له ولا ناصرا. وفي ذلك قال بعضهم - رحمة الله عليه - وهو «أبو مدين» التلمساني:

تذللت في البلدان حين سبيتني ☆ وبت بأوجاع الهوى أتقلب
فلو كان لي قلبان عشت بواحد ☆ وأترك قلبا في هواك يعذب
ولكن لي قلبا تملكه الهوى ☆ فلا العيش يهنى لي ولا الموت أقرب
كعصفورة في كف طفل يضمها ☆ تذوق سياق الموت والطفل يلعبُ
فلا الطفل ذو عقل يحن لما بها ☆ ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب
تسميت بالمجنون من ألم الهوى ☆ وصارت بي الأمثال في الحي تضرب
فيا معشر العشاق موتوا صبابة ☆ كما مات بالهجران قيس معذب

(**كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك**) «الإسراء: 20».

المحبة نار مهما وقعت على شيء في الطريق إلا وقطعته وأحرقته وهي (**نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة**) «الهمزة: 7» فمن وجدها وجد مطلوبه ولو كان من وراء الثريا، لأنها تحمله وتقطع به وتأخذه وتنهض به. ولهذا يقال: صاحب النية سيار، وصاحب المحبة طيار. قال شيخ مشايخ هذه الطائفة سيدي عبد الرحمان المجذوب رحمة الله عليه:

أهل الهوى صدوا مروا ☆ وأهل المحبة فاقوا
لو خرقوا السموات السبع ☆ رفعوا الحجب ودخلوا
أهل المحبة قالوا لي ☆ إذا أبلاك الله بها
مقامها عال غال ☆ أهل الكتب حاروا فيها
لا محبة إلا بوصول ☆ ولا وصول إلا غال
ولا شراب إلا مختوم ☆ ولا مقام إلا عال

والكلام في المحبة طويل الذيل لا يساعد الإفصاح عنه في هذا المجموع القليل.

وأما صاحب الأنس والاشتياق فهو معذب إلا أنه يتلذذ بذلك التعذيب، فهو عنده أطيب من كل طيب. تراه يتأوه كأنه منقطع باكي العين، كأنه في بين، حزين الفؤاد كأنه في بعاد في قربة وهو غائب عن القرب. ومع شربه كأنه غائب عن الشرب، إذا قلت له من تهوى؟ يقول من شدة قربه: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا».

روحه روحي وروحي روحه ☆ نحن روحان حللنا بدنا

أختلط له المحب بالمحبوب، حتى صار لا يدري نفسه هل هو حبيب أو محبوب، أم طالب أو مطلوب، حيره الغرام وأسكره المدام. وقد قال من حقق هذا المقام وهو ابن الفارض رضي الله عنه:

أسائلها عني إذا ما لقيتها ☆ ومن حيث أهدت لي هداي أضلت

وأطلبها مني وعندي لم تزل ☆ عجبت لها كيف عَلَيَّ استجنَّتِ

وما زلت في نفسي بها متردداً ☆ لنشوة حسي والمحاسن خمرتي

قلت في هذا المعنى:

فياليت شعري ما الحبيب الذي نرى ☆ فهل طلبت غيري أم نفسي مطلوبتي

فإن كنت ذاك أنا بل حبي أردته ☆ فمطلوبي من نفسي وإليَّ غايتي

وهل هذا ممكن في نفسي كائن ☆ مطلوب وطالب في نفس واحدة

فهذا عشق المعشوق في العشق حيرة ☆ وكان حب الحبيب يرى من زلة

فكيف يكون الحب إن كان واحدا ☆ ومتى يكون القرب في الفرد المثبت

وفي مثل هذا المعنى ما رُوي عن الشيخ الشبلي رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا سائح في بعض الجبال إذ رأيت ريحانة العابدة وهي تنشد هذا البيت:

أحضرتني فيـــــك لكـــــن ☆ غيبتنـــــــــي في التجـــلي

قال: فنظرت يمينا وشمالا ثم قصدتها وسلمت عليها فردت علي السلام. فقلت: يا ريحانة، فقالت: لبيك يا شبلي، فقلت: على من تفتشين؟ فقالت: على ريحانة! فقلت لها: ألست ريحانة؟ قالت: بلى! ولكن يا شبلي منذ قرب ودنا وقعت في الفنا، وصرت لا أعرف أين أنا، فغبت عن وجودي وضعت مني، وصرت أسائل الركبان عني فلا أجد من يخبرني عني. فقلت: عودي يجمع عليك، فقد رفعت الأعلام إليك. فقالت: يا شبلي لقد سألت عناصري فلم أجد فيهـــم أحدا ناصري، وسألت الحواس فإذا هم سكارى من غير كأس، وسألت فهمي فدلني على وهمي، وسألت سري فقال: لا أدري، وسألت فؤادي فما بلغني مرادي، وسألت قلبي فاستغرق وقال حسبي لا أتكلم ولا أبدي، ثم قالت: يا شبلي من هيبة ربي لم يبق حي إلا وسألته أن يوصلني إلي ويدلني علي، فعجز الكل عن لطفي وتركوا حظي، فإن كنت يا شبلي تعرف مكاني فقد دعاني ترجماني. فقلت لها: يا ريحانة قرارة مكانك عندي رحمك رحمانك، فقال: فصرخت صرخة واتبعتها بزفرة فحركتها فإذا هي ميتة، فأسندتها إلى صخرة وصعدت في فلاة من الأرض لعلي أرى من يعينني على تجهيزها فلم أرى أحداً فعدت إلى الأثر فلم أجد لها خبراً، لكن وجدت نوراً يشعشع وبروقاً تلمع، فقلت: يا ليت شعري ما فعل بهذه الأمة. فنوديت: يا شبلي من أخذناه منه في حال حياته غيبناه عن الأعين في مماته. قال الشبلي: فلما كانت الليلة الآتية رأيتها في المنام فقلت: يا ريحانة ما فعل الله بك؟ فقالت: يا بطال، زال العنا ونلنا المنى، وتحققنا آمالنا وبلغنا قصدنا وآمالنا وإن كنت تريد العز الكلي فمت مثلي.

وكل ذلك من نتائج الاشتياق. وهذا وإن العارفين مختلفون في أحوالهم، فمنهم غائب في المحبة تراه كالجبل الراسخ لا تهزهزه الرياح، ولا تخمره أقداح، كلما ازداد سكراً ازداد صحواً. قال بعضهم:

شربت الحب كأسا بعد كأس ☆ ما نفد الشراب وما رويت

وقال بعضهم:

فما ازددت شربا إلا وازددت صحوا ☆ فوا عجبي ما هذا الشراب

كأنه لم يصل إلى فؤادي ☆ وأنا عنه في حجاب

ولو كان قَدْرَ مَاءِ البحر طرا ☆ لما اكتسبت به اضطرابُ

ومنهم من تراه كأنه يسمع خطابا من وراء حجاب مع أنه في وصول واقتراب.

ولهذا قال شيخ مشايخ هذه الطائفة «أبو الحسن الشاذلي» - رضي الله عنه - ونفعنا بأسراره آمين:

ومنا من يكون مجنونا فيها ☆ سليب العقل يرمى بالحجارة

ومنا من يكون عريانا فيها ☆ غائبا عن البرودة والحرارة

ومنا من يهيم على سماع ☆ ببندير وعود ونقر طارا

ومنا من يكون خفيا فيها ☆ في خفاء لا يزور ولا يزارا

وقد بَيَّنَ أنواع الشوق والاشتياق بقوله: «ومنا... الخ ما قال». وقد قيل: إن العشق فنون، والجنون فَنٌّ من فنونه. قال ﷺ: (**أذكروا الله حتى يقولوا مجنون**). وقد قلت في هذا المعنى:

إني بين من لا يدري ما الهوى ☆ لو أصابني قالوا جن البلي

إن جننت بحب الذي نهوى ☆ لا أبرأ الله جسمي من الضني

ثم قال رضي الله عنه:

إِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَسْلُبَكَ اللَّهُ لَذَّةَ مُنَـاجَـاتِـهِ

الميلان هو الركون إلى الشيء ولو قليلا، ولكن الحق تبارك وتعالى يثبت العارف ويحفظه من الركون إلى غيره، كما ثبت محبوبه الأول ﷺ. **(ولولا أن ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْتَّ تركن إليهم شيئا قليلا)** «الإسراء: 84».

وقد تقدم أن الحق تبارك وتعالى أشد غيرة على قلب العارف من أن يتركه لغيره، وكيف يكون ذلك وقد خلقه لأجله فلا يرضاه أن يميل لغيره، وبمجرد وقوع الميلان لذلك القلب أو الركون، يسلبه الحق عز وجل حلاوة المناجاة، وإن دام على تلك الحالة يسلبه المشاهدة نفسها. وكل ذلك يقع للعارف قبل التمكن، وأما بعده فلا يطرأ عليه في الغالب. لقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وإن خطرت لي في سواك إرادة ☆ على خاطري سهواً قضيت بردتي

فانظر - بارك الله فيك - إلى هذا المقام الشريف واجهد نفسك لكي يكون لك منه نصيب **(ولا تنس نصيبك من الدنيا)** «القصص: 77» أي فلا تنس نصيبك من هذا الشأن ما دمت في قيد الحياة، وإن كان لك نصيب منه فاحذر أن تميل إلى غيره. وقد قلت في هذا المعنى:

أذكـــره ذكـــراً جميـــل ☆ واحـــذر نفســـك تميـــل
فمـــا ســـواه تعطيـــل ☆ عـــن الوصـــل مـــانع

وبمجرد ما يقع أدنى ميلان، فإنه يسلبك حلاوة المناجاة. فحافظ

عليها أيها المريد فإنها أشرف المقامات، وكيف لا وهي محادثة الحبيب مع الحبيب في خلوة القرب والمشاهدة، وفي ذلك قلت :

حبيب ومحبوب وساعة خلوة ☆ طالب ومطلوب والغير ممنوع

هكذا إذا زالت الأستار، ولاحت الأنوار، وباحت الأسرار، وحَدَا حادي الأرواح، إن السر قد باح. هذا الحبيب قد خلا بحبيبه فلا سبيل لنا في الوصول إليه، فيا له من خطاب ويا له من جواب. لا أحرمنا الله من سماعه.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ رُزِقَ حَلَاوَةَ المُنَاجَاةِ زَالَ عَنْهُ النَّومُ

المنام ملازم للهيكل الجسماني لا محالة، ولا يمكن زواله البتة. نعم يمكن ترك الغالب منه بوجود الرياضة خصوصاً إذا ذاق المريد حلاوة المناجاة. وكلام المصنف عائد على الروح لاستحالة نومها كاستحالة عدمها في الآتي، فقد تنزه عن النوم والغفلة في الغالب خصوصاً بعد تصفيتها وخروجها من الكثافة إلى عالم اللطافة، وخصوصاً في الحضرة الأحدية وتجريدها من رق الآثار إلى عالم الأسرار، فلا جرم تسمع خطاب الحق كما قيل:

روحي ترقت للمعالي ☆ ناجاها الحق سمعت نداه
بلا صوت ولا كيف فلبت ☆ حبيبا قد تجلى بسناه

فلهذا يزول عنها النوم لافتراقها مع هيكلها، ومع وجوده واستقرارها فيه تكون ملازمة له من وجهة، ومفارقة له من وجوه، ويكون نومها

بمعنى الكمون، كما يكون لها كمون في اليقظة أيضا عن عالمها العلوي باسترجاع شعاعها إلى البدن، وهذا يعد لها مناما مع يقظتها. وقد يكون لها كمون أيضا في المنام، وهو كناية عن استرجاع شعاعها إلى عالم البطون، أو تقول إلى غيب الغيب، فتغفل عن الجسد وعن حركاته وعن جميع الشؤون الملازمة له، لما يغمرها من مقتضى البطون فتكون كائنة بائنة، أي كائنة في البدن من حيث وجودها فيه، بائنة من حيث عدم التفاتها إليه.

ثم أعلم أن الروح إذا جالت في الحضرة الواحدية المعبر عنها بظهور الأسماء والصفات، لم تغفل عن البدن بل تراها تدبر في حركاته وسكانته كأنها لم تفارقه مع أنها في حالة غير معقولة في ظاهر الجسم، وتكون تذوق حلاوة المناجاة، إلا أنها تسمع كلام الحق من وراء حجاب الخلق، أي بحروف وأصوات لكونها لم تفارق الهيكل الجسماني حتى تسمع الكلام المنزه عن الحروف والأصوات، ولا يمكن أن يسمع إلا ما هو موافق لشكله، ومن هنا كان القرآن العظيم بحروف وأصوات، مع أن معناه منزه عن ذلك. وفي هذا المقام يكون العارف يسمع كلام الحق يلوح على ألسنة الخلق، ولذا قال بعضهم: « ألسنة الخلق أقلام الحق » لأن الله تبارك وتعالى لا يكلم عبده إلا وحيا أو من وراء حجاب الخلق، أي على ألسنتهم. ولا فرق بأن يسمع العارف كلام الحق على لسان ملك أو على لسان بشر، فكل من خلق الله. وأما إذا كان وحيا يكون للروح حالة تجردها، أي خروجها عن الهيكل رأسا في الحضرة الأحدية، فتسمع حينئذ خطابا من حضرة التنزيه بلا حرف ولا صوت، **(ليس كمثله شيء)** « الشورى : 11 » ولا مماثل لشيء وهو المعبر عنه بالمناجاة. ويكون

استماعها لهذا الخطاب بجميعها لفقد الجوارح الملازمة للبدن وغيبتها عنها، ولو لم تفارق لم تسمع هذا الخطاب المنزه عن الجهات، لأن الروح في نفسها كلها سمع وبصر، أي كلها إدراك، لأنها اللطيفة الإلاهية، والمانع لها عن ذلك الهيكل الترابي والحكمة تساعده. قال تعالى: (**والجبال أرساها**) « النازعات : 2 » حتى صار لا يظهر منها إلا القدر القليل المحتاج إليه بواسطة الحواس الخمس، أي أحداق وصماخ وما أشبه ذلك، وإذا رجعت لعادتها يصح لها أن تسمع ذلك الخطاب الرفيع الذي سبق لها في عالمها الأصلي يوم قال لها ولأجناسها على اختلاف طبقاتهم (**ألست بربكم قالوا بلى**) « الأعراف : 172 » فكان استماعها حينئذ لذلك الخطاب بكلها. وإذا صارت حينئذ كما كانت عليه ورجعت لعادتها وتجردت من شكلها، فلا جرم تسمع ما سمعته في القديم خطابا وأي خطاب من (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) « الشورى : 11 ». وقد قيل في هذا المعنى:

كلك سمع إذا ناجاك ☆ حبيب قد تجلى بسناه

وقيل أيضا:

وإن حدثتني فكلي مسامع ☆ وإن حدثتها فكلي ألسن تتلوا

وحاصل الأمر أن العارف إذا وصل إلى هذا المقام تصير جوارحه وصفاته تنوب عن بعضها بعضا، وذلك خارج عن دائرة العقل، وهو من مدهشات الأمور. قال سلطان العاشقين:

فعيني ناجت واللسان مشاهد ☆ وينطق مني السمع واليد أصغت
وسمعي عين تجتلي كل ما بدا ☆ وعيني سمع إن شدا القوم تنصت

ومني عن أيـد لسـاني يـد كما ☆ يدي لي لسان في خطابي وخطبتي
كذاك يدي عين ترى كل ما بدا ☆ وعيني يد مبسوطة عنـد بسطتي
وسمعي لسـان في مخـاطبتي كـذا ☆ لسـاني في إصغائـه سمع منصـت
وللشم أحكام اطراد القياس في اتـ ☆ ـحـاد صفـاتي أو بعكس القضيـة
وما فيَّ عضو خص من دون غيره ☆ بتعيين وصف مثل عين البصيرة

وعند وصول العارف لهذا المقام تصير الروح مالكة للشبح أي غير محصورة فيه، فيمكن لها استماع خطاب الحق، وإذا سمعته فلا يحلو لها خطاب بعده. ولا جرم يحرم عليها المنام، لا أحرمنا الله من هذا الخطاب، وألهمنا الجواب، وهو على ما يشاء قدير.

ثم قال رضي الله عنه:

جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ أَهْلِ الدُّنْيَا مَحَلاًّ لِلْغَفْلَةِ وَالوَسْوَاسِ، وَجَعَلَ قُلُوبَ العَارِفِينَ مَحَلاًّ لِلذِّكْرِ وَالإِسْتِئْنَاسِ

تقدم أن القلب له وجهة واحدة، وإذا توجه لشيء أدبر عن شيء. فقلوب أهل الدنيا جعلت للغفلة والوسواس، كما جعلت قلوب العارفين بالله محلا للذكر والاستئناس، لما أودع فيهم من الاسرار القدسية والحكم الإلهية، حتى صار القلب ينبوع المعارف ومنهل اللطائف، فهذا هو القلب، وما سواه قالب، لكونه لم يستعمل فيما خلق لأجله، لهم قلوب لا يعقلون بها، لهيت قلوبهم حيث أهملوها ولم يستعملوها، وصارت متروكة نسيا منسيا، خرابا أحاطت بها الوساوس واستولت عليها الغفلات، وانكسف نورها وهدمت صورها،

وصارت لا تعد مع القلوب الانسانية، إنما تعد مع القلوب البهيمية **(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل)** « الفرقان : 44 » قلب العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره، فلا يستأنس إلا بالله، فهو مع الله حيث كان، فيسمع منه ويبلغ عنه ويتكلم به.

كان يقول بعض العارفين - رحمة الله عليه - : « قال لي قلبي عن ربي ». وذلك لصفائه، لأن القلب إذا كان منورا فارغا من وجود الغير لا تبقى له واسطة بينه وبين ربه، فيحدثه في سره حديثا تعجز عن إدراكه العقول. ومن هنا قول الشيخ « محي الدين » رحمة الله عليه: « حدثني ربي بارتفاع الوسائط ». وإذا كان القلب من هذا القبيل فلا جرم يكون ينبوعا للحكمة بسبب مجاورته للحكيم، إن لم نقل من بيوته، وقد قلت في هذا المعنى:

فمن بيوت الله قلب منور ☆ فارغ من الأغيار بالله مؤنس
وإن كان قلب العبد غير منور ☆ فهو بيت الشيطان بالغفلة تعيس

ثم قال رضي الله عنه:

وَطلَبُ الإرَادَةِ قَبْلَ تَصْحِيحِ التَّوْبَةِ غَفْلَةٌ

قد تقدم في كلام المصنف ما يدل على الأوصاف المتعلقة بالمريد الصادق، فلهذا اعقبها ببيان تصحيح الارادة نفسها لكي تكون على أساس متين، فذكر على وجه التنبيه أن طلبها قبل تصحيح التوبة من بقية الغفلة. والعمل الصادر عن الغفلة معدوم النتيجة، وعليه يطلب من مريد الدخول على الله قبل توجهه أن يعقد عقدة مع ربه،

وأن يقلع مما هو عليه، وأن يجزم بعدم العود إليه، لأن التوبة شرط في التوجه، والشرط مقدم على المشروط، ولا تحصل الإرادة للمريد إلا بوجود التوبة مع توفر شروطها. قلت:

فمن كان مريدا فهذي إرادة ☆ يجعلها نصب عينيه ثم يتخلى
من كل وصف مذموم يفهم من نفسه ☆ وبعد تخليه بالضد يتحلى
يكون عبدا لله في كل حالة ☆ آتيابفرضه ومعتبر النفلا
حتى يكون الحق سمعه وبصره ☆ لسانا ونطقا واليدين كذا الرجلا
وليمت قبل أن يموت ويحي بربه ☆ وما كان بعد الموت ذاك هو النقلا
وليحاسب نفسه بنفسه قبلها ☆ وليكن نائب الحق بنفسه أولى

ولا ينبغي للمريد أن يتقدم لشيء حتى يؤسس ما قبله، واليقظان لا يخفى ذلك عليه لقول «الشريشي» في رائيته:

ومن بعده الحال الذي هو يقظة ☆ وورد يرد الكسر في غاية الجبر
تشاهد انحاء النجاة فتنتحي ☆ على ثقة ما ليس بالمسلك الوعر
فيبدو مقام التوب وهو ممهد ☆ فدونك واقرع بابه قرع مضطر

ولا تستبعد يا أخي مقام الإرادة ولا الولاية نفسها، فما بينك وبينها إلا مجرد التوبة، فإذا أنت محبوب عند الله، تجد ذلك في كتاب الله (**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**) «البقرة: 222»

فتطهر - بارك الله فيك - من جنابة الغفلة، ومن رجس العصيان (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**) «الاحزاب: 23» والمؤمنون هم عامة أهل البيت، وأما خاصتهم فلا يخفون على البصير. فانهض - بارك الله فيك - في طلب الله، فإذا صدقت في نهوضك لم يمر عليك زمان قليل إلا وأنت من أولياء الله، خاصة إذا

رجعت له بقلب حزين فكم من منقطع وصل من حينه، والله عز وجل أشفق على العبد من نفسه.

قال بعضهم: رأيت جارية تغني بالطار، فمرت يوما بقاريء يقرأ **(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)** «التوبة: 49» فرمت الطار من يدها وصرخت صرخة غشي بها عليها، فلما أفاقت كسرت الطار وأخذت في العبادة والاجتهاد حتى شاع ذكرها، فدخلت عليها يوما فكلمتها في الرفق بنفسها، فبكت وقالت: ليت شعري أهل النار من قبورهم كيف يخرجون، وعلى الصراط كيف يعبرون، ومن أهوال يوم القيامة كيف يخلصون، وللحميم كيف يجرعون، ولتوبيخ المولى كيف يسمعون. ثم سقطت إلى الأرض مغشية، فلما أفاقت قالت: مولاي وسيدي عصيتك وأنا غضة رطبة، وأطعتك وأنا يابسة خشبة، أتراك تقبلني آه! كم من فضيحة تكشفها القيامة غدا. ثم صرخت وبكت، فلم يبق أحد في المجلس إلا غشي عليه من شدة ما صنعت بنفسها، ثم أنشدت تقول:

أما والذي قد قدر البعد بيننا ☆ وعذبني بالشوق وهو شديد
وخصكم بالصبر دوني وخصني ☆ بحزن عليكم يبتدي ويعيد
وصبرني مهما شممت نسيمكم ☆ أشد لقلبي راحتي وأميد
لقد ذاب قلبي من دموع عليكم ☆ على أنه في النائبات جليد
فيا ليت شعري هل عَلَيَّ ما لقيته ☆ وكابدت من جور الفراق مزيد
لئن عاد ذاك الوصل أو عاد بعضه ☆ وملتم إليه إنني لسعيد
على أنها الأقدار قد تبعد الفتى ☆ قريبا وقد تدنيه وهو بعيد

وقد علمت أخي أن أبواب التوبة لم تغلق إلا على من غلقها بيده، فاطرقها بارك الله فيك بأنامل الندم، وارجع على نفسك، إلى متى

هذا الانهماك؟ كم من واعظ نصحك. ومن النصائح ما قيل:

إلى متى أنت باللذات مشغول ☆ وأنت على كل ما قدمت مسؤول
في كل يوم ترجو أن تتوب غدا ☆ وعقد عزمك بالتسويف محلول
أما يرى لك فيما سر من عمل ☆ يوما نشاط وعما ساء تكسيل
فجرد العزم إن الموت صارمة ☆ مجرد بيد الآمال مسلول
واقطع حبال أمانيك التي اتصلت ☆ فإنما حبلها بالزور موصول
انفقت عمرك في مال تحصله ☆ وما على اثم منه محصول
ورحت تعمر دارا لا بقاء لها ☆ وأنت عنها وان عمرت منقول
جاء النذير فشمر للمسير بلا ☆ مهل فليس مع الانذار تمهيل

وإياك أن تفهم أيها المريد أن التوبة مطلوبة من المنهمك في المعاصي دون غيره، نعم تلك توبة العامة. وهنالك توبة تطلب من المريد حالة توجهه إلى الله على أي حالة كان، ولو لم يعص الله عز وجل، فوصفه لنفسه بعدم العصيان هو العصيان نفسه، فتتعين منه التوبة. وكلما رأيت لنفسك أهلية للوقوف مع الله فأنت بعيد عنه، لم تصح لك الارادة حتى لا يبقى لك أدنى شيء تستند إليه.

ذكر الشيخ «أبو طالب» - رضي الله عنه - تفسير بعض العارفين في قوله عز وجل: **(أمن يجب المضطر إذا دعاه)** «النمل: 62» المضطر هو الذي يقف بين يدي مولاه ويرفع يديه بالمسألة إليه، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا. فيقول: هب لي مولاي بلا شيء. فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإياس.

وعن الشيخ «أبي الحسن الشاذلي» - رضي الله عنه -: «إذا

أردت الدعاء فقدم إساءتك بين يديك، وقل: يا رب بلا شيء، تجد الإجابة طوع يديك».

فإذا قرعت بابه على هذا الوصف يفتح لك الأبواب، ولا يكون بينك وبينه حجاب، ويقبل معذرتك ويقيل عثرتك.

وقال «ذو النون المصري»: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الحق عز وجل: (**حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم**) «التوبة: 118».

ومنشأ هذا كله اليقظة، كما أن طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة من الغفلة واجب، وعليه فإن التوبة ليست هي مطلوبة إلاَّ في حق من أراد الانخراط في سلك هذه الطائفة المباركة، بل هي واجبة على كل فرد، وإضافتها للمريد من باب إضافة الصفة للموصوف، إذ لا يكون مريدا إلا إذا وجدت فيه شروطها، وإلا فهو معرض كغيره، فكان أساس الارادة وجود التوبة:

(**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار**) «التوبة 109».



الفصل الرابع عشر

في ظهور التوحيد وإبطال التقييد

قال رضي الله عنه:

إِذَ ظَهَرَ الحَقُّ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُهُ

الحق هو الله لا شيء معه، إذا ظهر على العارف بذاته وعموم صفاته ظهوراً يوجب الاضمحلال والتلاشي، فلم يبق في نظره غيره **(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا)** « الاعراف : 143 » ولهذا يقال: إذا تلاقى الحادث والقديم تلاشى الحادث وبقي القديم **(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)** «الانبياء : 58» وقد يظهر الله تبارك وتعالى على العارف بكيفية مجهولة في اللفظ معقولة في المعنى، فيطرأ عليه الفناء والاضمحلال والتلاشي، وهو المسمى عندهم بالسحق والمحق.

صارت جبالي دكا ☆ من هيبة المتجلي
ولاح سر خفي ☆ يدريه من كان مثلي

وقال أخر:

ظهرت في الكل ليس تخفى ☆ وأنت أخفى من الخفاء
في كل شيء أراك حقا ☆ بلا جدال ولا امتراء

الحق سبحانه وتعالى لا يثبت معه سواه، لانه مجرد وهم لا وجود له في الحقيقة، إنما هو عند العارفين كعنقاء مغرب تسمع ولا ترى،

ولهذا قال بعضهم: «لو كلفت أن أرى ما سوى الله لم أستطع، وإن كان ولابد تراه كهباء في هواء، فإذا فتشته لم تجده شيئا».

قال شيخنا «البوزيدي» - رضي الله عنه -: كنا في تلاوة القرآن العظيم جماعة بحضرة أستاذنا سيدي «محمد بن قدور» ولما وصلنا قوله تعالى: **(هو الاول والآخر والظاهر والباطن)** «الحديد: 3» قام إنسان من وسطنا وقال: العين التي ترى ما سوى الله حقها أن تعمى، فعند ذلك شرع الفقراء في الذكر، وتركوا التلاوة. ولبعضهم:

فأنت للعين عين عند نظرتها ☆ تسمو إليك كما تسمو إلى النظر
وأنت للقلب قلب في تقلبه ☆ يعلو إليك لدى العلياء والفكر
وأنت للوجد وجد في توجده ☆ بسطوة القهر لا تبق ولا تذر

وقال غيره:

لقد ظهرت ولا تخفى على أحد ☆ إلا على أكمه لا يبصر القمرا
لكن بطنت بما ظهرت محتجبا ☆ فكيف يعرف من بالعزة استترا

وقال غيره:

فالعارفون فنوا ولم يشاهدوا ☆ شيئا سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ☆ في الحال والماضي والاستقبال

قال وقوله الحق: **(كل شيء هالك إلا وجهه)** «القصص: 88» فهلاك الغير يشمل الأزمنة الثلاثة: حالا وماضيا واستقبالا. فلهذا لما يظهر الحق تبارك وتعالى على العارف لم يجد غيره كشفا وعيانا لعدم وجود الغير في الحقيقة.

ثم أعلم أن ظهور الحق ليس هو مسبوقا بخفاء، وكيف يكون ذلك وهو الباطن والظاهر، فمعنى الظهور المتعاطى عند القوم يعود

على شعور العارف به. ولهذا يقال: وصولك إلى الله، وصولك إلى العلم به. وإلا متى غاب حتى يظهر؟ وأين ذهب حتى يحضر؟.

قيل في الحكم العطائية: «كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر». وقد أشبع الكلام - رضي الله عنه - في أول كتابه فراجعه إن شئت. وهذا المعنى هو محط رحال العارفين، قد صنفوا فيه تصانيف، ودونوا فيه دواوين، ولم يستوفوا الكلام في ذلك، لو كان مدادهم البحر المسجور لنفد البحر قبل أن تنفد كلمة الظهور.

ثم قال رضي الله عنه:

كُلُّ حَقِيقَةٍ لاَ تَمْحُو أَثَرَ الْعَبْدِ وَرُسُومَهُ فَلَيْسَتْ بِحَقِيقَةٍ

ذكر أن الحقيقة التي لم تمحو أثر العبد ورسومه حتى لا يبقى له أدنى شيء من نسبته، كما تمحي له وجود الغير من أصله، فليست بحقيقة، فصاحبها ما دام لم تمحقه حتى تتركه لا شيء ذوقا وحالا، فهو غير محقق. وأما الحقيقة الموجودة على ظاهر اللسان فلا تعتبر، إنما المعتبر عند القوم الحال الذي يطرأ على المريد حالة تجلي الألوهية على قلبه فتمحق في نظره كل الموجودات ولم يبق له إلا الحقيقة في نظره، فإن صح له ذلك فله أن أن يقول كمن قال:

كيف تخفى الحقيقة ☆ وشمسها مشعشع
انما يراها ☆ من بصره متسع

يرى ويسمع بها ☆ وفي الكل مجتمع
من فرق ما يراها ☆ ضرير ما فيه مطمع
يفنى عن الأكوان ☆ لا سميع لا مسمع
يرى الكون إلا هو ☆ ما يبق له منازع
أين الخلق أين الخالق ☆ يا من ترى وتسمع
حقق ما تجد شيئا ☆ إلا الواحد المطلع

فإذا بلغ المريد ما ذكرناه بأن صار حقا بلا خلق، وجمعا بلا فرق، وغاب عن وجوده وامتحق في شهوده، وصار كأن لم يكن شيئا مذكورا، فلم يبق حينئذ إلا الله. وقد يتكلم الولي في هذا المقام على لسان الألوهية وفي وحدة الوجود المطلق، فيتدلى له من قدس الإله فياض يقتضي منه أن يشهد ذاته عين ذات الحق لمحقه فيها واستهلاكه، ويصرح في هذا الميدان بقوله: « سبحاني، لا إله إلا أنا وحدي » وكقوله: « جلت عظمتي، وتقدس كبريائي ». وهو في ذلك معذور، لأن العقل الذي يميز به الشواهد والفوائد ويعطيه تفصيل المراتب بمعرفة كل ما يستحق من الصفات غاب عنه، وامتحق وتلاشى واضمحل. وعند فقد هذا العقل وذهابه، وفياض ذلك السر القدسي عليه، تكلم بالكلام الذي وقع منه، خلفه الله فيه نيابة عنه، فهو يتكلم بلسان الحق لا بلسانه، ويعرب عن ذات الحق لا عن ذاته، ومن هذا الميدان قول « أبي يزيد البسطامي » رضي الله عنه: « سبحاني ما أعظم شاني ». وقول « الحلاج »: « أنا الحق الذي لا يغير ذاته مر الزمان. وما في الجبة إلا الله ». وقول بعضهم: «فالأرض أرضي والسماء سمائي» وكقول « الششتري » - رضي الله عنه -:

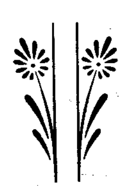
أنا شيء عجيب لمن رآني ☆ أنا المحب والحبيب ما ثم ثاني

وأقوال « ابن الفارض » في مثل هذا كثيرة، وهذا ما يقتضيه الفناء والاستغراق في ذات الحق. وهذا الأمر خارج عن دائرة العقل، يدرك بالذوق وصفاء الأحوال، فلا يعلم حقيقته إلا من ذاقه.

قال « الشرنوبي »: إن المشار إليه بـ « أنا » عند المحققين من أهل الله هو الوجود الكلي الساري في كل شيء، وهو وجود الحق عز وجل لا الوجود الجزئي. فليس هناك حلول ولا اتحاد، تعالى الله عن ذلك. وإذا وقع لفظ الإتحاد في كلام الصوفية، فإنما يريدون به هذا المعنى كما قال السيد « الشريف »: الاتحاد هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل موجود به، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه، لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به فإنه محال. فهذا معنى الفناء في الله. فمن حصل عليه فقد حصل على الحظ الأوفر من الله. لما قيل:

وبعد الفنا في الله كن كيف ما تشاء ☆ فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

فهذا ما يقتضيه الفناء والاضمحلال، ومن لم يحصل على هذا المعنى فليس له من شراب القوم إلا مجرد السمع.



ثم قال رضي الله عنه:

اَلْجَمْعُ مَا أَسْقَطَ تَفْرِقَتَكَ، وَمَحَى إِشَارَتَكَ

كم تداول الناس هذه الألفاظ والكل جاهل معنى المراد ما للقوم منها. القوم يصرحون بالجمع وعدم التفريق، والناس لا يدرون ما الجمع وما التحقيق إلا من حيث الإيمان، فلهم من الجزم بقدر ما لهم من الوهم في إدراك حقيقته، ولا يمكن ذلك بدون الوصول إلى الله، وكيف يمكن والحال جدير، فهو يدق عن مدارك العقول السليمة فضلا عن غيرها. وكيف لا، والمصنف يقول: « الجمع ما أسقط تفرقتك ومحى إشارتك ». نعم، هذا قول في اللسان مقبول، لكن من حيث الادراك مجهول إلا عند أهله فهو عندهم من لوازم الوصول مع عجزهم عن الإفصاح بما فيه. وكل ما أشاروا به فهو تمو يه ليس فيه تشبيه بالواقع. وكيف يمكن لهم الإفصاح عما لا يمكنه افتضاح. وهل يقدر العبد أن يفصح عن كنه الذات وغوامض الصفات. بل ذلك من المستحيلات، لأن قوالب لألفاظ لن تف له بالمراد، وكلما يريد أحدهم الإفصاح إلا ويزداد في نطقه عجمة. فلو كان الخلق في استطاعتهم أن يفصحوا عما هنالك لما أطلعهم الحق عز وجل على مكنونات أسراره. فمنزلة العارف مع الحق بمنزلة الأبكم معك إذا أردت أن تطلعه على بعض أسرارك فلك أن تريه فقد يشهد ما هنالك ولا يقدر أن يفصح بما فيه لوجود الخرص.

الحق عز وجل لم يجعل ألفاظا في الكلام تساعد العارف إذا أراد أن يخبر على ما حصل عليه. فلهذا كلما تكلم بكلمة يريد بها التنزيه، فيضعها في قوالب الألفاظ يظهر فيها معنى التشبيه أو

الحلول والاتحاد وما أشبه ذلك من عقائد ذوي الضلال، فتختلف حينئذ فيه الأقوال وتتباين فيه العقائد. فمن الناس من يقول فيه زنديق، ومنهم من يقول محقق، ومنهم من يقول مغلوب، ومنهم من يقول مسلوب وهكذا. والكل لم يصادف ما للعارف إنما هو من وراء ذلك. ولبعضهم - رضي الله عنه -:

تخالفت الأقوال فينا تباينا ☆ برجم ظنون بيننا ما له أصل
فشنع قوم بالوصال ولم تصل ☆ وأرجف بالسلوان قوم ولم أسلُ
فما صدق التشنيع عنها لشقوتي ☆ وقد كذبت عني الاراجيف والنقل

نعم، الجمع يسقط التفريقات ويعطل الإشارات، لما قيل: ليس العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، انما العارف من لا إشارة له لغيبته في وجوده، وانطوائه في شهوده. وكيف تدرك هذا المعنى بدون ذوق. فلا سبيل لك أخي، إلا إذا شهدت ببصرك كيف ينطبق الوجود وتنهدم السدود **(إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت)** «الانفطار: 2» **(إذا زلزلت الأرض زلزالها)** «الزلزلة: 1» **(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها)** «النمل: 34».

ولأبي العباس المرسي في هذا المعنى:

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت ☆ أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها ☆ حين التزلزل والرجال رجال



ثم قال رضي الله عنه:

وَٱلْوُصُولُ إِسْتِغْرَاقُ أَوْصَافِكَ وَتَلَاشِي نُعُوتِكَ

لا يخفى على العاقل أن وجود العبد هو مجرد الوهم، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فلهذا إذا ظهر الحق عليه بذاته وعموم صفاته تلاشت نعوته، وامتحت نسبته (**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**) «الأنبياء: 18» وفي الحكم العطائية: «إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته». وعليه يقوم الحق بدله فهو وليه ومتولاه. (**الله ولي الَّذِينَ ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**) «البقرة: 257» فيبقى العبد حينئذ ولا عبد. وأنشد بعضهم:

فتفنى الحقيقة عن ذاتها ☆ ويخفى الفنا عن عيان الحقيقة
وتبق بلا أنت فردا به ☆ أنيسا تعوم بحارا عميقة
وتقدم من غيبها ظاهرا ☆ بكل إشارة ذوق دقيقة
تميت الحجاب وتحي اللباب وهذا نهاية علم الطريقة

وقال غيره:

بقائي فنائي في بقاء الهوى ☆ فيا ويح قلبي في فنائي بقاؤه
وجودي فنائي في فنائي فالذي ☆ مع الأنس يأتيني هنيئا بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سر لسره ☆ أتاك المنى يوم أتاك فناؤه

وقيل أيضا:

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد ☆ وأفنيتني عني فعدت مجددا
وكل بكل الكل وصل محقق ☆ حقائق حق في دوام تخلدا
تفرد أمري فانفردت بغربتي ☆ فصرت غريبا في البرية أوحد

ثم قال رضي الله عنه:

الْبَصِيـرَةُ تَحْقِيـقُ الإنْتِفَـاعِ

البصيرة هي سويداء القلب، أو تقول: هي اللطيفة النورانية، أو تقول النكتة الربانية أو الوديعة الإلهية، وبها تدرك حقائق الأشياء على ما هي عليه في الواقع. ما من شيء إلا وله حقيقة، ولا تدرك تلك الحقيقة إلا بالبصيرة. وأما البصر لا يدرك حقيقة الشيء إلا إذا صار بصيرة، وذلك كبصره ﷺ. لما قيل: إنه رأى الحق بعيني رأسه. فالرؤيا الحقيقية كانت للبصيرة لما تقدم أنها متعلقة بحقائق الأشياء، فإنها لا ترى المجاز ألبتة، المجاز للبصر.

ومن هذه الحيثية كانت البصيرة لا ترى الخلق، لأن الخلق لا حقيقة لهم في الواقع، فكانت رؤيتهم موكولة للبصر، فإنه يقع عليهم من حيث المجاز، ولا يقع على وجود الحق، لأنه وجود حقيقي راجع للبصيرة. فهي التي تحقق الانتفاع، حتى إذا انطوى البصر في البصيرة يصير الإنسان كله بصيرة. وقد وقع لأكثر العارفين مثل ذلك حتى ادعى بعضهم أنه رأى الحق بعيني رأسه.

يروى أن رجلا ادعى رؤية الحق بعيني رأسه في زمان مولانا «عبد القادر الجيلاني» - رضي الله عنه - فأوتي به إلى الشيخ فسأله عن ذلك وقال له: أَحَقٌّ ما يقول هؤلاء؟ فقال: نعم. فانفرد به الشيخ وتكلم معه في ذلك فعندئذ فاق من سكرته. فخرج الشيخ للجموع قائلا: إن الرجل انعكس بصره في بصيرته فصار كله بصيرة فرآى من (**ليس كمثله شيء**) فظن أنه رآه بعيني رأسه، فهو معذور في ذلك. قال الله عز وجل: (**مرج البحرين يلتقيان بينهما**

برزخ لا يبغيان) « الرحمان : 19 » والله يبعث بمشيئته على يد لطفه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده، فتأخذ منها ما يأخذ المصور من الصورة، ومن وراء ذلك رداء الكبرياء الذي لا سبيل إلى خرقه، وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرا في هذه الواقعة فأطربه سماع هذا الكلام، وأدهشه حسن الإفصاح عن حال ذلك الرجل، وقام بعض أفراده ومزقوا ثيابه، وخرج إلى الصحراء عريانا.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

لا نراه يـــدنو مني حتى كـــأنني ☆ أراه بعيني رأسي جهرا لا تـــوهما

وقـال غيـره:

لقـد ظهر عني ظهـورا كفى بـه ☆ حتى كـأن العين رأتـــه بعينـــه

ثم اعلم، أن البصر هو فرع البصيرة، فيكون على هذا أن البصيرة لها وجهان: وجه للخلق ووجه للحق، أو نقول: وجه للتشبيه ووجه للتنزيه، أو نقول: باطنها للقدم وظاهرها للحدوث، أو نقول: ظاهرها للكثيف وباطنها للطيف. ولما كان الحق هو الظاهر والباطن فلا يَتَيَسَّرُ إدراك العارف رؤية الحق من حيث الباطن ووتتعذر عليه رؤيته من حيث الظاهر إلا إذا انعكس بصره في بصيرته، وصار كله بصيرة، فيدركه حينئذ من حيث ظهور البصيرة في البصر. ولولا البصيرة لا تدركه الأبصار وهو يدركها، وكيف تدركه الأبصار وهو أقرب إليها من نفسها ؟ إلا إذا صار الحق هو عينه التي يرى بها، فيكون حينئذ هو البصير نفسه بنفسه. كما قيل في هذا المعنى:

أعارته طرفـــا رآهـــا بـــه ☆ فكـــان البصيـــر لهـــا طرفها

برزخ لا يبغيان) « الرحمان : 19 » والله يبعث بمشيئته على يد لطفه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده، فتأخذ منها ما يأخذ المصور من الصورة، ومن وراء ذلك رداء الكبرياء الذي لا سبيل إلى خرقه، وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرا في هذه الواقعة فأطربه سماع هذا الكلام، وأدهشه حسن الإفصاح عن حال ذلك الرجل، وقام بعض أفراده ومزقوا ثيابه، وخرج إلى الصحراء عريانا.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

لا نراه يدنو مني حتى كأنني ☆ أراه بعيني رأسي جهرا لا توهما

وقال غيره:

لقد ظهر عني ظهورا كفى به ☆ حتى كأن العين رأته بعينه

ثم اعلم، أن البصر هو فرع البصيرة، فيكون على هذا أن البصيرة لها وجهان: وجه للخلق ووجه للحق، أو نقول: وجه للتشبيه ووجه للتنزيه، أو نقول: باطنها للقدم وظاهرها للحدوث، أو نقول: ظاهرها للكثيف وباطنها للطيف. ولما كان الحق هو الظاهر والباطن فلا يَتَيَسَّرُ إدراك العارف رؤية الحق من حيث الباطن وتتعذر عليه رؤيته من حيث الظاهر إلا إذا انعكس بصره في بصيرته، وصار كله بصيرة، فيدركه حينئذ من حيث ظهور البصيرة في البصر. ولولا البصيرة لا تدركه الأبصار وهو يدركها، وكيف تدركه الأبصار وهو أقرب إليها من نفسها؟ إلا إذا صار الحق هو عينه التي يرى بها، فيكون حينئذ هو البصير نفسه بنفسه. كما قيل في هذا المعنى:

أعارته طرفا رآها به ☆ فكان البصير لها طرفها

ولسيدي عبد الغني النابلسي:

لا يراهـــا غيرهـــا من أحـــد ☆ كل طــرف بـــالسوى منجـــرح
هـــذه لا هـــذه أنـــت ولا ☆ أنت فـاعرف عين هـذا الشَّبَـح
هـــو عين الكل لا كل سَـــوِيءٍ عينـــه عين العطـــا والمنـــح

ثم قال رضي الله عنه:

الْحَقُّ تَعَالَى لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا إِذَا مَاتَ، وَمَنْ لَمْ يَمُتْ لَمْ يَرَ الْحَقَّ

الحجاب المسدول بين العبد وربه هو نسبة الوجود للعبد، فمن لم يخرج عن نسبة الوجود لنفسه لم يتصل بربه. وجودان لا يجتمعان: إن كنت موجوداً فالرب مفقود، وإن كنت مفقوداً فالرب موجود. فمن لم يترك وجود الوجود لا يحصل على الشهود، فهذا هو المانع من رؤية الحق مع أنه موجود واجب الوجود. وكل موجود صح أن يرى لكن لمن مات، والموت موتان: موت عن الدنيا وموت عن الخلق، فالموت عن الدنيا هو استبدال الخلق بالحق. موتة آجلة وموتة عاجلة. فالعاجلة لخواص المؤمنين، والآجلة لعامة المخلوقين **(كل نفس ذائقة الموت)** «آل عمران: 185» فموت العارفين موت، وموت غيرهم فوت. إذْ موت العارفين انقطاع عن الخلق، وموت غيرهم انقطاع عن الدنيا واستبدال الخلق بالحق.

ورؤية الحق رؤيتان: رؤية إطلاق ورؤية تقييد، فرؤية الإطلاق ثابتة لأهل الإطلاق الذين عرفوا الحق أنه مطلق بلا قيود. ورؤية

التقييد لأهل التقييد، وأهل التقييد هم أهل الحجاب، يدركون رؤية الحق في الآخرة على ما يقتضيه حالهم من الانقطاع، فتحصل لهم في وقت دون وقت، فهم مقيدون بالأوقات والأماكن كحالتهم في الدنيا. «يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه». فيحصل لهم بعض التجلي باعتبار طاقتهم، وحسب ما تسعه حوصلتهم من مبالغتهم في التوحيد قوة وضعفا في دار الدنيا، فيتجلى لهم الحق من سماء التنزيه على أرض التشبيه، فتشرق الأرض بنور ربها ويدركون لذة ذلك التجلي من غير كيف، فيقومون برؤيته سكارى وفي حالهم حيارى من ذلك البرق الخاطف الذي أصابهم بقدر معرفتهم، فأهل الجنة يدركون أنواع التنعمات بقدر أعمالهم، ورؤية الحق بقدر معرفتهم. وأما العارفون بالله فيدركون رؤيته بقدر معرفتهم ويتنعمون في الجنة بقدر غفلتهم، لأنهم لا يكونون مع الجنة إلا إذا تغفلوا عن الحق. والجنة لا تبرز إلا بما كان مستحلا لصاحبها. فهذه حالة العامة وموتتهم.

وأما الموت الخاص الذي هو للعارفين فقد يأخذهم عن كل ما سوى الله في الجملة، وعن أنفسهم بدون رجوع إليها. وهذا هو الموت المحقق، فلهذا كان لهم رؤية حقيقية.

وإذا سألتك أن أراك حقيقة ☆ فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلب أنت وعدتني في حبهم ☆ صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به ☆ صبا فحقك أن تموت وتعذرا

وأما موت الغير فهو موت مجازي، فلهذا كانت رؤية الحق لهم رؤية مجازية، فموتتهم ليست بموتة، إنما هي نقلة لا غير. فلو سألت

صاحبها في الآخرة من أنت؟ لقال لك: فلان بن فلان. فهذا لم يمت، ولو مات لقال لك: لا أدري.

يا أنا من هو أنا حتى أنا ☆ همت في سكري

سئل «أبو يزيد البسطامي» - رضي الله عنه - عن نفسه فقال: «مات لا رحمه الله». فكانت موتتهم موتة لا بعث بعدها. فالعبد هو الميت، والحق هو المبعوث لا غير. فإذا رأيت العارف بعد فنائه، فلا تحسبه ذلك الذي كنت تعرفه، فهو ليس كذلك، «فني من لم يكن وبقي من لم يزل».

فلم يبق إلا الله لم يبق كائن ☆ فما ثم موصول ولا ثم بائن

قال «الشبلي» رحمه الله:

تجلى لهم صرفا فأفنى وجودهم ☆ ولم يبق منهم بعد ذلك أثرا

قوم أخذهم الله له وقام بدلهم، فكان هو لا هم. أماتهم ثم أحياهم فلا جرم إن حصلوا على الرؤية، حتى غابوا عن رؤيتهم له، ولو لم ير المريد نفسه بنفسه لم يره غيره، لأن حقيقة الذات لا يراها غيرها، فهي التي رأت نفسها بنفسها، فظن الجاهل أن العارف رأى الله. ولا يرى الله إلا الله.

أنا وحدي فافهم أمري غريب ☆ أرى ذاتي بذاتي شيء عجيب

فالحقيقة لا ترى، لكن إذا أخذت العبد من وجوده وظهرت له في نفسه رآها بظهورها في بصره، بل في جميع ذاته، فيقول: رأيت الله. وعليه «من شاف العارف شاف من شاف الله».

والموت شرط في صحة الرؤية، ومن ادعى رؤية الحق ولم يمت

فهو كذاب. وكيف يدرك رؤية من ليس كمثله شيء، وهو يرى وجود الشيء. فما دام الشيء موجودا فلا بد من الجهة والحدود. ثم أعلم أن صاحب الموت العام، إذا مات أول ما يفتح بصره يفتحه في الآخرة. فيصير صاحب الآخرة. ويقول وقتئذ: كنت مع أهل الدنيا. ويقول صاحب الحضرة الإلهية: كنت مع الخلق. فالأول يقول: الموت مصيبة. مستدلا بقوله تعالى: **(فأصبتكم مصيبة الموت)** « المائدة : 106 ». والثاني يقول: الموت حبيب. **(قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة)** « الجمعة : 8 ». فكان له هذا الموت مَطِيَّةً لحضرة الحق، فهو سبيل اللقاء بعد القطيعة والشقاء. ثم يرده إلى عالم الغيب والشهادة، أي إلى عالم البطون والظهور، فيكون معه في الغيبة والحضور، لا يرى للخلق نسبة في الوجود. وقد قال له بعض الفقراء: إنني منذ دخلت على الحق لم أخرج للخلق، وكلما رمت الخروج لم أجد فسحة تسمح لي في إيجاد فسحة حتى أخرج لها، وأضع الخلق فيها. فوجود الخلق في نظري معدوم. ومن هنا قول بعضهم: « منذ وصلوا ما رجعوا، ومنذ سجدوا ما رفعوا ». وقد قيل في هذا المعنى:

مـذ عرفـت الإلـه لم أر غيرا ☆ وكـذا الغير عندنـا ممنـوع
مـذ تجمعت مـا خشيت افتراقـا ☆ و أنـا اليوم واصـل مجمـوع

وكل ما حصلوا عليه فهو منوط بالموت. قال ﷺ: **(موتوا قبل أن تموتوا)** ففي الموت الراحة الأبدية.

شربنا نقطـة منهـا فهمنـا ☆ فإن متنـا فمـا في الموت عـار

ثم قال رضي الله عنه:

الْمَوْتُ كَرَامَةٌ، وَالْفَوْتُ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ. الْمَوْتُ انْقِطَاعٌ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْفَوْتُ انْقِطَاعٌ عَنِ الْحَقِّ

تقدم الكلام على هذا المعنى، وعلى أن الموت المراد به الموت الخاص لا الموت العام، لأن الموت العام لا انقطاع فيه عن الخلق، فصاحبه انتقل من خلق إلى خلق، فهو مع الخلق أينما كان دنيا وأخرى. وقد ذكره الحق عز وجل مصيبة في قوله: (**فأصابتكم مصيبة الموت**) « المائدة : 106 » وصاحبه إن كان هنا محجوبا عن الله فلا جرم يبعث محجوبا (**يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه**)... (**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى**) « الاسراء : 72 » (**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**) « الحج : 46 » ويكون على هذا الوجه ليست فيه كرامة، لأنه إنقطاع عن الحق لا عن الخلق، لأن الميت إذا مات عن دنياه انتقل إلى أخراه على أي حالة كان. فالآخرة خلق، كما أن الدنيا خلق. ولا يخفى على العاقل ما وراء هذه من العقبات. قال ﷺ: (**سبع عقبات بين العبد وربه، أهونها الموت، وأصعبها الوقوف بين يدي الله**) ومن حيث هذه الوجهة كان مصيبة على من لا يموت قبله. قال ﷺ: (**موتوا قبل أن تموتوا**) فمن حصل له الموت العاجل في الغالب يسكن روعه لما وراء الموت الآجل لقوله ﷺ – من حيث الإشارة –: (**لا مصيبة بعد الموت**) أي ما بعد الموت أهون مما قبله. فهذا هو الموت المعبر عنه بالكرامة التي هي

موتة العارفين الموحدين الحاضرين مع الله، الغائبين عن الخلق دنيا وأخرى ماتوا عن الكل، وماتوا عن أنفسهم وأهوائهم لما سمعوا قوله ﷺ : (**موتوا قبل أن تموتوا**) ماتوا لما طرقتهم النفخة الإسرافيلية من الحضرة الإلهية، فحركت الأشواق (**والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق**) « القيامة : 29 » فانطرحوا بين يديه فخاطبهم لسان التوحيد قائلا : (**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة**) « الأنعام : 94 » فأجاب لسان حالهم : (**لا تبديل لخلق الله**) « الروم : 30 » فلما تحققوا بحقه وقدروا الله حق قدره، اجتباهم إليه ونفخ فيهم من روحه، وأجلسهم على بساط أنسه وقال : (**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) « يونس : 62 » . فأجاب لسان الحال : (**فالله هو الوَليُّ، وهو يحي الموتى**) « الشورى : 9 » .

فهذه موتة القوم، وهذه هي الموت وما سواها فوت.

فالموت موت العشاق عن كل ذرة ☆ فماتوا عن الخلق وبالحق وجدوا
تراهم فلا ترى ولو كنت تراهم ☆ لرأيت من قام من بعد ما فاقوا

سبحان من خصهم واجتباهم، وعرفهم وارتضاهم، فهم عباد الله لا محالة، وأما الغير فلا، ولو صام وصلى وقرأ العلم.



ثم قال رضي الله عنه:

السَّالِك ذَاهِبٌ إِلَيْهِ، وَالْعَارِفُ ذَاهِبٌ فِيهِ

شتان بين مريد ومراد (**كُلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**) «الاسراء: 20» لأن السالك سائر في طلب الحق جاد في الوصول إليه، لا يريد به بدلا، فهو مستعمل كل أنواع القربات، فَانٍ على حظوظه في حقوق مولاه، لا وجهة له سواه؛ فالوقت الذي لم يزد فيه قربا إلى مولاه يكتبه من جملة الحسرات، إلى أن يصل إلى مرغوبه، ويرتفع عنه الحجاب، ويقال له: أدن فهذا جمالنا تمتع به، فمرحبا بك وأهلا وسهلا؛ ويظهر له الحق ظهورا لا يمكن احتجابه، فيقول كمن قال: «لو كلفت أن أرى ما سوى الله لم أستطع». فيكون حينئذ عارفا موصولاً، ومن هنا يبتدىء السير، إلا أن السير الأول إنتهى إلى الله، والسير الثاني يكون في الله، وهو قول المصنف: «العارف ذاهب في الله». فَانٍ فيه ومتلاشٍ، والمراد به غائب في شهوده ومنطوٍ في وجوده حتى يصير هو بلا هو.

ثم اعلم أن العارف كلما تعرف له الحق ينبغي له أن لا يقف عند ما عرف، إلى أن يصل إلى غاية لا يمكن التعبير عليها. ومن هنا قال ﷺ: (**من عرف الله كَلَّ لسانه**)، وقال بعض العارفين:

عرفتك في عين الوجود حقيقة ☆ وغبت عن عرفاني فصرت لا أعرف

والمعنى أن العارف لا يكتفي بمجرد الوصول، لأن الوصول هو كناية عن استشعار العارف بوحدانية الإله ذوقا وحالا، وهو أول قدم

الموحدين لقول « ابن الفارض » رضي الله عنه:

وإن اكتفى غيري بطيف خياله ☆ فأنــا الــذي بوصالــه لا أكتفي

وهذا المعنى عند عامة القوم غير معقول، إنما هو من الأمور النظرية التي تدرك بالتأمل، لأن المستشرف إبتداءً لا يبلغ عقله إلا بعد المشاهدة، والوصول يحتاج إلى وصول، إلا إذا أمعن النظر في علم القوم بواسطة عارف حاذق، فحينئذ يدرك ما أشرنا إليه والله أعلم.

ثم قال رضي الله عنه:

بَقَــاءُ الأَبَــدِ فِي فَنَــائِــكَ عَنْــكَ

فمن أراد أن يحيا حياة أبدية، فليمت موتة كلية، ومن فنى عن نفسه بقي بربه. وبقاء الربوبية مستمر، فمن مات عن نفسه وهواه ودنياه وأخراه عاش بالله. فهذا شَرْطٌ لازم وأمر متحتم. فاخرج أيها المريد عن روحك وشبحك ونفسك وأبناء جنسك، بل عن العالم بأسره جوهره وعرضه، وافن في الله فناء سرمداً، فإنك تبقى به بقاء أبديا.

لا بقاء إلا بعد الفناء، ولا حياة إلا بعد الموت، ولا نشر إلا بعد القبر. فمن لم يدخل أرض العدم لم يرتقع إلى سماء الوجود، ومن لم يمت لم يشم رائحة الفوت. **(موتوا قبل أن تموتوا).**
أَعْطِ تُعْطَ. فذلك مهر الطريق.



ثم قال رضي الله عنه:

أَحْرِصْ أَنْ لاَ يَكُونَ لَكَ شَيْءٌ، تَعْرِفْ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ

أحرص أيها المريد، وافحص على هذا الكنز الغميض حتى لا يكون لك شيء مع الله. فإن تمحض لك ذلك وزال الكل من نظرك، وامتحى من لوحة الوجود وبقي الحق كما كان، ولن يزال موجودا، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. إذْ لا يمكن تعدد الوجود، تعرف به حينئذ كل موجود. فثبات الأشياء بالله لا بنفسها، وذاتها وطبعها وعادتها، فهي لا شيء. قال في الحكم العطائية: « الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته ». فيكون الكون حينئذ مفقودا من حيث الذات، موجودا من حيث الصفات التي تطلب شيئا زائدا وهو التعلق، ولا زائد باعتبار التحقق. فما كان إلا الذي كان، لأن ذات مولانا لا تقبل الزيادة كما لا تقبل النقصان، فإذا تمحض ذلك تصير الأشياء عندك حينئذ قائمة بالله لا بنفسها، ولا يصح لك ذلك حتى لا يبقى لك شيء، فإن تحققت بوحدة الوجود تعرف بها كل موجود، ولولا وجود الحق ما وقع بصرك على الوجود، لأن البصر لا يتعلق بالمفقود. ولهذا قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالأَحَدِ لَمْ يَكُنْ بِأَحَدٍ

أي من لم يكن استمداده ووجوده من ذات موجده لم يكن موجوداً رأساً. وفي هذا المعنى قيل:

من لا وجود لذاته من ذاته ☆ فوجوده لولاه عين المحال

واعلم بـــأنك والعـــوالم كلهـــا ☆ لـــولاه في محـــو وفي اضمحـــلال

وحاصل الأمر أن وجود الخلق مستمد من وجود الحق استمداداً كليا بحيث لا وجود له في الخارج. فمن لم يكن بالأحد يكن بأحد، فوجوده محال. إياك أخي أن يقع بصرك على الموجودات فتتوهم أنه وقع على وجودها لذاتها. وذا محال، إنما وقع على وجود موجدها الذي هو معار إليها (**الله نور السموات والأرض مثل نوره**) النور: 34» قدر الأشياء في سابق علمه، ثم أفرغ عليها من وجوده، فظهور الأشياء من حيث ظهوره.

تجليـت في الأشيـاء حين خلقتها ☆ ولولا وجودك مـا كان وجودهـا

الحق سبحانه وتعالى ظاهر في الوجود ظهور الشمس في رابعة النهار. ومن حيث ظهوره من وراء حجاب المكونات أي أسمائها التي هي أسماؤه في الحقيقة. وقعت الأبصار على الموجودات، فظن الرائي أنه نظر الموجودات من حيث ذاتها (**إن بعض الظن إثم**) « الحجرات: 12 » فقد وضع الأشياء في غير محلها، ولم ينزل الناس منازلهم:

الحق لا يحجبه غير، وإن كان الغير فالحق فيه ظاهر. قال في الحكم العطائية: « لولا ظهوره في المكونات، ما وقع عليها وجود البصر ». وقال أيضا: « ما حجبك عن الحق وجود موجد معه، ولكن حجبك توهم وجود موجد معه ». فمن نسبتك الوجود لغيره احتجبت عن ذاته. ولو علمت أن الوجود لا يقوم بذاته، وأنه لا يظهر في العدم، وأنه لا يثبت زائد مع من له وصف القدم، لقلت: « ضدان لا يجتمعان » العبد حق والرب حق. أترك حق الحق،

ووجود الوجود، واطو الشاهد في المشهود، والعابد في المعبود، وقل:

توحيد حقّ بترك حق ☆ والكل حق وأنا وحدي
ما غاب حق ما زال حق ☆ والحق مني وعندي
وجدت حقا في نفس حق ☆ وصرت حقا والحق عندي

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ عَرَفَ أَحَداً لَمْ يَعْرِفْ الأَحَدَ

فمن تحقق بالأحدية لم يجد معها أدنى شيء زائد لانفرادها بالوجود المطلق، ومن عرف أن هنالك أحدا موجودا سواها فإنه لم يعرف الأحد ولا خبر له بمعرفته، إنما هو في بعد وقطيعة حيث أثبت شيئا زائداً على وحدانية الإله.

كان يقول استاذنا سيدي «محمد البوزيدي» رحمة الله عليه: «إذا بقيت للمريد شعرة من جسده خارجة عن الوجود المطلق بحيث لم يثبتها بالله، فهو محجوب عن الله». وكان يقول: «إن الولاية تمنعها شعرة». فإن كان هكذا، فكيف بمن يثبت للمخلوقات وجوداً زائداً على الذات. لا محالة أنه بعيد عن التوحيد، إلا إذا خرج عن كل الحقيقة وصور العبيد، فيجد حينئذ وجود فرد، لا نقيض له ولا ضد.



ثم قال رضي الله عنه:

مَا بَانَ عَنْهُ أَحَدٌ، ولا اتَّصَلَ بِهِ أَحَدٌ

ما انفصل عنه شيء، ولا اتصل به شيء، أو تقول: ما زاد عنه شيء، ولا نقص منه شيء، لعدم وجود الشيء في الحقيقة. فمن أين يطرأ هذا الشيء والحال لا شيء.

ثم اعلم، أن الحضرة الأحدية تأبى كلًّا من الجهات والزوائد والنقصان، بل كل شيء له إثبات دون إثباتها، لأنها كنز غميض، وبحر لا موج فيه، ولا فسحة لديه، لا يمين ولا شمال، ولا كيف ولا مثال. وما أحسن قول العارف بالله سيدي «عبد الكريم الجيلي» في (الإنسان الكامل) حيث قال:

عزت مداركه غابت عوالمه ☆ جلت مهالكه أصمت صوارمه
لا العين تبصره لا الحد يحصره ☆ لا الوصف يحضره من ذا ينادمه
كلت عبارته ضاعت إشارته ☆ هدت عمارته قلبا يصادمه
عال ولا فلك روح ولا ملك ☆ ملك له ملك عزت محارمه
عين ولا بصر علم ولا خبر ☆ فعل ولا أثر غابت معالمه
ذات مجردة نعت مفردة ☆ آي مسردة يقرأه راقمه

وقد قال لسان حال هذه الحضرة:

لحيَّ على جمع القديم فهل له ☆ نقيض وحاشاه فكان ولا زالا
فكنت مطلق الذات غير محيَّزٍ ☆ مكاني إني مني والعلم يرى جهلا
وليس لفوق الفوق فوق ولا غاية ☆ وليس لتحت التحت تحت ولا سفلا
وإني غميض الكنه كنز مطلسم ☆ ولا منتهى عرضا ولا منتهى طولا

ظهرت في ذا البطون قبل ظهوره ☆ سألت عن نفسي بنفسي قال بلى
فهل للسوى ظهور يمكن في حقه ☆ فهال ثم مال وصال ثم قالا
فإني فريد الذات شيء مفرد ☆ فلا يمكن تحييزي لشيء وإن قلا
وهل لي فسحة تكون إلى غيري ☆ وهل يكون الفراغ كلا ولا ولا
فإني باطن الكنه من حيث عينه ☆ وإني ظاهر النعت جملة مفصلا
ولا وجهة إلا وإني موليها ☆ وهل للسوى وجود وهل من نعتي خلا
فذاتي ذات الوجود كانت كما ترى ☆ تعظيمي غير محدود بكقدر خردلا
فأين يظهر الخلق والحق واسع ☆ إلا إذا به ظاهر وإلا فلا

فإذا فهمت هذا فهل يمكن أن يزاد على هذه العظمة شيء أو ينقص منها شيء، أو يتصل بها شيء، أو ينفصل عنها شيء. لا والله «كان الله ولا شيء».

ثم قال رضي الله عنه:

مَا بَانَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ العِلْمِ، وَلاَ اتَّصَلَ بِهِ مِنْ حَيْثُ الذَّاتِ

العلم ملازم للذات، عظيم بعظمتها، فحيثما وجدت الذات إلا والعلم من نعتها، لأن الذات تحوط بالصفة، والصفة لا تحوط بذاتها، الذات تحوط بالصفة من حيث أن الصفة موجودة في ذاتها. والصفة لا تحوط بالذات من حيث أن الذات معدوم تحيزها. أو تقول: عدم الاحاطة هي نفس الإحاطة، لأن مقتضى العلم الإحاطة والشمول.

فمن هذه الحيثية لا يمكن البينونة، كما لا يمكن أن يتصل به شيء من حيث عظمة الذات المقتضية لعدم الفسحة والجهات. إذ لو كان لشيء معها أدنى وجود لا بد من الجهة والحدود، والاتصال والانفصال، والكل منها محال. وقد تقدم لك ما ذكرناه من عظمة الذات، ولو أمكن التحيز لأمكن وجود الغير، وهو نفس الفسحة والحيزية، تعالى الله أن تكون له جهة أو هو في وجهة، وليس لأحد أدنى معرفة بما ذكرناه إلا من كشف له الحجاب، وعرف معنى العظمة التي لا تتناهى ولا تتقيد بوجود السماء ولا بوجود الأرض، **(وله الكبرياء في السموات والأرض)** « الجاثية : 37 » وهل يثبت السماء مع وجود العظمة، سبحان من أثبت الشيء وهو لا شيء، إنما هو توحيد محض.

ولهذا قال رضي الله عنه:

الوَحْدَةُ بِحَضْرَةٍ تُلْهِبُ، ثُمَّ نَظْرَةٌ تَسْلُبُ. الأَجْسَامُ أَقْلَامٌ، وَالأَرْوَاحُ أَلْوَاحٌ، وَالنُّفُوسُ كُؤُوسٌ

لما ذكر أن الحق عز وجل ما اتصل به أحد، ولا بان عنه أحد من حيث العظمة والاحاطة والشمول، تكلم عن الكائنات أي مظهر الأسماء والصفات من حيث الظواهر والبواطن، أرواح وأشباح، يشير إلى وحدة الوجود، وكيفية تجليها في كل موجود، فذكر أن الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس، والوحدة من تلك

الكؤوس تلهب، فيا لها من نظرة تسلب، قد خمرت أكثر العاشقين بجمالها، حيث لاح من كأسها. ولولا كأسها من جنسها لما استطاع تحملها. قلت في مدحه تشريفا لقدرها:

كأسه من جنسه يساعد في شربه ☆ وهل كأسه يكفي دونه قلت بلى
عجبت لهذا الكأس يسقي بنفسه ☆ يطوف على العشاق هذا فيه خصلا
ومن نعته سحر رسم في طرفه ☆ من نظر ختمه تخلى عن الصولا
ومن عجبٍ أني ما بحت بسره ☆ ولو سقي سواي ما صام ولا صلى
ولو نظر الإمام نور جماله ☆ لسجد إليه بدلا عن القبلا
ولو شمت العُلاَّمُ في الدرس نشره ☆ لطاشت عن التدريس حالا بلا مهلا
ولو شاهد الساعي سناه لما سعى ☆ ولا طاف بالعتيق ولا قبل قبلا
نعم يأمر بالتقبيل كلا لركنه ☆ حيث يرى عين القصد من نفسه تجلى

فيا له من كأس ويا لها من خمرة!

خمرة يحتاج الكل طرا لشربها ☆ كما يحتاج السكران لمزيد السكر

فالكل لها عاشق ولم يدر من أين الطريق، إنما هم بذكرها حيارى وبحبها سكارى. فكيف لو شاهدوا جمالها الفتان. ولسلطان العاشقين في مثل هذا الشان:

ولو نظر الندمان ختم إنائها ☆ لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ☆ لعادت إليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا في فيء حائط كرمها ☆ عليلا وقد أشفى لفارقه السقم
ولو قربوا من حانها مقعدا مشى ☆ وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم

ولو عبقت في الشرق أنفاس طيبها ☆ وفي الغرب مزكوم لعاد له الشم
ولو خضبت من كأسها كف لامس ☆ لما ضل في ليل وفي يده النجم
ولو جليت سرا على أكمه غدا ☆ بصيراً ومن رَاووُقها تسمع الصم
ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها ☆ وفي الركب ملسوعٌ لما ضره السم
ولو رسم الراقي حروف اسمها على ☆ جبين مصاب جن أبرأه الرسم
وفوق لواء الجيش لو رقم اسمها ☆ لأسكر من تحت اللِّوَا ذلك الرقم
تهذب أخلاق الندامى فيهتدي ☆ بها لطريق العزم من لا له عزم
ويكرم من لم يعرف الجود كفه ☆ ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
ولو نال فدم القوم لثم فدامها ☆ لأكسبه معنى شمائلها اللثم
يقولون لي صفها فأنت بوصفها ☆ خَبِيرٌ أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ☆ ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمٌ
تقدم كل الكائنات حديثها ☆ قديما ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة ☆ بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فتحصل من هذا أن الموجودات من حيث هي أوانٍ لسرِّ الألوهية، والأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والكاتب بالقلم هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم. قال من درى وتعلم:

تراني كالآلاتِ وهو محركي ☆ أنا قلم والاقتدار أصابع

وإذا كانت الأرواح ألواحاً، يتضح لك أن عالم الملكوت هو اللوح المحفوظ، لأن الأرواح ملكوتية كما أن الأجسام ناسوتية، فكلما تحرك قلم الناسوت إلا ويرتسم في لوح الملكوت، فهو من حيث ظاهره لوح المحو والإثبات، ومن حيث باطنه محفوظ من كل الجهات، فمن حيث ظاهره كتاب مسطور، ومن حيث باطنه الرق المنشور.

ثم اعلم ان الروح لما نزل على البدن أنزل فيه كل ما يجري على الإنسان من خير وغير، فلا تتحرك الجوارح إلا بما في لوح الروح، لأنه رأي الروح له ظاهر وباطن، فباطنه مقابل للحق، وظاهره مقابل للخلق. أو تقول: باطنه موجه للسر، وظاهره موجه للشبح. فالوجهة التي هي مقابلة للحق، أو تقول لأم الكتاب مطبوع فيها ما يؤخذ من أم الكتاب من غير تبديل إلى ما قدر على الإنسان كان، وما لم يقدر عليه لم يكن، والوجهة التي هي مقابلة للشبح يرسم فيها أعمال الجوارح وفيها (**يمحو الله ما يشاء ويثبت**) « الرعد : 39 » حسب أعمال الشخص. فمن أجل هذا كان إلى الملكوت باطنه الرق المنشور، وظاهره الكتاب المسطور. وكل إنسان إلا وله نسخة من هذا الكتاب وهو الروح وما رسم فيه. (**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**) « الاسراء : 13 » فكتابه من روحه، وقلمه من جسمه، ومداده من نفسه. فقد جمع في الإنسان ما لم يجمع في غيره. فمن نظر في نفسه وانتبه لسطوره في الغالب يستخرج علمه من نفسه على حد ما قيل:

إذا كنت تقرأ علم الحروف ☆ فشخصك لوح به أسطر

وتمثال ذلك أنموذج ☆ لكل الوجود لمن يبصر

ففيك أشعة لاهوته ☆ من البدر يا ذا النهى أنور

وشمس المعارف أنوارها ☆ من الشمس في ضوئها أظهر

لقد ظهرت بسماء القلوب ☆ خفايا القلوب لمن ينظر

سماء على قطب توحيده ☆ تدور اشتياقا فلا تقصر

لها من أشعة عرفانه ☆ نجوم بإخلاصها تزهر

فمشرقها أفق سودائها ☆ ومغربها سره المضمر

وعرش الصفاء لها مركز ☆ إليه أنهي كل ما يسطر

هناك المليك تجلى لها ☆ وأوحى لها كل ما يؤمر

وقال غيره:

يا قاصر عين الخبر ☆ غطاه عينك

ارجع لذلك واعتبر ☆ ما ثم غيرك

فالخير منك والخبر ☆ والسر عندك

وأنت مرآة النظر ☆ قطب الزمان

وفيك يطوى ما انتشر ☆ من الأوان

وقال آخر:

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة ☆ ونارا وأفلاكا تدور وأملاكا

وكنت من الكل نسخة كله ☆ وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا

ففيم التأني بالحضيض مثبطا ☆ مقيما مع الأسرى أما آن إسراكا

وقال غيره:

اقرأ معنى السطور فيك أجمع ☆ الشمس والبدور فيك تغيب وتطلع

وقال الإمام « البوني » - رحمه الله - بعد ما ذكر ما في الإنسان من السطور والآيات الباهرة: « من لم يعرف كتابه الذي هو هو، فليس هو هو ». ويتضح لك ما في الإنسان إن استحضرت قوله عز من قائل في حديث قدسي: (**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**) فمن باب أولى إن قلت فيه ما في الوجود من الفرش إلى الثرى. فتحصل من هذا أن الوجود من عرشه إلى فرشه

ليس أجنبيا من الحضرة الإلهية، إنما هو شعاعها، ومظهر من مظاهرها، فكل من الأجسام والأقلام والألواح والأرواح والنفوس والكؤوس لوامع برقية، وأنوار قدسية، تسترت باسم الغيرية. وليس هناك إلا وحدة الحق تلهب كما تقدم. فكل إنسان إلا وله حظ من ربه. فلو انطوى في بصيرته، وانطوى مجازه في حقيقته، لوجد الحق أقرب إليه من نفسه. (**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**) «فصلت : 53» فمن تبين له أنه الحق، يفهم معنى السطور، ويجد من نفسه كتابا منشورا (**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**) «الاسراء : 14» ثم يجد في نفسه كنزا بجدار الهيكل مستورا، حتى إذا انقض الجدار، وفشت الأسرار، يرتاح حينئذ من التعب، ولم يبق له إلا وحدة تلهب ونظرة تسلب. فتفطن أيها المريد لما في نفسك وحاسبها عن القليل والكثير، والنقير والقطمير. وليس الشان أن تترك نفسك وتعاديها حيث أنها أتت من محل معتبر، إنما الشان أن تبحث عما احتوت عليه لعلها تخبرك عما تخفيه عن غيرك.



ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ نَظَرَ إِلَى المُكَوَّنَاتِ نَظَرَ إِرَادَةٍ وَشَهْوَةٍ، حُجِبَ عَنِ الْغَيْرِ فِيهَا وَالإِنْتِفَاعِ بِهَا

أي من نظر الأشياء من حيث ذاتها احتجب عن الانتفاع بها، لأن الحق عز وجل أذن لنا في النظر إليها، ولم يأذن لنا في الوقوف معها. قال: **(قل انظروا ما ذا في السموات والأرض، وما تغني الأيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)** «يونس: 101» ولم يقل انظروا السموات والارض احترازا من الوقوف مع ظواهر الأجرام ووقوف شهوة، وليس الشان أن ترى الأواني إنما الشان أن تنظر ما هنالك من المعاني. قال في الحكم العطائية: «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة». فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها. قال عز من قائل: **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)** «الحشر: 2» فمن لم ينظر الأشياء بعين الاعتبار فاتته المنة من الله، ولم يزد منه إلا فرارا، ومثله كمن لا يعرف الكتابة حتى إذا نظر في مسودة الكتاب فلا يرى إلا سواداً في بياض، ولم يعلم أن ذلك النقش والمباني ألفاظ تدل على معان. فكذلك الكائنات لمن أبصرها. وما أحسن ما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ☆ من الملإ الأعلى إليك رسائل
لقد خط فيها لو تأملت سطرها ☆ ألا كل شيء ما خلا الله باطل

إياك أخي أن ترفع بصرك للموجودات فتأخذ منها ما يأخذه البصر، بل ينبغي لك أن تحقق ما هنا لك من المعاني والمباني. قال الإمام «الغزالي» - رحمه الله -: «إياك أن ترفع بصرك للسماء فترى

زرقته وضياء الكواكب، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر ». وإن كان ذلك هو المراد من النظر، فلم مدح الله إبراهيم عليه الصلاة السلام بقوله: (**كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**) « الأنعام : 75 » لقد كان إبراهيم عليه السلام إذا نظر الأشياء يرى فيها مولاها قبل أن يراها، كان الكون عنده مرآة المكون متى احتجب الحق عن الخلق؟ إذا ظهرت صفاته غابت مكوناته.

الحق عز وجل إذا ظهر في الخلق يبقى ولا خلق. ولهذا (**لما رأى كوكبا قال هذا ربي**) « الأنعام : 75 » فلم يبق له من الكواكب إلا مجرد الإسم ولا مفهوم للكواكب. وفي هذا المعنى قال سلطان العاشقين:

فتراءيت في سواك لعين ☆ بك قرت وما رأيت سواكا

وكذاك الخليل قلب قبلي ☆ طرفه حين راقب الأفلاكا

فالدياجي لنا الآن غر ☆ حيث أهديت لي هدى من سناكا

فهذا حال من نظر الأشياء نظر اعتبار، فلا يلبث أن يرى رب الأشياء. « في الزوايا خبايا » (**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**) « الأنعام : 83 » فقد رفعهم عليه السلام بقوله: (**هذا ربي**) من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان ولكن (**الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب**) « الشورى : 13 » من عباده. ولا تقل ان إبراهيم عليه السلام قال ذلك حالة كونه غير عالم بمرتبة الألوهية، فإنك تصفه بما أعظم من المعصية. وقد أمرت بتنزيهه عن الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها، فما قال ذلك

يا أخي إلا استغراقا في المشاهدة، وترشيحا في معنى التصريح عند ما لاح عليه برق الجمال، واستولت عليه مرتبة الكمال، قال ذلك لعزمه، وما أحسن ما قال، تحدث بما أنعم الله عليه ففاز بكل خير، ولا زالت هذه الأمة على ملته، تفصل لك كل ما عجزت عن فهمه، لتكون حجة عليك كما كان حجة على قومه. وفي ذلك قال من كان على قدمه: (1)

فلا تك مفتونا بحسنك معجبا ☆ بنفسك موقوفا على لبس غرة
وفارق ظلال الفرق فالجمع منتج ☆ هدى فرقة بالإتحاد تحدت
وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل ☆ بتقييده ميلا لزخرف زينة
فكل مليح حسنه من جمالها ☆ معار له بل حسن كل مليحة
بها قيس لُبْنَىٰ هام بل كل عاشق ☆ كمجنون ليلى أو كثير عزة
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها ☆ بصورة حسن لاح في حسن صورة
وما ذاك إلا أن بدت بمظاهر ☆ فظنوا سواها وهي فيها تجلت
بدت باحتجاب واختفت بمظاهر ☆ على صبغ التلوين في كل برزة

وقال أخر:

واحد عدده العقل لنا ☆ بانتظام كعقود السبح
وتحقق وتدقق واعترف ☆ أنك الفرد الذي لم تلمح
وتوحد واترك الكثرة عن ☆ وهمك الحاجب عنه واستح

وقل أيضا كمن قال:

كل شيء عقد جوهر ☆ حلية الحسن المهيب

---

1) ابن الفارض: الديوان ص: 69 ط بيروت.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ أَنِسَ بِالْخَلْقِ اسْتَوْحَشَ مِنَ الْحَقِّ

أي من استأنس بالخلق وركن لظاهر الأشياء استوحش من الحق لا محالة «ضدان لا يجتمعان» فمن استأنس بشيء استوحش من شيء. وكل من نظر الموجودات ولم ير الله قبلها أو بعدها أو معها بحيث يشاهده في كل شيء شيء، فهو متباعد عن الله.

العارفون لا يرون من الخلق إلا ما يحتاجون إليه وهو نفس الحق، ولولا ظهوره في الأشياء لما رفعوا لها أبصارهم، فهم غائبون عن الكل. «ولأبي إسحاق الأعزب» رحمة الله عليه:

محال قلوب العارفين برؤية ☆ إلهية من دونها حجب الرب
معسكرنا فيها ومجنى ثمارها ☆ تنسم روح الأنس بالله في القرب
حباها فأدناها فحازت مدى الهوى ☆ فلولا مدى الآمال ماتت من الحب

فهذه حالة المستأنسين بالله. وقد كان من جملتهم، وعند ما توفي رحمه الله رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ فأنشد هذه الأبيات:

لاحظته فرآني في ملاحظتي ☆ فغبت عن رؤيتي عني بمعناه
وشاهدت همتي حقا ملاحظتي ☆ لما تحققت معنى كون رؤياه
فلا إلى فرقتي وصلي ولا سكني ☆ إلى سواه فعيشي طيب لقياه

(يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه).

من مات فيه غراما عاش مرتقيا ☆ ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج
محجب لو سرى في مثل طرته ☆ أغنته غرته الغرا عن السرج

وإن ضللت بليل من ذوائبه ☆ أهدى لعيني الهدى صبح من البلج
وإن تنفس قال المسك معترفا ☆ لعارفي طيبه من نشره أرجي

العارف بالله يعيش سكرانا ويموت سكرانا ويبعث نشوانا، فهو يترنم حيثما كان «منذ ذاق ما أفاق». ولبعضهم: (1)

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما ☆ شربت التي في تركها عندي الإثم
هنيئا لأهل الدير كم سكروا بها ☆ وما شربوا منها ولكنهم همّوا
وعندي منها نشوة قبل نشأتي ☆ معي أبدا تبق وإن بلي العظم
عليك بها صرفا وإن شئت مزجها ☆ فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم
فدونكها في الحان واستجلها بها ☆ على نغم الألحان فهي بها غنم
فما سكنت والهم يوما بموضع ☆ كذلك لم يسكن مع النغم غم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ☆ ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا ☆ ومن لم يمت بها سكرا فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره ☆ وليس له فيها نصيب ولا سهم

أي من لم يمت سكرا بها هو المستوحش من الحق، المستأنس بالخلق، فقد فاته الحزم دنيا وأخرى، فهو لا يرى إلا الخلق ونفس البناء ولو صعد إلى أعلى عليين، لا تزيد نظرته على ما هي عليه. قال ﷺ: (**إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم**).

فإياك يا أخي أن تفهم أنك إذا صعدت للعلا أو تعلقت بالعرش، ترى شيئا زائداً على ما تراه هنا من المصنوعات، فالكل خلق من

---

1) يراجع النص في « ابن الفارض » الديوان ص: 143 ط دار صادر بيروت 1962.

عرشه إلى فرشه، فإذا فقدته هنا فقد فقدته في سائر المظاهر:

وليس تنال الذات في غير مظهر ☆ ولو تهتك الإنسان من شدة الحرص

وقد بلغك أن الله يتجلى لأهل المحشر على صفة غير معقولة عندهم فينكرونه، إلا من أخذ الله بيده. فمن فاتته المنة هنا فقد فاتته هناك. **(من كان في هذه أعمى فهو في الأخرة أعمى)** «الاسراء : 72».

ثم اعلم أن هذه الصفة المتجلي بها في المحشر هي المتجلي بها اليوم، وإنك تراه ولن تراه. ولو صرحنا لك به لأنكرته كما تنكره غداً. وإن شئت أن تحصل على هذه الرؤية حتى تكون عارفاً به، وإن ترادفت التجليات، فلا تقف مع ذوات المكونات بل أطلب ما وراء ذلك، وارفع رأسك عن الخلق، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، حتى إذا تطاولت همتك ونفذت من سرادق الموجودات، وجالت في إطلاق الذات وأنوار الصفات، تعرف حينئذ كم لله من التجليات.

وقد سألت بعض المريدين حالة دخوله لهذا الميدان وكان أميا: كم لله من الأسماء؟ فقال لي: على عدد الموجودات؛ ما من إسم إلا وتحته إسم وصفة. قلت له: وكم له من التجليات؟ قال: في معنى هذه الأية **(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)** «النحل : 18» قلت له: كم له من ذات؟ فقال: هو واحد الذات. ثم قال: لا ذات مع ذات الله ولا صفة مع صفاته، ولا إسم مع إسمه. ثم أنشأ يقول فيما حفظه عنا:

تيهتني ذاتك وغبت فيك يا الله ☆ ظهرت صفاتك منك وفيك يا الله
لمن نحكي سري لمن نريك يا الله ☆ رجعت لسكري وحرت فيك يا الله
دخلت للمعنى لكي نراك يا الله ☆ نديت من أنا لست سواك يا الله

خرجت لمحس نفتش عليك يا الله ☆ ابتديت بنفسي حصلت عليك يا الله
ظهرت في الكل عمن نخفيك يا الله ☆ ومن كان مثلي يستر عليك يا الله
أنت هو الظاهر في ذا العبيد يا الله ☆ أنت هو الباطن كما تريد يا الله
وفي بدء السير وهمت فيك يا الله ☆ ظننتك غيري جاوزت عليك يا الله
حتى نارت شمسي دلت عليك يا الله ☆ نوديت من نفسي قلت لبيك يا الله
خرجت للناس نحكي عليك يا الله ☆ في جميع أنفاسي مولع بك يا الله
خشيت عن قلبي يغفل عليك يا الله ☆ وأنت في قربي حققني بك يا الله
أشغلني بك نفنى عما سواك يا الله ☆ وابقيني بك نغنى حتى نراك يا الله

فأين نظرتك يا أخي من هذه النظرة، وأين فكرتك من هذه الفكرة. فليس الشأن أن ترفع بصرك للخلق، إنما الشأن أن ترى الحق. ما خلقت الأشياء لتراها ولكن لترى فيها مولاها، حتى إذا عرفت الله في الأشياء، كانت الأشياء معك، وأنت مع الله، فتصير أميرا عليها بإضافتك لله عز وجل، وربما تنوب عنه في بعض الأمور كما ينوب المضاف عن المضاف إليه. وقد يرتفع بارتفاعه، لكن مع تحقق الإضافة، هذا إذا كنت مضافاً لله. وإذا كنت مضافاً للخلق فأنت تعرف رتبتهم. قيل:

نصحتك علما بالهوى والذي أرى ☆ مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيدا فمت به ☆ شهيداً وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت بحبه لم يعش به ☆ ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا ☆ وخل سبيل الناسكين وإن جلوا
وقل لقتيل الحب وفيت حقه ☆ وللمدعي هيهات ما الكحل الكحل

ولكن ما كان لهم من خيار **(وربك يخلق ما يشاء ويختار)** «القصص: 68»

الفصل الخامس عشر

في أحوال القوم بعد فنائهم

قال رضي الله عنه:

مَنْ ضَيَّعَ حِكْمَةَ وَقْتِهِ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْهَا فَهُوَ عَاجِزٌ

العارف ابن وقته لا ابن زمانه، فهو محتاج لحكمة وقته كما يحتاج لحياته. ومن ضيع حكمة الوقت بأن فاته ولم يأخذ منه ما يفيده الفهم عن الله فهو جاهل بهذا المقام. أي لو كان عالما بحكمة الوقت لما ضيعها. فمن جهل شيئا عاداه.

العارف مطلوب في كل الأوقات بأنواع الموافقة، والأوقات كلها حقوق لله على عبده، مضافة للوقت نفسه، حتى إذا فات وضاعت حكمته دخل عليه غيره لحقوقه المضافة إليه. فلا يمكن للعارف أن يقضي حقوق الوقت الماضي في وقت مطلوب بحقوقه. قال في الحكم العطائية: « حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها ». إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد. فكيف تقضي فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه. وهذه معاملة العارف مع الحق باطنا وظاهراً، إذ كل وقت مهما قل أو كثر إلا وللحق فيه عليك حق، لأن الأوقات كلها ظروف وأوان حاملة للمعاني والحكم الإلهية. ومن ضيعها ضيع حكمة

لا يمكن استدراكها. ولهذا ينبغي للمريد أن يقف على باب قلبه في كل وقت وحال كي لا تفوته حكمة الوقت.

الدهر بحرٌ له عجائب، والأوقات أمواجه. فلا ينبغي لك أيها العارف أن تفوتك عجائبه وتضيعه بدون أن تفهم ما فيه. وإن فاتك فإنك لم توف بحقه، ولم تقدر الله حق قدره. فمن قصر عن فهم حكمة ما ذكرنا فهو مقصر في الفهم عن الله، لقول المصنف: « من قصر عنها فهو عاجز ». وقد قيل: ينبغي للمريد حالة سيره أن لا يفهم إلا عن الله. أو فيما يقرب إلى الله حتى قيل: « من لا يفهم صرير الباب، ونبح الكلاب، وجريان السحاب، فليس من ذوي الألباب ». فكل يشير إلى معنى:

وألسنة الأكوان إن كنت واعيا ☆ شهودٌ بتوحيدي بحال فصيحة

وليس الشأن أن تفهم أيها المريد مجرد الكلام، بل الشأن أن تفهم عدم الكلام، لأن العارف يُلَامُ في كل نفس من الأنفاس، وفي كل حال من الأحوال، ومن ملامة الحق لبعض أحبابه ما يُرْوَى في الخبر: أن الحق قال لبعض أحبابه: (**مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني**) إلى آخر ما عاتبه به. وهل ترى أن الله يلوم سوى أحبابه العارفين بهذه الملامة كلا! فلا يلوم إلا من عرفه وحققه في كل شيء شيء. فيكون مطلوبا بالوقوف مع الأدب والفهم عن الله، حتى لا يفوته شيء من حكمة الوقت. والشيء في الجملة أفضل من لا شيء. (**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**) « **البقرة: 286** ».



ثم قال رضي الله عنه:

نِسْيَانُ الْحَقِّ خِيَّانَةٌ، وَالأَشْتِغَالُ عَنْهُ دَنَاءَةٌ

الأمانة عند القوم هي حفظ أسرار الألوهية ودوام المشاهدة. فلهذا كان نسيان الحق عندهم خيانة، وإن كان العارف مطلوبا بالرجوع للناسوت بعد استغراقه في اللاهوت، لكن يرجع إذا تحقق عنده أن الناسوت هو فرع من اللاهوت. وإن لم تتمحض عنده هذه النظرة فلا يحل له الرجوع إليه ولا التمتع به، لأنه يلهيه عن التوحيد المطلق، ويقيمه مقام الإشراك، اللهم إلا إذا رجع له بالله، فلا يحتجب به حينئذ عن حقيقة سره. ولسلطان العاشقين:

وَلَمْ أَلْهُ باللاهوتِ عن حكمِ مظهري ☆ ولم أنسَ بالناسوتِ مظهرَ حكمتي
فعنِّي على النفسِ العقودُ تحكمت ☆ ومني على الحِسِّ الحدود أقيمت

فيكون الكون عنده وإن تنوعت مظاهره لم يخرج عن حياطة اسمه الظاهر.

البحر بحر كما كان في القدم ☆ إن الحوادث أمواج وأنهار

فلا ينسيه حينئذ ذا عن ذا، وكيف ينسى والنسيان موجة من أمواج ذلك البحر، وإن طرأت عليه تلك الموجة فلا تخرجه من حياطة البحر، إنما يعطيها مستحقها كما هو المطلوب. ومن أجل هذا كان النسيان الملازم للأعراض البشرية لا يعد خيانة. ولو كان خيانة لما وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن ما لم يتماد حتى يكون غفلة، والغفلة مذمومة كما تقدم، وربما يشتغل صاحبها عن الحق، ولهذا قال رضي الله عنه: « والأشتغال عنه دناءة ». وعليه

فالمشتغل بما سوى الله ضعيف الحزم، خسيس القدر، دَنِيءُ الهمة، لا شأن له في الملكوت الأعلى. وقدر الهمة على قدر تعلقها. فلو كشف عن مقامه لأشفق من حاله.

الحق عز وجل ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه، ومن أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله في قلبه. ومن اشتغل عن الله وتغفل عنه، فلا يُعْتَبَرُ عند الله دنيا وأخرى، ولا يزكيه ولا ينظر إليه وإن (**قال رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**) « طه : 126 ».

إياك أخي أن تشتغل بغيره إن فتح لك باب النظر إليه، وتعرف لك في خلقه، وإياك أن يردك عنه ما ليس بموجود معه. بل ولو كان هنالك موجود لا ينبغي لك أن يردك عن التوجه إليه واسمع قول من قال:

لا شيء يثني عنائي في محبتهم ☆ ولا الصوارم في الصدور ورماح

ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وما ردّ وجهي عن سبيلك هولُ ما ☆ لقيت ولا ضَّرَاءُ في ذاك مست

ولا حلم لي في حمل ما فيك نالني ☆ يؤدي لحمدي أو لمدح مودتي

قضى حسنك الداعي إليك احتمال ما ☆ قصصت وأقصى بعد ما بعد قصتي

فمن ذاق حلاوة الحضور، لا يجد دونه سرورا حتى يستبدله به، لقول المصنف رضي الله عنه:

الْحُضُورُ مَعَهُ جَنَّةٌ، وَالْغَيْبَةُ عَنْهُ نَارٌ

لا والله إن الحضور معه أعز من تلك الجنة وما احتوت عليه، لأنها لم تساو لحظة من لحظات شهوده.

الحق من وراء ذلك لا يحتمل التصوير إلا من حيث التعبير، لأنه لم يمر على أسماع الخلق ما أشرف من الجنة، كما لم يمر على أسماعهم ما أشد عذابا من النار. ولهذا أخبر المصنف أن الحضور معه جنة والغيبة عنه نار، وهذه العبارات لم توف بغرضه إلا أنه استعملها عند فقدان ما ينوب عنها، وكل من يحصل على مرتبة المعرفة ويذوق حلاوة الحضور مع الله عز وجل، يتعذر عليه فهم ما ذكرناه، مع أن الحضور في الدنيا شبيه بالجنة. لكن من لم ير يوسف لم يعذر يعقوب:

ولو كنت في النعيم وفقدت حسنها ☆ فَنَبْدِلْهُ بالجحيم إذا نراها فيه

ولو كان يعلم السامع أن الجنة وما احتوت عليه رشفة من جماله، وأن كل المحاسن بعض محاسنه، لما استغرب ما ذكرناه على حد ما قيل:

فأدر لحاظك في محاسن وجهه ☆ تلق جميع الحسن فيه مصورا
ولو أن كل الحسن يكمل صورة ☆ ورآه كان مُهَلِّلاً ومكبرا

وقيل أيضا:

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة ☆ في وجهه نسي الجمال اليوسفي
أو لو رآه عائداً أيوب في ☆ سنة الكرى قدما من البلوى شفي
كل البدور إذا تجلى مقبلا ☆ تصبو إليه وكل قَدٍّ أَهْيَفِ
فسبحان من ظهر في المحاسن كلها ☆ فوحد ولا تشرك به فهو واسع

هكذا فلتعرف النفس وإلا فلتصمت.

يا غَافِلاً عن الله أرجع البصر هل ترى في وجود الحق عز وجل من فطور حتى يكون فيه لما سواه من ظهور، (**ثم ارجع البصر كرتين**) «الملك: 3» فلا محالة (**ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير**) «الملك: 4» حيث لا يجد متجليا سوى الواحد الكبير.

الجنة لا تسع العارف فضلا عن أن تسع الحق. والعارف لا يسعه إلا الحق، كما أن الحق لا يسعه إلا العارف. قال ﷺ: (**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**) وقال عز من قائل: (**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**) وهو قلب النبيء لا محالة. فتأمل قول النبي حيث قال: (**لا يسعني إلا الله**) وانظر قول الحق حيث قال: (**لا يسعني إلا قلب عبدي المؤمن**) فلا يسع الوسع إلا الواسع. وذلك شيء من وراء العقل، خارج عن الحصر والقصر. لا تضبطه نقول ولا تحصره عقول:

تنقل إلى حق اليقين تنزها ☆ عن العقل والنقل الذي هو قاطع

ثم قال رضي الله عنه:

الْقُرْبُ مِنْهُ لَذَّةٌ، وَالْبُعْدُ عَنْهُ حَسْرَةٌ

القرب من الله عز وجل لذة لا يمكن التعبير عنها، يشعر بها القريب من نفسه حتى تخرجه لذة القرب المومئ إليها عن كل لذة من شهواته ومألوفاته، بسبب ما حصل له من نسيم القرب ولاح عليه من أنواع الرضوان، حتى ربما يستغنى القريب بما أصاب من لذة الاقتراب عن الوصول نفسه بسبب ما حصل عليه، ولبعضهم:

نهاري أصيل كله إن تنسمت ☆ أوائله منها برد تحيتي
وليلي فيها كله سحر إذا ☆ سرى لي منها فيه عرف نسيمتي
وإن طرقت ليلا فشهري كله ☆ بها ليلة القدر ابتهاجا بزورتي

وإن قربت داري فعامي كله ☆ ربيع اعتدال في رياض أريضة
وإن رضيت عني فعمري كله ☆ زمان الصبا طيبا وعصر الشبيبة

هذا حال صاحب القرب فهو في لذة لا تماثلها لذة، كما أن المتباعد عن الله في حسرة لا تماثلها حسرة.

يروى في الخبر أن (**أهل الجنة في الجنة يعوون كما يعوي أهل النار في النار**) إذا احتجب عنهم الحق عز وجل. والجنة سجن على من لم يكن الحق أنيسه، والنار نعيم على من كان الله جليسه. والنعيم مع البعد جحيم. والجحيم مع القرب نعيم. ولهذا قالت «رابعة العدوية» - رحمة الله عليها - لمن وجدته يذكر الجنة: «التمس الجار قبل شراء الدار».

ما جنة الخلد إلا في مجالسهم ☆ فيها ثمار وأطيار وأدواح

ثم قال رضي الله عنه:

وَالأُنْسُ بِهِ حَيَاةٌ، وَالإِيحَاشُ مِنْهُ مَوْتٌ

المستأنس بالله عز وجل حي، وحياته حياة أبدية مستمرة، حصل على ذلك بسبب مجاورته للحق عز وجل والإستئناس به، «فمن جالس العطار طاب بطيبه».

الحق عز وجل لا يجالس الأموات، أي من عميت بصائرهم، وطمست سرائرهم بوجود الخلق والاستيحاش من الحق. فبسبب معاشرتهم للخلق ماتوا بموتهم. الخلق أموات غير أحياء وخشب

مسندة (**تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**) «الأعراف : 198» ولو كانوا يبصرون لأبصروا وجود الحق الذي هو أقرب إليهم من أبصارهم. لهم قلوب لا يعقلون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. قال ﷺ: (**لاتجالسوا الأموات**).

كل ما سوى الله ميت إلا المستأنس بالله فهو حي لا محالة، ولو بقي في الوجود منفرداً بنفسه، فإنه لا يستوحش لكونه مستأنسا بالله. نعم هو الآن وحده. «وللجيلاني» - رضي الله عنه - في هذا المعنى:

حضرت مع الأقطاب في حضرة اللقا ☆ فغبت به عنهم وشاهدته وحدي

فمن أجل هذا كان العارف لا يستوحش من شيء لحضوره مع محبوبه في كل شيء. ولو فقده لاستوحش وضاق به الوجود ولو كان بين المَلإِ الأعلى. ولهذا تجد المستأنسين بالله في غنًى عن الخلق من كل الوجوه.

قال «أبو الأشهل» - رحمة الله عليه -: «رأيت غلاماً بطريق مكة - شرفها الله تعالى - قائما يصلي عند بعض الأميال، قد انقطع عن القافلة فوقفت أنتظره فأطال، فلما سلم قلت له: السلام عليك! قال: وعليك السلام! فقلت له: إنك انقطعت عن الركب، ألك رفيق يؤانسك حتى تلحقه؟ فبكى وقال: نعم. فقلت له: وأين هو؟ فقال: أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي. قال: فعرفت أنه عارف وقلت له بعد: أمعك زاد؟ قال: نعم. قلت: فأين هو؟ قال: في قلبي، إخلاص لربي. فقلت له: هل لك في مرافقتي؟ فقال الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أحداً يشغلني عنه طرفة عين. فقلت له: من أين تأكل؟ قال: الذي غذاني في ظلمة الأحشاء صغيراً قد تكلف برزقي

كبيرا، فمتى احتجت إلى الطعام والشراب حضر بين يدي. فقلت له: هل لك حاجة؟ قال: نعم، إذا رأيتني بعد هذا اليوم فلا تكلمني. فقلت له : ادع لي. قال: حجبك الله عن كل معصية وشغلك بما يقربك إليه. فقلت له: فأين اللقاء بعد هذا اليوم؟ قال: ما بقي بعد هذا اليوم لقاء، فإن كنت من أهل القرب فاطلبني غداً في منازل المقربين. ثم غاب عني، فلم أره بعدها».

فانظر يا أخي حال المستأنسين بالله. لا تؤلمهم الأقدار، ولا تستوحشهم القفار.

وقد سئل الشيخ «ماجد الكردي» - رحمة الله عليه - عن الأنس. فقال: «من اشتاق لربه تبارك وتعالى فاسمه آنس، ومن أنس طرب، ومن طرب قرب، ومن قرب سار، ومن سار حار، ومن حار طار، ومن طار قرت عينه بالإقتراب».

ولهذ قال المصنف رضي الله عنه:

الْفُتُوَّةُ أَنْ لاَ تَشْتَغِلَ بِالْخَلْقِ عَنِ الْحَقِّ

الفتوة النافعة أن لا تشتغل بما سوى الله عن الله. أي بالفاني عن الباقي، لأن الخلق زائلون لا محالة، وكل من وقف معهم احتجب عن الحق. والفتوة هي أن تغيب عن الغير في شهود الواحد الكبير. «ما خلقت الأشياء لتراها ولكن لترى فيها مولاها». قال في الحكم العطائية: «أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات». **(قل انظروا ما ذا في السموات)** «**يونس : 101**» فتح لك باب الإفهام ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام.

مـــا بنيت لـــك العـــوالم إلا ☆ لتراهـــا بعين مـــن لا يراهـــا
فـارق عنهـا رقي مـن ليس يرضى ☆ حالـــة دون أن لا يرى مولاهـــا

إياك أخي الوقوف مع ظاهر الأشياء فإنها قائلة بلسان حالها (**إنما نحن فتنة فلا تكفر**) « البقرة : 102 » فمن نظر الكون من حيث باطنه كان عليه رحمة، ومن نظره من حيث ظاهره كان عليه نقمة (**باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**) « الحديد : 13 ». ولهذا كان الاشتغال بالخلق مذموما، وكيف لا يشتغل بالخلق من عميت بصيرته عن الواحد الحق. فهو لا يرى إلا العبيد بخلاف المشتغل بالحق، فهو فارغ القلب من غيره، وفي ذلك قلنا:

فمن عرف التحقيق غاب عن غيره ☆ فصـــار لـــه شغلا لم يرض بتركـــه

فالعارفون اشغتلوا بالله عز وجل حتى صار لهم دينا ودنيا، وقد قيل في هذا المعنى:

كانـــت لقلبي أهـــواء مفرقـــة ☆ فاستجمعت مذ رأتك العين أَهْوَائِي
فصـــار يحسـدني من كنت أحســـده ☆ وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركـت للنـــاس دنيـــاهم ودينهـــم ☆ شغـــلا بـــك يـــا ديني ودنيائي



ثم قال رضي الله عنه:

الْفُتُوَّةُ رُؤْيَةُ مَحَاسِنِ العَبِيدِ، وَالْغَيْبَةُ عَنْ مَسَاوِيهِمْ

من صفاء القلب رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم، إلا أن مراتب العارفين انحصرت في نظرات ثلاثة، وكلها راجعة إلى الفتوة على أقسامها: فرتبة المريدين الفناء في أفعال الحق والغيبة عن أفعال الخلق. فإن تحقق المريد في هذه الرتبة لم يجد للخلق مساويء لغيبته عن أفعال الخلق في شهود الفاعل لها وهو الحق عز وجل، وإن تعددت الأفعال، فالفاعل لا يتعدد. قال سلطان العاشقين في هذا المعنى – رضي الله عنه – بعد أن كرر كلاما في ظهور الأفعال على اختلافها وتباينها من طاعة وعصيان، وشرك وإيمان، وربح وخسران، ووجود المتضادين في آن واحد:

وفي الزمن الفرد اعتبر تلق كل ما ☆ بدا لك لا في مدة مستطيلة
وكل الذي شاهدته فعل واحد ☆ بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره ☆ ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة
وحققت عند الكشف أن بنوره اهـ ☆ ـتديت إلى أفعاله بالدجنة

ولهذا يقال: «من نظر الخلق بعين التحقيق أعذرهم، ومن نظرهم بعين التشريع مقتهم». وينبغي لطالب الله أن تكون له عينان: فعين الحقيقة يرى بها الخلق، وعين الشريعة يرى بها نفسه ليقوم بأدب الحق. وقد قيل: إن العارف اللسان يجد والقلب يود لغيبته عن عمل الخلق في شهود العامل لها. ولا يطيق المريد أن يرى محاسن الخلق بدون أن يفنى في شهود الأفعال لوجود المخالفة

الجارية في نظره إلا إذا دخل هذا الميدان، وتخلق بهذا الشأن، ورد الأشياء لأصولها والأفعال لفاعلها، فيجد الكل حسنا لا محالة لما قيل:

وكل قبيح إن نسبت لفعله ☆ أتتك معاني الحسن فيه تسارع

فبهذه النظرة يجد الكل حسنا لا غير، ويقول كمن قال:

الكل جمال الله ليس فيه شك ☆ إلا وُشَاةُ النهى غلب عليهم الشك

يا قاصد أعين الخبر إن حققت زال الشك ☆ الذات عين الصفات ما في المعاني شك

وإن لم يصل المريد إلى هذه الرتبة فهو على كل حال مطلوب بالكف عن تتابع مساويء الخلق، لأن مساويه أكثر من غيره لو أنصف من نفسه، ولو رجع إلى فعله من أوله إلى أخره لوجد فيه ما يغنيه عن مساويء العبيد. قال سيدي «عبد الرحمن المجدوب» - رحمة الله عليه -:

آش اداني في الناس آش ادى الناس في

العيب اللّي راه في الناس مجموع راه في

وقال أيضا: إن الإنسان إذا أشار بأصبع إلى غيره فإن الأصابع الثلاثة من يديه يشيرون إليه. ولولا ستر الله لافتضح كل من في الوجود:

ولو كشف الإله عيبك للورى ☆ لرأت الخلائق منك العجائب



ثم قال رضي الله عنه:

عَيْشُ الْأَوْلِيَّاءِ فِي الْدُّنْيَا عَيْشٌ طَيِّبٌ، فـابـدانـهـم تَتَمَتَّعُ بِأَثَرِهِ، وَأَرْوَاحُهُمْ تَتَنَعَّمُ بِنَظَرِهِ

أولياء الله عز وجل وصفوته من خلقه عيشهم في الدنيا عيش خصيب. فأجسامهم تتنعم في آثاره وبدائع حكمته ولوامع صفاته. ومن ذلك فتح لأرواحهم باباً من الملكوت الأعلى، فهب عليهم نسيم من الجبروت الأسنى، فانتعشت الأرواح وتمتعت الأشباح. وكيف لا وهو نسيم الاقتراب المقتضى لرفع الحجاب. ولبعضهم رضي الله عنه:

نسمة هبت لنا من حي مي ☆ رفعت قوتها كل الغطي
أشرقت والله شمس ذاتها ☆ فمحت ظل السوى عن مقلتي
لامني عاذلي فيها سفها ☆ فهو معذور لأنه خلي
آه لو ذاق لذيذ شربها ☆ لغدا يسمو بها في كل حي

وقد قلت في ذلك:

ترانا بين الأنام لسنا كما ترى ☆ تالله لفوق الفوق أرواحنا تجلى
لنا من عقل العقول عقل فيا له ☆ جوهر فريد الحسن يعتبر عقلا
لا يعقل ما سوى الله جل ثناؤه ☆ فهذا هو العقل يعقل ولو قلّا

عند ما هب عليهم نسيم الإتصال فتحت الأبصار ورفعت الأستار، وأشرقت الأرض بنور ربها، وفجرت الأنهار، أنهار السرور من البطون والظهور، والغيبة مع الحضور، تبسمت أركان الوجود القائم بها كل موجود، ذلك نهر من ماء غير آسن، هو نفس التلوين (**تبارك الله أحسن الخالقين**) «المؤمنون : 11» حياة الوجود، وروح

الودود. (**وجعلنا من الماء كل شيء حي**) « الأنبياء : 30 » ونهر من لبن لم يتغير طعمه، وإن مع وجود التلوين فهو واحد في اثنين، مستخرج من بين فرث ودمٍ (**مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان**) « الرحمن : 20 » ذلك نهر اللبن الخارج من بين اثنين، الجامع بين المتناقضين، المأخوذ بسهم الأفكار، وصفاء الأسرار من بواطن الموجودات (**نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون**) «المؤمنون: 21» ونهر من خمر الإيقان المتخذ منه سكراً ورزقا حسنا. سكراً للعاشقين ورزقا للموحدين، الناس فيه فنون. هذا به هيام وهذا به جنون. (**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**) « النساء : 43 » ونهر من عسل مصفى، من صفاء التوحيد، وسقوط التقييد، المستخرج من وحي الإلهام مع دقة الأفهام. (**وأوحى ربك إلى النحل**) نحل الأرواح (**أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون**) جبال الأشباح (**ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً**) « النحل : 68 - 69 » أي ثمرات التلوين حسب مقتضى صفة التكوين (**واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين**) « الروم : 21 ».وبعد تمكن الأرواح من أواني الأشباح (**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**) « النحل : 69 » أي لمن لا يتقيد بالإحساس واختلاف الأجناس، فعند ذلك أخذت الأفكار، وسلكت سبل ربها من سر الأزهار (**تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل**) « الرعد : 4 » فيا له من ميدان حارت فيه الأذهان وقصر البنان، وإن

نطق اللسان نطق بـ « ليس في الإمكان أبدع مما كان ». فيا سبحان الله، الماء واحد والزهر ألوان. فمن كشف له الله عن حقيقة الأثر وما احتوى عليه من أسرار المؤثر فاز بكل خير.

فكيف لا تتنعم أجسام أهل الله في أثره وأرواحهم في مشاهدته! وقد تقدم لك ما اختصهم الله به من العلم (**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**) « الزمر : 10 » فكيف لا تتنعم الأبصار في بدائع هذا الأثر، أم كيف لا تتشوق الأفكار لما بطن فيه من الأسرار! خصوصا لما علمت أن المؤثر تستر بوجود الأثر، تشوقت أرواحهم وطاشت أسرارهم حيث دعاهم من (**ليس كمثله شيء**) (**ألم نكن معكم قالوا بلى**) « الحديد : 14 » طرق قلوبهم طارق العناية الأزلية (**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**) « والتين : 4 » فيا حبذا ما حصلوا عليه، وما أحسن قول « عثمان ابن مرزوق » حيث سئل عن حقيقة السر ما بين العاشق والمعشوق قال: إذا هبت رياح السعادة، وألقى برق العناية على رياض القلوب، وأمطر ودق الحقائق من جلال سحائب الغيوب، ظهرت فيها زهرة قرب المحبوب، وينعت بهجة أنوار نيل المطلوب، فوجدت ريح القرب في لذة المشاهد، واستجلاء الحضور في التقدم بالسماع، وأنست نار الهيبة التي قد أضرمها صفو المحبة مع الشخوص عن الأنس إلى نور الأزل بصولة الهيمان، وقامت بقدم البقاء في خلوة الوصل على بساط المسامرة بمناجاة يشيب بها الكون بصفاء اتصال تغرف نهاية الخبر في بداية العيان، وتطوي حواس الحدوث في بقاء الأزل، هناك رسخت أرواحهم في غيب الغيب، وغاصت أسرارهم في سر السر، فعرفهم

مولاهم ما عرفهم، وأراد منهم مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحار العلم اللدني بالفهم الغيبي لطلب الزيادة. فانكشف لهم من مذخور الخزائن تحت كل ذرة من ذرات الوجود. علم مكنون، وسر مخزون، وسبب متصل بحضرة القدس، يدخلون منه على سيدهم عز وجل، فأراهم من عجائب ما عنده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال رضي الله عنه:

أَبْنَاءُ الدُّنْيَا تَخْدُمُهُمُ الْعَبِيدُ وَالإِمَاءُ، وَأَبْنَاءُ الآخِرَةِ تَخْدُمُهُمُ الأَحْرَارُ وَالْكُرَمَاءُ

الدار داران: دار عاجلة ودار آجلة، دار الدنيا ودار الآخرة. والناس قسمان: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. فأبناء الدنيا في دنياهم حائزون للفخر والرئاسة والجاه، وتخدمهم العبيد والإماء لا غير، ولا يخدمهم إلا من كان من جنسهم، أي من أبناء الدنيا، فهم عبيد على كل حال، وليس لهم سيطرة إلا على من كان من حزبهم ممن يريد أن يتعزز بالفاني، ويرى أن عز الدنيا دائم. وهذا غاية في قصوره (**أيبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعا**) « النساء : 139 » وأما أبناء الآخرة فهم في روضة لا خبر لهم بالدنيا ولا بأهلها، ولا بمالكها ولا بمملوكها، والكل عندهم في خوض يلعبون... دخل بعض الوزراء على مولانا « عبد القادر الكيلاني » - رضي الله عنه - وهو

في مجلسه، فأقبل الشيخ عليه بالكلام الغليظ الذي لا مزيد عليه، ولما انصرف الوزير تكلم معه في ذلك بعض أصحابه وقال له: أغلظت عليه بالكلام، ألم تجد عبارة أسهل من ذلك؟ فقال الشيخ - رضي الله عنه -: إنه من أبناء الدنيا ولا حاجة لنا بها ولا بأهلها. أو كما قال - رضي الله عنه -.

أنظر - بارك الله فيك - كيف كان غناؤهم عن الكل لما هم عليه من أنواع القربات، والإقبال على الله والأنس به. ولو أرادت الدنيا أن تخدمهم ما رضوا بخدمتها، لأنها ليست أهلا لخدمتهم، وليس لها نشر في مجلسهم. فكانت الدنيا تطلبهم لأنها أمرت بطاعتهم كما أمروا بالزهد فيها. يقول الحق تبارك وتعالى: (**يا دنيا أخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك**) فلهذا زهدوا فيها وقصدوا الله، فطلبتهم الدنيا فلم تجدهم، فأخذت في طلبهم لتخدمهم خشية أن تخرج عن طاعة الله حيث أمرها بخدمتهم، ولما طلبتهم وجدتهم أحرارا كرماء سبقوها لذلك الشأن (**والسابقون السابقون أولائك المقربون**) « الواقعة: 10 - 11 » ولا زالت تتملق لهم وتسألهم المسامحة لأن تخدمهم وهم في غنى عنها وعن خدمتها، حيث أبدلهم الحق تبارك وتعالى بما هو أشرف منها من الأحرار الكرماء.

وأنت ترى من عهد النبوة إلى يومنا هذا المنتسبين إلى الله تخدمهم خيار الخلق، أي ممن هم من جنسهم المشرفين على مقامهم من غير أن يطلبوا منهم ذلك. وإنما سخر لهم قلوب العبيد تعظيما وإجلالاً لجنابهم، وتراهم بين الأنام والأنوار تلوح على جباههم من سر الشهود (**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**) « الفتح: 29 ». وقد قال فيهم صاحب الحكم نفسه:

ما لـذة العيش إلا صحبـة الفقرا ☆ هم السلاطين والسـادات والأمراء
فـاصحبهم وتـأدب في مجـالسهم ☆ وخـل حَظَّك مهمـا خلفوك ورا

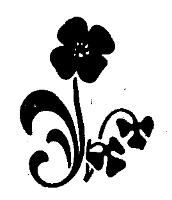
فأهل الله هم الملوك لا محالة وما سواهم حقير كائنا من كان ولو ملك الدنيا بأسرها. وقد قال بعضهم في هذا المعنى:

للقـوم سر مع المحبـوب ليس لـه ☆ حد وليس سوى المحبوب يحصيه
بـه تصرفهم في الكائنـات فما ☆ شاء شاؤوا ومـا شـاؤوا ينهيـه
إن كنت تعجب من هذا فلا عجب ☆ لله في الكـون أسرار ترى فيـه

لا ملك أعظم من ملكهم، ولا شأن أعظم من شأنهم، فشأنهم هو الشأن وما سواه امتحان.

مسكين من فاته ما هم عليه لأن من فاته ما هم عليه ينبغي له البكاء والانتحاب. كما قال سلطان العاشقين - رضي الله عنه -:

وفي سكرة منها ولو عُمْر ساعة ☆ ترى الدهر عبداً طائعا ولك الحكم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا ☆ ومن لم يمت سكرانا بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره ☆ وليس له فيها نصيب ولا سهم



ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ حُرِمَ احْتِرَامُ الأَوْلِيَاءِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِالْمَقْتِ بَيْنَ خَلْقِهِ

أولياء الله عرائس الله في أرضه، ومن غيرته عليهم أخفاهم في خلقه تحت قبابه لا يطلع عليهم أحد غيره، وهم أهل القرب والعناية. قال غيرة عليهم: (**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**) ومن بارز الله باء بغضبه.

أولياء الله أمناء الله في خلقه، وبدل أنبيائه وسفرائه، فمن اطلع على أحد منهم ولم يحترمه ابتلاه الله بالمقت بين خلقه، لأن احترامهم واجب على كل مؤمن بإضافتهم لله ورسوله. قال ﷺ: (**غابتان مسمومتان لا يسلم من طعنهما: أهل بيتي وأولياء أمتي**). فمن خاض في أعراضهم تعرض للهلاك، لأن لحومهم سم قاتل. وليس على المؤمن إلا احترامهم وأن يسعى في السلامة حيث وجدها. لأن الله غيور على أهل نسبته ولو كانوا كاذبين، فكيف إذا كانوا صادقين. وقد قلت فيهم:

هم العروة الوثقى بهم فتمسكن ☆ هم أمان أهل الأرض في الخلا والملا

وما ضربت الذلة والمسكنة على بني إسرائيل إلا بسبب عدم احترامهم لأنبيائهم وأوليائهم فصاروا كما سمعت عنهم (**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**) المشار إليهما (**وباؤوا بغضب من الله**) « البقرة: 61 » وقد قلت:

فمن عظم أهل الله كان معظما ☆ ومن هانهم فقد تعرض للمكر

إياك أخي أن تشتغل بأهل نسبة الله في حالة كونهم مشتغلين بالله. وإن كان ولا بد من الاشتغال فاشتغل بنفسك وبملامتها، وملامة أهل المعاصي المرتكبين للفظائع، لعل الله يجعل الخير على يديك، وتدخل فيمن قال فيهم عز من قائل: (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**) « **آل عمران : 110** ».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ قَطَعَ مَوْصُولاً بِرَبِّه قُطِعَ بِهِ، وَمَنْ شَغَلَ مَشْغُولاً بِقُرْبِهِ أَدْرَكَهُ الْمَقْتُ مِنْ حِينِهِ

أي من تسبب في قطع موصول بربه أو أشغل مشغولا بقرب الله عن قربه فقد تعرض لمكر الله، وإنه لا محالة يدركه المقت من حينه، ويقطع به ويسقط من عين الله عز وجل، لأن أولياء الله يكونون حالة قربهم واشتغالهم بالله في غيبة عن الخلق، ومن تسبب في إرجاعهم لما خرجوا عنه فقد تسبب في قطع الوصلة بين الحبيب ومحبوبه. فاحذر أيها المريد من ذلك فإن الله عز وجل غيور على عباده الموصولين به.

فحافظ - بارك الله فيك - على إعانتهم فيما هم عليه، وبادر في خدمتهم وإحسانهم ومواساتهم ما استطعت.

تسبب في نفع الخلق تحض بنفعهم ☆ خُصُوصًا عبيد الله من بـه شغلوا

أي خصوصا المنقطعين في الخلوات، المشتغلين بالإسم الأعظم الفانين عن الخلق المستغرقين في شهود الحق، الشاخصين إلى عظمته. فإن أردت السلامة أخي فتسبب فيما يجمع همتهم على الله، ويقوي عزيمتهم، (**والله في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه**).

الفصل السادس عشر

في أقوال القوم بعد فنائهم



قال رضي الله عنه:

الْصَّحْوُ وَالْمُرُوءَةُ مُوَافَقَةُ الإِخْوَةِ إِلَّا مَا يُحَذِّرُهُ الْعِلْمُ

الصحو والسكر من أحسن مقاصد المريدين، إلا أن السكر مقدم، وقد تقدم الكلام عليه وهو المعتمد، إذ لا يكون الصحو إلا بعد التمكن في السكر، وإذا تحقق سكر المريد في مقتضى التوحيد بما يسمى سكرا عند القوم، فيكون مطلوبا بالرجوع إلى البقاء وهو المعبر عنه بالصحو، وذلك مما يشق على المريد في الغالب مما هو عليه من وجود الاصطلام، ولما كان لسان المعرفة يدعو إلى الثبات بعد الفناء كما تقدم، تعين الرجوع. وقد يسوغ له ذلك، لكن تتعذر عليه موافقة الإخوة فيما يحذره العلم. وقد يحذر العلم من كل كلام غير معقول المعنى أو فيه رائحة الهلاك. وليس للمريد في ذلك الوقت إلا بما يجب خلافه، لكن الصحو والمروءة يقتضيان موافقة الإخوة، لأن في مخالفتهم الضرر البين، ولن يصاب العارف بسبب إفشائه بعض الحقائق إلا من هذا الباب، أي بسبب عدم موافقة الإخوة فيما يحذرونه، ويكون ذلك مخلا بمروءته، وفيما وقع فيه « الحلاج » – رضي الله عنه – من إفشاء بعض ما يجب كتمانه بعد أن حذره إخوانه كالشيخ « الشبلي » والشيخ « الجنيد » وغيرهما، ومن عاصرهم من الأصدقاء كفاية:

بالسر إن باحوا تباح دمائهم ☆ وكذا دماء البائحين تباح

ومما نقله شارح رائية « الشريشي » عن « ابن خلدون » – رحمة الله عليهما – : أن الحلاج قتل بفتوى أهل الشريعة وأهل الحقيقة. ثم قال : إنه باح بالسر فوجبت عقوبته. وقال الشيخ « أبو العباس بن البنا » – رضي الله عنه – : اتفق على قتل الحلاج الجميع بعد أن اختلفوا فيه. وممن اختلف فيه الجنيد والشبلي والجريري ، فإن هذا أفتى بضربه وإطالة سجنه، وأفتى الجنيد والشبلي بقتله. وقد قال الحلاج نفسه : « ما على المسلمين إلا قتلي ». وقد روى ذلك الشيخ « أبو محمد بن عبد السلام المقدسي » – رضي الله عنه – قال : دخل الحلاج يوما إلى جامع « المنصور » ببغداد وقال : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا مني حديثا ، فاجتمع عليه خلق عظيم ، فمنهم محب ومنهم منكر ، وقال : اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني. فبكى القوم، فتقدم إليه « عبد الله الودود » الزاهد وقال : يا شيخ كيف نقتل رجلا يصلي الخمس ويصوم، ويقرأ القرآن؟ فقال : يا شيخ المعنى الذي يبيح الدماء خارج عن الصلاة والصيام وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وتستريحوا، فعندئذ تكونون أنتم مجاهدين وأنا شهيدا. ثم ذهب ، فتبعته إلى داره وقلت له : يا شيخ ما معنى هذا ؟ فقال : يا فتى ما على المسلمين إلا أن يقتلوني ، واعلم أن قتلهم إياي قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة، وان من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود. وفي معنى ذلك قلت :

أباحت دمي إذ باح قلبي بحبها ☆ وحل لها في شرعها ما استحلت

وما كنت ممن يظهر السر إنما ☆ عروس هواها في ضميري تجلت

فشاهدتها فاستغرقتني بفكرة ☆ فغبت بها عن كل شيء وجملة

وحلت محل الكل مني بكلها ☆ فإياي إياها إذا ما تبدت

ونمت على سر فكانت هي التي ☆ عليها بها من البرية نمت

إذا سئلت من أنت قلت أنا الذي ☆ بقائي إذا أفنيت فيك هويتي

إذا الحق في عشق كما أن سيدي ☆ هو الحق في حسن بغير معيتي

فإن أَكُ في سكر شطحت فإنني ☆ حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت

ولا غرو إن وطئت نار تحرقي ☆ ونار الهوى للعاشقين أعدت

ومن عجب إن الذين أحبهم ☆ وقد أغلقوا يد الهوى باعنتي

سقوني وقالوا لا تغني ولو سقوا ☆ جبال حنين ما سقوني لغنت

وروي عنه أنه قال حين القتل والصلب: «اللهم إنك أنت المتجلي من كل وجهة، المتخلي عن كل وجهة، بحق قيامك بحقي، وبحق قيامي بحقك الذي يخالف قيامك بحقي، لأن قيامي بحقك ناسوتية، وقيامك بحقي لاهوتية، وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة لها، فلاهويتك مستولية على ناسوتيتي، غير مخامرة لها، وبحق قدمك على حدوثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقني شكر ما أنعمت به علي، حيث غيبت أغياري بما كشف لي من مطالعة وجهك، وحرمت على غيري ما أبحته من النظر من مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلي تقربا إليك وتعصبا لدينك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت به، فلك الحمد دائما». ثم أنشد:

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي

وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

إن عنـد محـو ذاتي　مـن أجـل المكرمـات
وبقـائي في صفـاتي　مـن قبيـح السيـآت
سئمت نفسي حياتي　في الرسـوم الفانيـات
فـاقتلوني واحرقـوني　بعظـامي الباليـات
ثم مروا برفـاتي　في القبـور الدارسـات
تجـدوا سر حبيبي　في الطوايـا الباقيـات

ثم فعل به ما قيل. الـخ.

ثم قال رضي الله عنه:

الْحَدِيثُ مَا اسْتُدْعَيْتَ مِنَ الجَوَابِ، وَالكَلَامُ مَا صَدَّقْتَ مِنَ الْخِطَابِ

ذكر في هذه الحكمة حد الكلام لمن أراد التكلم. فأخبر أن الحديث ما استدعيت من الجواب، فلا تخرج عن حده ولا تميل إلى غيره. فكل حديث يطلبك بمقتضاه.

إن قلت قـولا فكـن لبيبـا ☆ وكل قـول لـه جـواب

فكل إنسان في كلامه مرهون، وقلبه بلسانه مقرون. فما لا يستدعيك من الجواب إلى فائدة فيه، ولا إلى شخص تحكيه فدعه. فأنت تعلم الحال وما يستحق من الجواب، فإن السائلين على طبقات، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال، فافهم أسئلتهم من كل

الوجوه، فجاوب لما استدعيت له، فيكون حديثك حديثا مفيدا. وكذلك الكلام ما أصدقك من الخطاب، أي إذا أردت الكلام تكلم بما يعود عليك بالصدق، ولا تتكلم بما يعود عليك بضده، فيكون فتنة عليك وعلى من سمعه. قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: (أأحدث بكل ما أسمع منك يا رسول الله؟ فقال: **إلا بحديث لم يبلغ عقول القوم فيكون على بعضهم فتنة، أتريدون أن يكذبوا الله ورسوله!)** فمن أجل هذا يجب على المريد أن لا يتكلم إلا بما يعود عليه بالنفع وعلى غيره، ولا يذكر كل ما علم عنده. قال في الحكم العطائية: «من رأيته معبرا على كل مشهود، وذاكرا لكل معلوم، فاستدل بذلك على وجود جهله». والمعنى أنه ليس بحكيم، لأن الحكيم من نزل الناس منازلها، وأعطى الأشخاص مستحقها، لأن عقول الناس متباينة، وطباقتهم مختلفة، وطعام الرجال يضر بالصبيان. فطعام الأب لا تسعه حوصلة إبنه. فكل طعام معد لأهله، وكل علم مرهون إلى وقته. قال ﷺ: **(إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه، أنكرته أهل الغرة بالله)**. نعم يظهرونه لأهله شيئا فشيئاً، وشيئًا دون شيء. ومن ذكر علمه عند كل شيء فهو جاهل ما يستحقه ذلك العلم من التعظيم، وفي إهانته يحصل من الضرر ما لا يخطر ببال المتكلم به. قال الشاعر:

ولو أن أهل العلم صانوه لصانهم ☆ ولو عظموه في النفوس لعظموا

وقال غيره:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ☆ ولا أنشر الدر النفيس على الرمم

فإن يسر الله الكريم بفضله ☆ وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

جلست مفيداً واستفدت ودادهم ☆ وإلا فمخزون لدي ومنكتم

فإياك أيها المريد أن تتكلم بما لا يعود عليك بالصدق، وإلا تصير عندهم مرجوما بالزور والبهتان، ولم يكفهم ذلك ويقفوا، بل يترقوا إلى سبك وسب من ينتسب لذلك الشأن، فوقتئذ تكون أنت السبب في ذلك. فمن تسبب في شيء فله منه حظٌّ وافر.

فإذا أردت الكلام فتكلم بما يعود بالصدق عليك وعلى أهل سلسلتك إلى نبيك ﷺ. **(فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين)**. وكيف لا تفعل ذلك وأنت ترى سيرة أصحابه، - عليهم تمام الرضى والرضوان - كيف كتموا الأسرار وصانوها وعظموها وبجلوها، وكيف ساروا سيرتهم الحسنة التي يجب علينا الاقتداء بها لقوله ﷺ: **(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)**.

وقد بلغك ما ورد عنهم في كتمان السر، وقولهم في مثل هذا الشأن كثير. فمن ذلك، قول «سلمان الفارسي» - رضي الله عنه -: «لو قلت لكم ما قال لي خليلي محمد ﷺ لقلتم رحم الله قاتل سلمان». ومن ذلك قول إمام هذه الطائفة وأساسها سيدنا «علي» - كرم الله وجهه -: «أعطاني حبيبي محمد ﷺ جرابين من العلم، أحدهما بثثته، والأخر لو قلته لأزلتم هذا عن هذا، وأشار إلى رأسه ورقبته». وقول «أبي هريرة» - رضي الله عنه -: «لو قلت لكم ما أعلم لرميتموني بالفحش». ومن الأقوال المنسوبة لبيت النبوة، قول «زين العابدين» - رضي الله عنه -:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ☆ لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي ☆ يرون أقبح ما يأتونه حسنا

إني لأكتم عن علمي جواهره ☆ كي لا يرى بذى جهل فيفتتنا

قد كتمه أبو الحسن وأوصى به ☆ أن يكتمه من بعده الحسنا

قلت في مثل هذا الشأن:

وإياك والحجاب ترضى بهتكه ☆ فتلك حدود الله حصنا وأقفالا

ومن فشى سر الله باء بغضبه ☆ ومن كتم الأسرار كان مبجلا

ألا في كتمان السر فضل وهيبة ☆ وفخر وتعظيم وعزٌ بين الولا

وكفى بخير الخلق حيث أتى به ☆ من الله مكتوما وكنزا معطلا

أيا أهل إرثه حافظوا على عهده ☆ وصونوا لسره تعظيما وإجلالا

قال « ابن العربي الحاتمي » - رضي الله عنه -: « لا ينبغي للعالم أن يلقي علمه إلا في قلب محتاج إليه عطشان، فإن لم يجد من هو بهذه المثابة فليتربص حتي يجد لعلمه حاملاً، وليصبر صبرا شديدا ولا يضع العسل في قشر الحنظل ».

هذا وأن القرآن نزل للسماء الدنيا، إن لم نقل على قلب « محمد ﷺ » دفعة واحدة، ثم أظهره الله باعتبار الوقائع، وقال لنبيه ﷺ: **(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علما)** « طه: 114 » فكذلك الحقيقة ترد على المريد دفعة واحدة، لكن ينبغي أن يدرجها بلسانه باعتبار الأزمنة والأمكنة، مراعاة لأحوال الحاضرين. قال في الحكم العطائية: « الحقائق ترد في حال التجلي مجملة وبعد الوعي يكون البيان ». **(فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه)** « القيامة: 18 » فقد تبين لك أيها المريد ما صرحنا به، ولوحنا من أقوال أئمتنا الأعلام، وكيفية

تعظيمهم لأسرار الله. فلم يبق لك الآن إلا السير على منهجهم، والمتابعة لأثرهم لتكون من حزبهم (**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**) « المجادلة : 22 ».

ثم قال رضي الله عنه:

أَنْفَعُ الْكَلَامِ مَا كَانَ إِشَارَةً عَنْ مُشَاهَدَةٍ، أَوْ نَبَأً عَنْ حُضُورٍ

أي ما كان منشؤه عن مشاهدة، أو دل عليها وأنبأ عن حضور المذكور وأخذ السامع إليه.

فالكلام الذي لم يجمع على الله لا فائدة فيه. والكلام النافع هو ما برز عن لسان ذاكر، وقلب حاضر، فلا محالة أن يكون له تأثير في قلوب السامعين، لأنه برز من محله وهو القلب، فلا شك يقع فيه أي في القلب. بخلاف الكلام الصادر من غيره، فإنه في الغالب لا يقع فيه، لأنه مصنوع غير بارز من صميم الفؤاد.

والكلام النوراني الصادر من القلب لا يقع إلا في القلب كما ذكرنا، « الأطيار تحن إلى أوكارها ». إن برز الكلام المومئ إليه من القلب سكن في القلب كما وصفنا، بخلاف الكلام الصادر من اللسان فإنه لا يسكن في القلب، وتراه مكسوف الأنوار، مطموس الأثر، عليه صفة بشعة.

أما الكلام الصادر من أهل الله فإنك تجد له سطوة، لأنه بارز من

حضرة الله عز وجل. فلهذا لما يقع على القلوب يؤثر فيها تأثيرا كليا، ويميل بها إلى سواء السبيل، وأن السامع لا يجد محيداً عنه لما يجد فيه من سطوة الألوهية، كأنه تنزيل من حكيم حميد. نعم هو متلبس بكلام الله، ومقتبس منه، ومأخوذ من بحر لا ساحل له وفياض هائل. فلهذا يأخذ كل من حاذاه.

ومنتهى الفائدة أن الكلام النافع هو ما كان صادرا من جسد طائع، وفؤاد خاشع، مركبا من قول وفعل.. وإذا انفرد فإنه يكون معدوم الفائدة، أي طارئا غير سار.

هذا وإن الفقير الصادق لا يكون كلامه إلا دون مقامه بخلاف غيره. ولهذا يقال: إن العارف فوق ما يقول، وغير العارف دون ما يقول.

المريد الصادق لا تخرج سيرته على ما يرضي الله والرسول، فكيف لا يستفاد من كلامه. وقد كتب سيدي « أحمد بن عجيبة » - رضي الله عنه - لبعض تلامذته وقال له: « طالب الوصول لا تجده إلا ذاكرا أو متفكراً، أو تاليا أو مصليا، أو مذكرا أو مستمعا. أوقاته معمورة، وحركاته وسكانته بالإخلاص ملحوظة، إن تكلم فبذكر الله يتكلم، أو بما يقربه إلى الله، وإن تحرك فبالله وإلى الله، وإن سكن فمع الله، متأنسا بالله مشتغلا به، غائبا عن نفسه، ليس له عنها خبر، ولا مع غير الله قرار، أنسه بالله ومجالسته مع الله، التقوى زاده، والقناعة رفاده، ومن بحر العرفان استمداده، قد استغنى بالله عما سواه ورفض وراء ظهره دنياه وهواه، قد اتخذ الله صاحبا وترك الناس جانبا ».

وقال « السهروردي » - رضي الله عنه -: « أهل التصوف على ثلاث طبقات: مريد طالب، ومتوسط طائر، ومنته واصل »؛ فالمريد صاحب

وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب يقين. وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فمقام المريد مقام المجاهدة والمكابدة وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ، وكل ما للنفس فيه منفعة.

ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطلوب بأدب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يترقى من حال إلى حال، فهو في زيادة.

ومقام المنتهي هو الصحو والثبات، وإجابة الحق من حيث دعاه، قد جاوز المقامات، وهو محل التمكين، لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، قد استوت عنده الشدة والرخاء، والمَنْعُ والعطاء، والخفاء والوفاء، أكله كجوعه، ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه، ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق. فمن كانت هذه صفاته فكيف لا يسري كلامه.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ سَمِعَ مِنْهُ بَلَّغَ عَنْهُ

العارف إذا تمكن واستوى على عرش المعرفة، فلا يسمع إلا من الله عز وجل. ومن سمع منه فكيف لا يبلغ عنه. وقد تقدم أن العارف عليه رونق الهيبة والجلال لما فيه من رائحة الحق عز وجل.

كان بعضهم يقول لأصحابه: هلموا إلى علم قريب عهد من الله عز وجل. ومن حقق كلام العارف يجد فيه نسمة لم توجد في كلام

الغير، لأن الحق عز وجل يلوح على لسانه، وقد يشتد ظهوره بصفة الكلام على العارف حتى يكون الحق عز وجل هو المتكلم بلسانه كما هو معلوم من طريق القوم، وأنه عز وجل ليشتد ظهوره في العارف حتى قيل: « لو كشف عن نور العارف لَعُبِدَ من دون الله ». ولهذا لما أظهر الله عز وجل البعض من نوره على ذات « عيسى » عليه السلام عبده النصارى من دون الله. فمن حيث ما أظهر عليه من النور كان الحق عز وجل هو المعبود على الحقيقة. ولهذا يقال: لو عبدوا ما عبدوا غيره. فكانت مخالفتهم واضحة حيث أنهم لم يؤمروا بتلك العبادة لما فيها من رائحة التقييد، والحق في تنزيه عما يصفون. ومنتهى الفائدة، من أراد أن ينظر في وجه الله فلينظر في وجه العارف إن وجده، وكشف الله له عن معناه.

قال أستاذنا سيدي محمد البوزيدي رحمه الله:

نحن احباب رب والحب فينا منشاه ☆ فلذ بنا تحظ وشم فينا شذاه
إذا عرفت الخالق ترتاح عما سواه ☆ واذا جهلته فينا محال عينك تراه

وأما قول من قال: من شاف العارف شاف من شاف الله. إشارة بعيدة الشقة على السائرين. وأقرب المسالك قوله عز وجل: (**من يطع الرسول فقد أطاع الله**) « النساء : 80 » وقوله أيضا: (**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**) « الفتح : 10 ». فلك في ذلك سر عجيب مأخوذ من قوله تعالى: (**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**) « البقرة : 186 » (**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**) « الاحزاب : 4 ».

ثم قال رضي الله عنه:

عَلَيْكَ فَوْهُ ٱلْعَارِفِ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَوْهُ الْغَنِيِّ بِمُعْتَادِهِ وَمَأْلُوفِهِ

كَأَنَّ الشيخ المصنف يقول: عليك أيها المريد بما يفوه به العارف فإنه لا يفوه إلا بمعروفه، ولا تحسب أن كلام العارف كغيره، تالله لهو أعز من الكبريت الأحمر، لأنه لا ينظر إلا بما احتوى عليه باطنه وحققته بصيرته، أي ما أنزل الله على قلبه، فلا ينطق عن هوى نفسه، بل يعلم أنه قريب عهد من ربه، وخمرة القوم في كلامهم، وسرهم في منطقهم. وقد كان يقول سيدي مولاي العربي الدرقاوي: «الناس خمرتهم في الحضرة، ونحن خمرتنا في الهدرة». ومن قولهم: «تكلموا تعرفوا». لأن العلم يؤخذ من أفواه الرجال، وما سوى العارفين ليسوا برجال.

إياك أخي أن تزهد في كلام القوم إذا جالستهم، بل حافظ على ما يلقونه، واتبع ما يشيرون به، فإن العارف لا يتكلم إلا بما يقتضيه حاله. قال بعضهم في هذا المعنى:

والله ما طلعت شمس ولا غربت ☆ إلا وذكرك مقرون بأنفاسي
ولا شربت زلال الماء من ظمأ ☆ إلا رأيت خيالا منك في الكأس
ولا جلست إلى قوم أحدثهم ☆ إلا وكنت حديثي بين جلاسي

ولهذا تجد العارف تنصب عليه المعارف من كل جانب، فكيف لا يستفيد منه جلساؤه. ولبعضهم:

ولست ملوما أن أبث مواهبي ☆ وأمنح أتباعي جزيل عطيتي

ولي من مفيض الجمع عند سلامه ☆ علي بأو أدنى إشارة نسبة

ومن نوره مشكاة ذاتي أشرقت ☆ علي فنارت بي عشائي كضحوتي

فهذا حال من أخذته الحضرة الإلهية، فإنه لا يغني إلا بحديثها، كمن أخذته حلاوة الدنيا وزخرفها، فإنه لا يفوه إلا بمعتادها لقول المصنف: «فوه الغني بمعتاده ومألوفه» فكل يرشح بما فيه. ما ترشح الأواني إلا بما سكن. فمن أحب شيئا أكثر من ذكره، وأنت ترى الأغنياء إذا جالستهم، فهل يقدر أحد أن يفوه بغير معتاده ومألوفه، بل هو فانٍ في ذلك لا يستطيع الخروج عنه، يكاد يبدي به بدون اختيار منه، ومن لم يشاركه في كلامه ويوافقه في حاله، في الغالب يسقط من نظره، فهو لا يرى شيئا زائداً على ما هو فيه، ولا يرضى بدلاً به، وأي شيء يأخذه الجالس من كلامه. لا يأخذ إلا مجرد الحرص على الدنيا والتأسف على ما فاته منها. فكذلك من يجالس العارف لا يجد على فيه إلا ما هو مكنون في باطنه. ولهذا يقال: «ما فيك يظهر على فيك». فإذا أخذ المريد ما أشار به العارف فلا شك يتأسف على ما فاته من التقصير في طلب الله، وينهض من غفلته ويقول: **(يا حسرتىٰ على ما فرطت في جنب الله)** «الزمر: 53» لأن كلام القوم دواء مجرب، بل كله حكمة **(ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)** «البقرة: 269».

العارف يتكلم بغرائب جلت عن الأفكار. ولسلطان العاشقين في ذلك:

جنى ثمر العرفان من فرع فطنة ☆ زكا باتباع وهو من أصل فطرتي

فإن سئل عن معنى أتى بغرائب ☆ عن الفهم جلت بل عن الوهم دقت

ثم قال رضي الله عنه:

الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ مَا يَلِيقُ بِأَهْلِهِ

العلماء ورثة الأنبياء، وأمناء على سر الألوهية، ومحافظون على مصالح العباد، وما من كتاب نزل على نبي من الأنبياء إلا وهو متضمن مصالح أهل ذلك الزمان، قاطع النظر عن بقية الأزمنة بخلاف الكتاب الجامع، وهو القرآن العظيم، النازل على النبي عليه الصلاة وأزكى التسليم، فهو صالح لبقية الأزمنة لما احتوى عليه من الأسرار والمعارف والأنوار، وبه كان علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء. والمراد بالعلماء، العلماء بالله الذين قعدوا على قواعد الشريعة حيث قعد الغير على الرسوم، فكان لهم الحظ الوافر من حيث الباطن.

أما سواهم من العلماء فقد أخذوا بظاهر الكتاب وتركوا ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ، ففاتهم خير كثير. وبهذه المثابة أي بسبب إرثهم لأسرار النبوءة، كان الحق تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم في كل زمان ما يليق بأهله، ولا يجري على ألسنتهم إلا ما هو مأخوذ من الكتاب والسنة. لأن العلماء بالله وإن كانوا محجورين عن التشريع فهم غير محجورين عن فهم معاني القرءان. فهم يتصرفون فيه كيف شاؤوا، وهم في غنى عما يؤخذ من غيره لعلمهم بمقتضاه وسبب نزوله. ومن هنا استغنى بهم الورى لأنهم بمثابة الرسل في قومهم كما قيل:

فعالمنـــا منهم نبي ومـــن دعـــا ☆ إلى الحق منـــا قـــام بالرسليـــة

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من ☆ أولي العزم منهم آخذ بالعزيمة
وما كان منهم معجزا صار بعده ☆ كرامة صديق له أو خليفة
بعترته إستغنت عن الرسل الورى ☆ وأصحابه والتابعين الأئمة
كراماتهم من بعض ما خصهم به ☆ بما خصهم من إرث كل فضيلة

ولولا وجودهم في العالم من ذا الذي يبدى في كل زمان ما يليق بأهله. فالحق تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم ما كان يجريه على ألسنة أنبيائه وأصفيائه. وأنت ترى ما من نبي بعث في زمان إلا وشريعته مناقضة في الغالب لما سبق من الشرائع، لاختلاف الأحوال والطوارىء الزمانية والظروف المكانية. وبعثة الرسل تتضمن القيام بناموس الحكمة حسب مقتضى الأحوال من كل الوجوه. ولو تأملت في معجزة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، لوجدت كل معجزة يحتاج إليها ذلك الوقت دون بقية الأوقات. ولما كان علماء الأمة المحمدية نوابا عن الرسل في قومهم، ترى الحق يجري على ألسنتهم ما ينفع به أهل زمانهم ديناً ودنيا، والقرءان العظيم لم ينزل إلا بسعادة هذه الأمة، فتراه مشتملا على ناسخ ومنسوخ، ورخص وعزائم. وكل ذلك مراعاة للعوارض والظروف الحاضرة. وفي كل وقت يظهر الله على يد ذلك العالم ما تقتضيه حقيقة ذلك الوقت من علوم ومعارف، لأن الأحكام قد تتغير بتغيير الأوقات. وأنت تعلم من الشرع بالضرورة أن صلاة المسافر ليست كصلاة الحاضر وقس على ذلك، وكل رخصة تؤتى في وقتها، وبشروطها تكون هي عين العزيمة.

ثم اعلم أن في القرءان العظيم أسرارا غريبة لو أظهرها الله على ألسنة العلماء لكانت فتنة على أكثر الخلق. فكل معنى إلا وله وقت

مخصوص والحكمة لا يظهرون بها قبل أوانها . قال تعالى : **(ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما)** « طه : 114 » وكلما تأنى العارف عن إظهار ما هو غريب الظهور ، إلا ويزداد له في الإقبال لوضوح نتيجته « تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور » . أي بعد إحداث الفجور تحدث الأقضية ، ولا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة ، لأن الله جمع في القرءان العظيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وقد يوجد من الآيات القرءانية ما هو كنز مُقْفَل لم ينفذ منه شيء إلا إذا أتى أوانه ، فيبعث الله تبارك وتعالى علماء يجري ذلك الكنز على ألسنتهم لكي ينتفع أهل زمانهم وقومهم به . **(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)** « إبراهيم : 4 » .

ثم اعلم ، أن القرءان العظيم نزل على حروف سبعة وله وجوه ؛ ومن وجوهه الظاهر والباطن ، والحد والمطلع ، فهو ينزل حسب المنازل **(ونزلناه تنزيلا)** « الإسراء : 106 » فأين فهمنا من تلك الوجوه ؟ فترانا الآن نتصرف في بعض من الكل ، ولكل أمة نصيب ، لأنه صالح لسائر الأزمنة غير منسوخ . وسيأتي الله تبارك وتعالى بقوم من بعدنا يأخذون من أسرار القرءان العظيم ما لا يمر على أفكارنا ، وذلك حظهم من خطاب الله ، لأنه تباك وتعالى خاطب بالقرءان العظيم من كان مع محمد ﷺ إلى يوم البعث . فالوحي لا زال ينزل من حيث ما احتوى عليه القرءان العظيم بواسطة ما يجري الله على ألسنة هذه الأمة . وقد وجد في كتب المتأخرين من معجزة النبي ﷺ ما لم يخطر ببال المتقدمين لعدم احتياجهم لذلك ، فكان الحق

تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم ما يصلح بأهل زمانهم، ولكل ماض دواء، ومن جعل الناس سواء ليس لحمقه دواء، ومن جهل أن الطبيب يداوي بدواء واحد فقد وهم، فإن الطبيب يداوي بحسب الأزمنة والأمراض، والأدويـة تختلف بـاختلاف الأمراض بسطـاً وتركيباً. فهذه أمراض الأجسام، فكيف بأمراض القلوب. مثال ذلك، إذا أتى منكر النبوءة من ذوي التاريخ وقال: ما هي معجزة النبوءة عندكم؟ فهل تقول له انشقاق القمر، أو حنين الجدع، أو ما أشبه ذلك؟ فهذه معجزة لا تفحمه، كانت لمن حضر وقته ﷺ. وفائدة المعجزة إعجاز المعارض، ومن كان له فهم في أسرار القرءان العظيم يجد من المعجزات ما لا يحصره عدد، فله أن يقطع حجة كل الخصماء على اختلاف طبقاتهم بكون النبي ﷺ رسول بقيـة الزمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطى لأمته وأجرى على ألسنة علمائها ما يعجزون به كل معارض، فكانت معجزته ﷺ مستمرة، بخلاف بقية الرسل فإنها منقطعة بموتهم.

وحاصل الأمر ينبغي للعالم أن ينظر أحوال المعارض لكي يقيم عليه الحجة من علمه. ولنا من المعجزات البديهة ما يقتضي إعجاز كل معارض. فإن قلت للخصم: إن رسول الله ﷺ أخبر بأنه هو آخر النبيئين وخاتم المرسلين كما أخبر به عز من قائل، فكذب بذلك أهل زمانه، وقد تحقق صدقه الآن حيث مر من الزمان أربعة عشر قرنا ولم يبعث غيره. فهل يوجد لهذا الخبر ناقض؟ كلا! إلا من كان للحق جاحداً. وعلى كل حال فهذه المعجزة تؤثر في قلب المعارض وإن جحدها.

ثم اعلم أن المؤرخين لا ينبغي معارضتهم إلا بما تضمنه التاريخ. وقد يوجد في القرءان ما يعجزهم عن المعارضة، كما أخبر النبي ﷺ: قومه بفتح الأمصار كالشام ومصر والقسطنطينية وغيرها مما لا يدخل تحت حصر. فمن ذلك قوله ﷺ: **(وإذا فتحتم مِصْرَ فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لنا فيها رحما وأصهارا)**. وإنه أيضا قطع قطعة من أرض الشام ووهبها لأبناء تميم الداري وهي الآن معروفة بالخليل. وقوله ﷺ في فتح القسطنطينية: **(نعم الأمير أمير قسطنطينية، ونعم الجيش جيشها)** وهو الآن كما قال، وأخباره بفتح مكة المشرفة، وتصديق الحق تبارك وتعالى له بقوله: **(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون)** « الفتح : 27 ». فكان الأمر كما أخبر به عز وجل. وقد أخبر ﷺ بِانْتِصَارِ الروم على المجوس بعد سنين، وصدقه الحق تبارك وتعالى بقوله: **(آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)** « الروم : 1 ». فكان الأمر على حقيقته بعد بضع سنين. ولك يا أخي أن تجد في القرءان العظيم ما تعجز به كل معارض إن أنصف من نفسه، وإلا تُرِكَ في غيه. وقد اتضحت أكثر المعجزات في زماننا هذا. فمثال ذلك إخبار الحق تبارك وتعالى له « بذي القرنين » وما وقع له مع ياجوج وماجوج وبنائه السد وأنه من مدهشات الأمور، وأنه ممزوج بالحجر والحديد والتراب مع أنه بينه وبين السد من المساحة ما يعجز عنه البشر في زمانهم، وأن الوقتيين زعموا أنهم اكتشفوا هذا السد. وهل هذه إلا معجزة، وقد صرح بها

أكثر علماء الأجانب وأن العلوم المعتبرة التي أخذوها مأخوذة عن الإسلام، خصوصا التمدن الوقتي فهو بعض ما تضمنته الشريعة الإسلامية. وكلما اجتهدوا في القوانين والأحكام والنهي عن المنكرات إلا وتجد السنة المطهرة قد سبقتهم به. وقد حصل لي اجتماع مع بعض من علمائهم فقال لي: إن الاسلام لم يعتبر خواص الانسان والاعتناء بتركيبه. فقلت له: إن ذلك عندنا من مباديء العلوم. فقال لي: وكيف ذلك؟ قلت: إن الله تبارك وتعالى أول ما أنزل على نبيه ﷺ: **(إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)** «العلق: 1 - 5». فانظر كيف نبه الله نبيه في أول هذه السورة على أول خلقة الإنسان، وقد قال في سورة أخرى: **(وفي أنفسكم أفلا تبصرون)** «الذاريات: 21». ثم أنه أخذ يتكلم معي في الفلسفة الوقتية، وذلك كنزول المطر، وجريان السحاب، وكيفية توقف الأسباب على بعضها بعضا، زاعما أن ذلك مما انفردوا به، وأن الأمة المحمدية تصور المحال في مثل ذلك. وأخبرني بخرافات سمعها من ضعفاء العقل أضافوها للشريعة، مع أن شريعتنا مبرأة منها. فقلت له: إن شريعتنا لم تخبرنا بها، وانما أخبرتنا بالحق الذي لا يمكن انتفاؤه. فقال لي: ما تقولون في نزول المطر ومن أين ينزل؟ فقلت له: أقول فيه ما قال الله فيه عز من قائل وأخبر نبيه به ﷺ منذ أربعة عشر قرنا. فقال وما هو؟ فقلت له مخاطبا: **(ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله)** «النور: 43». فقال لي: والله ما لنا على هذه المعرفة من

مزيد. ثم أخذ يتكلم معي في الألوهية، وقد تفرست فيه أنه منكر للألوهية ومتوغل في علم الطبيعة على مذهب الدهرية، ومعتقد أن الطبيعة والعادة هما الفاعلتان لا غير قائلا: لو كان في هذا العالم فاعل لتميز عن فعله، أو خالق لتميز عن خلقه، وأن أرباب الطبيعة والفلسفة فحصوا عن ذلك واجتهدوا غاية الإجتهاد وانتهى بهم علمهم إلى انكار الألوهية، فقلت له: لا أظن أنك بالغ الغاية في هذا الفن. فقال لي: نعم. فقلت له مع ممارستك له لا بد أن يكون لك شك أو ظن بأن في هذا العالم قوة باطنة تكون جابرة وحافظة له من التلاشي والتخريب، وأن هذه القوة الباطنة غير مطلع عليها. فقال لي: نعم. عندي بعض شك. فقلت له: أيصح الشك الذي عندك أن يكون يقينا عند غيرك؟ فقال نعم. فقلت له: أيصح لنا أن نعطي تلك القوة إسما من الأسماء أم لا؟ فقال: يصح. فقلت له: إننا نسميها الألوهية، أو نسميها القدرة التي هي صفة الذات الجابرة للعالم من السقوط. فقال لي مذهبنا لم يبلغ حقيقتها وكنهها. فقلت له: ما ذكرت لك يجب اعتقاده وبه أخبرنا التنزيل. قال عز من قائل: (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) « الشورى: 11 ». فقال لي: إن الإسلام أخذ بعضا من باطني.

وحاصل الأمر إنه قد جرى بيننا كلام أكثر مما ذكرنا، وكله دائر في المحدثات الوقتية، وكنت إذا أردت أن أجاوبه بكلام يزداد يقينا في الإسلام خصوصا لما أطلعته على كتاب جعلته في الفلك الذي سميته (مفتاح الشهود في مظاهر الوجود) فانظره إن شئت، فلك فيه من هذا الفن نصيب، ولا تستغربه يا أخي، فإنه نافع في زماننا

هذا حيث كان مأخوذا من قول المصنف - رضي الله عنه - : « الحق يجري على ألسنة علماء كل زمان ما يليق بأهله».

ومنتهى الفائدة أن علماء الأمة من جنسها (**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً**) « الأعراف : 58 ».

ثم أعلم أن مثل القرءان العظيم مع علماء الأمة (**ولله المثل الأعلى**) « النحل : 60 ». كمثل الكيمياويين مع خواص المعادن الأرضية، وأنت ترى كرة الأرض وما احتوت عليه من المعادن، لأنها خلقت قبل آدم بأحقاب، ومن ذلك العهد إلى يومنا هذا وسكانها الماهرون في معرفة خواصها يكشفون عن معادنها شيئا فشيئا، ولا يكشفون إلا على ما هو مستحق للظهور محتاج إليه في ذلك الزمان.

ومن حكمة الله أنك تجد المعدن الذي خلقه الله تبارك وتعالى يوم خلق الأرض قد مر عليه خلق كثير ولا خبر لهم بخاصيته لعدم احتياجهم إليه، وأن الله لم يخلقه لذلك الوقت، وإنما يكشفون وينتفعون بما يحتاجونه في ذلك الوقت. وأما ما يحتاج في هذا الوقت فقد مرت عليه أحقاب وهو كالمعدوم عند أهل الزمان الماضي، ولما أتى أوانه الآن أظهره الحق تبارك وتعالى على أيدي علماء فن المعادن كما هو مشاهد، فتراهم يستخرجون كل يوم من الأرض ما عجزوا عليه بالأمس، مع أن الكل مخلوق في آن واحد، لأن الله تبارك وتعالى خلقه عند ابتداء خلق الأرض وقصر نفعه على أهل وقتنا هذا (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**) « الحجر : 21 ». فافهم.

ثم اعلم أن الأرض لا بد لها أن تلقي ما فيها، وتستفرغ ما عندها

من الكنوز والمعادن النفيسة حسبما يحتاج إليه سكانها على اختلاف الأزمنة حتى تستفرغ ما عندها، ولم يبق ما فيها إلا التراب الخالص، ويكون ذلك دليلاً على انتهاء حياتها وانقراض سكانها (**وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت**) « الانشقاق : 3 - 4 » فهذه عبارة في المحسوسات، قس عليها في المعقولات. كانت خاصية في الجسم الكثيف أي كانت الأرض تعطي في كل زمان ما يليق بأهله، فكيف بالقرءان الذي يقول الله فيه: (**ما فرطنا في الكتاب من شيء**) « الأنعام : 38 » فلكل زمان قادة، وفي كل مكان سادة. ومن هنا تفهم قول من قال: « إذا كانت المعارف منحا إلهية ومواهب اختصاصية، فلا يستغرب أن يدخر للمتأخرين ما صعب فهمه على المتقدمين ». (**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**) « الأحزاب : 4 ».



الفصل السابع عشر

في أفعال القوم وثباتهم بعد فنائهم

قال رضي الله عنه:

أَسَاسُ هَذَا الشَّانِ عَلىَ الْجَدِّ وَالإِجْتِهَادِ، وَقَطْعِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالأَعْيَادِ

أساس الطريقة ومبني الحقيقة على الجد والإجتهاد لا على التكاسل. فمن وجدته متكاسلا في الطريق مشتغلا بمألوفاته لا يطيق الخروج عن أعياده، ولا عن عوائده وشهواته، فإنه لا يجيء منه شيء، لأنه لم يحقق المقصود. فلو عرف ما قصد لهان عليه ما ترك. فلا بد من النهوض وانزعاج القلب في طلب المحبوب، ومن لم تكن فيه رائحة النهوض فهو عن الحضرة مطرود. وكيف يستطيع القعود من تحقق لديه المقصود. يقول الحق في بعض الأحاديث القدسية: **(ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي)**. ويحكى عن رابعة العدوية - رحمها الله - أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت درعها وخمارها ثم بعد ذلك تقول: « إلٰهي نارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه فهذا مقامي بين يديك». ثم تقبل على صلاتها. فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت: « إلٰهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر،

فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها علي فأعزى، فوعزتك ما أحييتني وأعنتني، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك». ثم تنشد وتقول:

يا سروري ومنيتي وعمادي ☆ وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي ☆ أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي ☆ لما تشتتت في فسيح البلاد
كم بدت منة وكم لك عندي ☆ من عماد ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي ☆ وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييت براح ☆ أنت مني ممكن في السواد
إن تكن راضيا علي فإني ☆ يا منى القلب قد بدا إسعادي

ولبعضهم في هذا المعنى:

بقدر الكد تكتسب المعالي ☆ ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العلى ثم تنام ليلا ☆ اتعبت نفسك في طلب المحال

ومن هنا قال ﷺ: **(من أعز نفسه فقد أذل دينه، ومن أذل نفسه فقد أعز دينه)**. أي من لم يجاهد نفسه ويعالج هواها ويقطع مألوفاتها وأعيادها فقد تهاون بدينه، لأن الدين أتى بمخالفتها وأمر بتهذيبها. وما أحسن قول «ابن العربي الحاتمي» رضي الله عنه:

سبح الإلهك بكرة وأصيلا ☆ فالنفل يرجع بالهدى إكليلا
جاهد هواك ولا تكن ذا فترة ☆ فيه وكن للنائبات خليلا
إن المجاهد لا يزال مكابدا ☆ يهوى الخطوب ويعشق التعليلا
لا تركنن إلى البطالة إنها ☆ تردى وكن للحادثات وصولا

قال بعضهم: رأيت «أبا ميسرة» العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد في الطاعة فقلت له: يرحمك الله، إن رحمة الله واسعة. فغضب وقال: هل رأيت ما يدل على القنوط (**إن رحمة الله قريب من المحسنين**) «الأعراف: 56». فأبكاني والله كلامه.

فتحصل من هذا أن الاجتهاد من شعائر القوم وأُسست عليه قواعد المشاهدة. فمن لم يجاهد لم يشاهد. ولبعضهم في هذا المعنى:

فجاهد تشاهد فيك منك وراء ما ☆ وصفت سكونا عن وجود سكينة

فمن بعد ما جاهدت شاهدت مشهدي ☆ وهادِيَّ لي إياي بل بي قدوتي

القوم لهم أثر في السير لا يخفى على البصير، فمن أراد الانتماء إليهم فينبغي له أن يتصف بأحوالهم، وهل يكفيه الإنتساب بمجرد القول مع التكاسل في الفعل. كلا! وقد قيل:

إلى متى أنت بما يلهيك مشتغل ☆ عن نجح قصدك من خمر الهوى مثل

ترضى من الدهر بالعيش الذميم إلى ☆ كم ذا التواني وكم يغري بك الأمل

وتدعي بطريق القوم معرفة ☆ وأنت منقطع والقوم قد وصلوا

فانهض إلى ذروة العلياء مبتدراً ☆ عزما لترقى مكانا دونه زُحَلُ

فإن ظفرت فقد أعطيت مكرمة ☆ بقاؤها ببقاء الله متصل

وإن قضيت بهم وجدا فأحسن ما ☆ يقال عنك قضى من وجده الرجل

الحزم من شيم العارفين، والكسل من نعت المغترين. كم من كسلان بادر للرجوع من بعد الشروع، ورضي بالوقوف بدل التعرف.

ولبعضهم:

دع التكاسل في الخيرات تطلبها ☆ فليس يسعد بالخيرات كسلان

لا ظل للمرء أحرى من تق ونهى ☆ وإن أظلتـــه أوراق وأغصـــان

وحاصل الأمر، من لوازم المنتسبين إلى الله الجد والإجتهاد، وإن كان المريد لا يصل بعمله، وإنما يصل بمحض الفضل، فهو مطلوب بالاجتهاد والوقوف على جادة الاستقامة، والأسباب المقتضية للإقتراب في الغالب. فعلى العبد الأسباب وعلى الله رفع الحجاب.

قال مولانا الشيخ «عبد القادر الجيلاني» - رضي الله عنه - لبعض تلامذته: «أيها المريد بك لا يجيء شيء» لأن الحضرة الإلاهية جل شأنها، لا يدخلها أحد بعمله. وقد قال ﷺ لأصحابه: (**ما فيكم من يدخل الجنة بعلمه**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**).

فإذا كانت الجنة لا يدخلها أحد بعمله فكيف بحضرة القدس. فلا مدخل على الله إلا من باب الفضل. ومع قول النبي ﷺ: (**إن الجنة لا يدخلها أحد بعمله**) لم يزد الصحابة إلا عزيمة ومكابدة في العمل، خصوصا من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ألا وهو النبي ﷺ، وقد قام الليل حتى تورمت قدماه.

فتحصل من هذا أن عمل القوم وسيرة السلف هي مجرد الامتثال، وعلى الله الكمال.

ومن نعم الله على أحبابه أن ألبسهم حلة الجد والاجتهاد، وجعل ذلك من نعتهم ولوازمهم، كما ألبس المنقطعين لباس العجز عن العمل والتكاسل، ومما يدلك على وجود قرب الحق من عبده إقامته في خدمته، ونهوضه عند أمره، والوقوف عند نهيه، والجد والاجتهاد في طلبه. فجد أيها المريد تجد، وجاهد تشاهد، واحفر تظفر. فلا

يظهر الزبد إلا بعد مخض اللبن. ولا تقف مع النادر، فإن الحكم للكثير. وقد قرنت المجاهدة بالمشاهدة. فشمر عن ساق الجد ما استطعت، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

•

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ خَرَجَ إِلَى الْخَلْقِ قَبْلَ حَقِيقَةٍ تَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَهُوَ مَفْتُونٌ

أي من خرج لإرشاد الخلق ونصب نفسه للتربية قبل أمر محقق يدعوه لذلك فهو مفتون، لأنه خرج للخلق بالخلق أي بنفسه لا بربه، فيكون أمره مردوداً عليه، ويصير خروجه فتنة عليه وعلى من تعلق به، وفي الغالب يكون كلامه غير مقبول لما قيل: « ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار ».

وقد قال صاحب الحكم العطائية: « أدفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه ». أي فائدته معدومة في الغالب لكونه خرج بنفسه. فلا جرم أنه يتعسر الأمر عليه لما قيل: « ما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك، ولا تعسر مطلب أنت طالبه بربك ». ومن أراد الظهور فهو عبد الظهور، ويكون ذلك مخلا بعبادته حيث أراد أن يشتغل بتهذيب الخلق قبل أن يفرغ من تهذيب نفسه. ومن حسن سيرة العارف بالله أن لا يطلب شيئا زائدا على العبودية لما قيل في الحكم العطائية: « مطلب العارفين من ربهم

الصدق في العبودية، والقيام بحق الربوبية». وقال أيضا: «خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك». وليس على العارف إذا تحققت معرفته إلا الوقوف مع آداب الحضرة الإلاهية، وأن يفني وجوده ويضم يده حتى يمدها بالله فتكون حينئذ له لا عليه. قال تعالى للكليم عليه الصلاة والسلام: **(واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء)** «طه: 22». ولو لم يضممها إلى جناحه لما كانت بيضاء وكانت آية للعالمين. ولا يحصل البياض إلا بعد الإنضمام والخمول بين الانام. وقد قيل في هذا المعنى:

ليس الخمول عيبا في الرجال ☆ كما اختفت ليلة القدر في الليالي

فهذا الحكم راجع لمن حصل شيئا من أسرار القوم. وأما من لم **يحصل شيئا ونصب** نفسه للإرشاد فهو مفتر كذاب، **فلا يعد من القوم حتى يصوروا فيه الخروج إلى الخلق أو عدم الخروج، فمتى دخل على الحق حتى يخرج إلى الخلق، فهو من جملة الدجالين وهو مفتون حقيقة.**

أما الأول فهو مفتون من حيث عدم التيسير، لأنه خرج للخلق باختيار نفسه، وقد عقد مع الله عقدة أن لا يتقدم لشيء بنفسه فطال عليه الأمد وسولت له نفسه، وحدثته بأن الخير في الخروج إلى الخلق والاشتغال بتربيتهم، فَفَتَنَتْهُ وكدرت عيشه وأشغلته عما كان عليه من الوقوف مع الحق، والفهم عنه، والمتابعة لمرضاته، وصار يتكلف للكلام ويتظاهر بالمقام، وكل ذلك من فتنة النفوس، أجارنا الله منها.

ثم قال رضي الله عنه:

لِسَانُ الْوَرَعِ يَدْعُوكَ إِلَى الآفَاتِ

لسان الحال يدعو إلى الآفات، أي يقتضي عدم الراحة في الدنيا وتكدر العيش. فمن تورع في أكله وملبسه لا يحلو له شيء لما يراه من وجود الإختلاط، فهو دائما واقف على باب الاختيار. فالمقام عظيم، إلا أنه يحتاج إلى صبر كثير لكونه منوطا بالآفات، فيحتاج إلى معين وهو الصبر كما تقدم، فليصبر الورع، وليرابط على مقامه، وإلا يزول عن مرتبته. فمن لم يتورع في دنياه تكدر عيشه وقد قلت في ذلك:

تورع في طلب القوت يكفيك بعضه ☆ ورابط على الأيام بالصبر تنفذ

وقد كتب « سفيان الثوري » - رضي الله عنه - إلى عابد من العباد قائلا له: اعلم يا أخي، إنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه، ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا إذا ادركناه ونحن على قلة من العلم، وقلة الصبر، وقلة الأعوان على الخير، وفساد من الزمان. فعليك بالخمول، فإن هذا زمان خمول وعليك بالعزلة، فإن هذا زمان العزلة، وقلة مخالطة الناس.

وكان الإمام « علي » - كرم الله وجهه - يقول: « إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته، وإذا أدركت الطالب لها قتلته ».

إن الذين بنوا فطال بناؤهم ☆ واستمتعوا بالمال والأولاد
جرت الرياح على محل ديارهم ☆ فكأنهم كانوا على ميعاد

وكان بعض العارفين يقول: « ما أصنع بالدنيا إن بقيتُ لم تبق لي، وإن بقيتْ لم أبق لها ». وقد قيل:

من نال من دنياه أمنيته ☆ أسقطت الأيام منها الالف

وقال غيره:

إنما هذه الدنيا متاع ☆ والغرور الغرور من يصطفيها
ما مَضَى فات والمؤمل غيب ☆ ولك الساعة التي أنت فيها

وقيل: إن « عمر بن عبد العزيز » - رضي الله عنه - جاءه خراج اليمن ومعه عنبر جميل على اثني عشر بغلا، فأحضر المال بين يديه ثم أمر به إلى بيت المال، وأمر بالعنبر أن يؤتى به، فلما حضر بين يديه سد أنفه، وأمر به أن يدخل إلى بيت المال. فقيل له: إن هذا العنبر لا ينقصه ريحه. فقال: إنما ينتفع منه بريحه، وبعثت له بنته بلؤلؤة وقالت له: يا أمير المؤمنين إذا رأيت أن تبعث لي أختها لأجعلها في أذني فافعل. فأرسل إليها جمرتين ثم قال: إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت بأخت اللؤلؤة إليك.

وكان الإمام « ابن حنبل » - رضي الله عنه - لا يلبس ثوبا مكفوفا، بل كان يشلله ويقور وسطه ويتركه في رأسه ويقول: هذا لمن يموت كثير. وكان أكثر مؤونته من نبات الأرض ويقول: هذا هو الحلال الذي ليس فيه حساب ولا تبعة. وقد حملت إليه الأموال الكثيرة لما خرج من السجن وهو محتاج إلى أيسرها، فرد جميعها ولم يقبل منها قليلا ولا كثيراً. فجعل عمه إسحاق يحسب ما رده في ذلك اليوم. فقال له: يا عمي، أراك مشغولا بحساب ما لا يفيدك،

وورع السلف أجل من أن يتصف به الخلف، فضلا عن أن يتصف به أهل زماننا هذا، إلا أن التشبه بأسلافنا مطلوب، والشيء في الجملة أفضل من عدمه. قال الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ☆ إن التشبه بالكرام نجاح

ثم قال رضي عنه :

وَلِسَانُ الْتَّعَبُّدِ يَدْعُو إِلَى الْدَّوَامِ

أي لسان التعبد يدعو إلى الدوام والاستمرار على العبادة ؛ لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلت. فلسان التعبد ينادي بالثبات على العبادة (**واعبد ربك حتى ياتيك اليقين**) « الحجر : 99 ». (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) « الذاريات : 56 ». فلا تجنح أيها المريد عما خلقت لأجله، فأنت عبد على كل حال، فأقبل عليه طوعا، وإن لم تقبل عليه طوعا أخذك منك كرها لما قيل : « من لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قُيد إليه بسلاسل الامتحان ». فمقتضى العبودية منك أن تكون عبداً على كل حال، كما هو رب لك في كل حال. فتوجه لله - بارك الله فيك - وقل كمن قال :

أنت غاية قصدي ومنتهى أمالي ☆ هل لي سواك من إلَـهٍ يعبد

فرغت قلبي لوجودك مخلصا ☆ حاشا عبيدك عن بابك يطرد

ولا تطلب شيئا زائدا على العبودية، لأن خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك. وكفاك نعمة منه إليك حيث ارتضاك لخدمته، وأسبل سِتْرَهُ عليك. فدم على طاعته، فإنك تموت على ما عشت عليه، وتحشر على ما مت عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

وَلِسَانُ الْمَعْرِفَةِ يَدْعُو إِلَى الْفَنَاءِ وَالْصَّحْوِ وَالإِثْبَاتِ

فلسان المعرفة التي هي غاية العبد من ربه يدعوك أيها المريد إلى الفناء والمحو الدائم عنك، وعن كل نسبة تلازمك، حتى لا يبقى فيك ولا بك ولا منك أثر، لأن المعرفة التي لم تمح أثر العبد ورسومه ليست بمعرفة. فلهذا كان لسانها يدعوك لذلك كما يدعوك إلى الإثبات بعد المحو. لأن الإثبات يكون بالله لا بنفس العبد. فلسان الذات يدعو إلى المحو، ولسان الصفات يدعو إلى الثبات، والعارف بين ما ذكر. والحس لا تجتمع فيه الأضداد، بخلاف المعنى فهي صالحة لكل متناقض. وفي ذلك قال الشاعر:

جمع الأضداد هو مرادي ☆ في جوهر حسنها السليم

فيصير العارف في هذا الحال مفقودا في صورة موجود لأنه تلاشى وزال زوالا كليا حتى إذا صح منه ذلك تولاه الله بنفسه، فقد يتخبَّلُ الغزل على العقلاء في هذا المعنى فضلا عن البلداء، أي على من لم يطلعوا على ما كنته أسرار القوم، فتجدهم في ألفاظهم يثبتون وجود العبد وعدمه، وفنائه وبقائه، وسكره وصحوه. وفي ذلك ما يعجز عنه كل من لم يحقق مقامهم، وله في ذلك من العذر ما للعارف من المعرفة. فمن جهل شيئا عاداه. وكل ما صدر من القوم مما يوهم السامع ويشوش عليه، فهو مأخوذ من الفناء الحاصل لهم بواسطة التجلي الإلاهي المقتضى فناء العبد وتلاشيه من لوحة الوجود. قال « الشرنوبي »: - أطال الله بقاءه - أثناء شرحه على تائية السلوك

في معنى الفناء : « إذا رسخ قدمك أيها المريد وتمكن سرك حال سكرك قلت هو ، وإن غلبك وجدك وتجاوز سكرك قلت أنا » . ومن هنا أشكل على الأفهام حل رموز هذا الكلام . فقائل يقول : زنديق فيقتل ، وقائل يقول صديق فيحمل . وقائل يقول مغلوب عليه فيهمل . فهو من حيث تحقيق حاله محو في علمه ، والذي حكم بقتله مصيب في حكمه إذ الشريعة لها حدود ، فمن تعداها أقيمت عليه الحدود ، والحقيقة لها شهود خارج عن طرق الوجود . والعارف هو الذي لا يخرج عن حد ولا يخلو من وجد .

وقد قال « الشريف » وما أحسن قوله : « ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهرا ويرى الحق باطنا ، فيكون الحق عنده مرآة الخلق ، لإحتجاب المرآة بالصورة الظاهرة ، وذو العين هو الذي يرى الحق ظاهرا والخلق باطنا فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور الخلق عنده ، واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة في الصورة ، وذو العقل والعين هو الذي يرى الحق في الخلق وهو أقرب النوافل ، فيرى الخلق في الحق وهو أقرب الفرائض ولا يحتجب بإحدهما عن الأخر ، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقا من وجه وخلقا من وجه . فلا يحتجب عن شهود الوجه الواحد » .

وفي هذا المعنى قال « ابن العربي الحاتمي » - رضي الله عنه - :

وفي الخلق عين الحق ان كنت ذا عين ☆ وفي الحق غير الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى ☆ سوى عين شيء واحد فيه بالشكل

ومن الغريب ما يطلبه لسان المعرفة من المحو والاثبات في آن واحد لما هناك من رائحة التناقض ، ولولا لطف الله ما استقام سير

العارفين، لما يطرأ عليهم من وجود المحو والذهاب الكلي حتى لم يبق منهم أثر ألبتةً، ومع هذا لم يخرجوا عما طلب منهم من القيام بحقوق الحق عز وجل؛ فترى الواحد منهم ينبئك حاله على أنه لا يطيق أدنى امتثال، ومع أنه جامع بين الأحوال والأعمال، وذلك معلوم من سيرتهم.

ثم قال رضي الله عنه:

ثَبَاتُ الأَقْدَامِ سُلُوكُ طَرِيقِ الإِتِّبَاعِ، وَالإِهْتِمَامُ بِالرُّسُلِ الْكِرَامِ

لما قدم المصنف - رضي الله عنه - الكلام على ما يطرأ على العارفين من تجلي الألوهية حتى يخرجهم عن مقتضى العبودية لما يحصل لهم من التلاشي والامتحاق، فكان الثبات في ذلك المقام والاهتمام بالرسل الكرام عزيزا جداً. وكيف لا وقد خرج المريد بذلك التجلي عن وجوده، وعن كل نسبته التي توجب تكليفه. وإذا كان العبد مفقودا فمن ذا الذي توضع عليه الحدود. وقد قيل في هذا المعنى:

إن قلت عبد فالعبد ميت ☆ أو قلت رب أنى يكلف

ومع ذلك قد يثبت في ذلك الحال، ويعمل بالاجتناب والامتثال بحفظ من الله والعناية الأزلية التي تأخذ بيده، ونور المصطفى ﷺ الذي يحاكيه، وتترادف الخواطر على باطنه ترادفا عظيما (**ولولا أن**

ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) « الإسراء : 74 » . فلسان المعرفة يدعو إلى الثبات كما يدعو إلى المحو ، فهو يناديه : الثبات ، الثبات ! إلى أن تثبت قدمه فيما تكلفت به العبيد ، كما يثبت له القدم في التوحيد ، فينبت عندئذ نباتا حسنا (**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا)** « الأعراف : 58 » . ولا يكون الثبات إلا بعد الثبات ، فتخلع عليه حينئذ خلع القبول ، ويكسى حلة الوصول ، ويكون على سواء السبيل محمولا ، تابعا للشرع معقولا ومنقولا ، وإن كان ما هو عليه من وراء العقول . هذا وان حقيقة الولاية هي التخلق بأخلاق الرسول ﷺ بقدر الاستطاعة ، فتكون الحقيقة حاله ، والطريقة أفعاله ، والشريعة أقواله . ولهذا قال المصنف : « ثبات الأقدام سلوك طريق الإتباع » أي سلوك طريق من تقدم من أسلافنا ، لأن سيرتهم لا تخفى على العاقل . فمن لم يسر بسيرهم يكون غير موصول بمددهم ، ومن ذا الذي يغنى عن القيام بوظائف الدين ، وقد قام بها سيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين ، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه ، ولما قيل له في ذلك ، قال : (**أفلا أكون عبدا شكورا**) .

فمن طلب حصول المرام فعليه بثبات الأقدام . ومن حصلت له النعمة فعليه بتمام الخدمة . ومن لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها .

قال ﷺ : (**قيدوا النعم بالشكر**) ومن أراد الزيادة فليقم بوظائف العبادة (**لئن شكرتم لأزيدنكم**) «إبراهيم : 7 » . وما ألطف قول بعضهم :

لئن شكرتم لأزيدنكم ☆ مقالة الله التي قالها
فالكفر بالنعمة يدعو إلى ☆ زوالها والشكر أبقى لها

وقال بعضهم أيضا :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ☆ علي له في مثلها يجب الشكر
وإن بلوغ الشكر إلا بفضله ☆ وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عَمَّ سرورها ☆ وإن مس بالضراء يعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة ☆ تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وحاصل الأمر أن ثبات الأقدام في الطريق هو سلوك سبيل الرشاد (**أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه**) « هود : 17 » فشاهدُ الحقيقةِ هو سلوكُ الطريقِ. فقد كان القوم عليهم تمام الرضى والرضوان مع وصولهم لعين التحقيق وفنائهم ومحوهم وتلاشيهم، لا يفترون على الأعمال، وبها حصلوا درجة الكمال. وأنت أيها المريد تراهم وتسمع ذكرهم كيف كانوا يكتمون ما أمر الله بكتمانه، ويجتهدون فيما أمر الله بإعماله، فمن لم يسر بسيرهم ويهتم بالرسل الكرام، ويتشبه بأحوالهم، وينظر كيف كان صدقهم وعزمهم وزهدهم وصبرهم لم يجيء منه شيء. ومن اتصف بأحوالهم، فلا جرم أنه يكون من أتباعهم ويصدق عليه لقب « أمين »، ويكون آخذا لسنة سيد المرسلين، ويدخل فيمن (**أنعم الله عليهم من النبيئن والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا**) « النساء : 68 » ومن لم يرض بهذه الرفقة فهو أحق بالشقاء، ولو بلغ ما بلغ. ولا يحسب أن ما حصل عليه من كسبه، فقد يأخذه الله من حيث لا يشعر (**ومن يتعد حدود الله فأولائك هم الظالمون**) البقرة : 229 ». قال ﷺ : (**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها**) وقال أيضا : (**إذا رأيت الله يعطي العباد**

ما يشاؤون وهم مصرون على المعاصي، فاعلم أن ذلك استدراج منه لهم) ثم تلا: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) «الأنعام: 44»
أجارنا الله والمؤمنين من كل سوء.

ثم قال رضي الله عنه:

أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ عِمَارَةُ الأَوْقَاتِ بِالْمُوَافَقَاتِ

المراد بعمارة الأوقات ضبط الأنفاس ودوام الموافقة في كل وقت بما تقتضيه حقيقته، إذ العارف لا يعرف أهو عالم بما يحتاج إليه الوقت من الموافقة أم لا؟ لأن طاعة العارف ليست كطاعة مثله، وإذا كان من عوام المسلمين فعمارة الأوقات تكون في حقه محصورة بين ذكر وفكر، وامتثال واجتناب. ويكون وقته معمورا بأنواع البر لا خاليا منها، ولا يتركه يفوت بغير فائدة، لأن كل وقت له طاعة تناسبه. والإنسان من حيث هو مطلوب بعمارة الأوقات، والوقت مار على الإنسان. فهو إما له وإما عليه. فينبغي أن يكون مفتشا للأحوال ليفصح بما حصل في الوقت المومئ إليه عند الكبير المتعال من غير زيادة ولا نقصان. وما من يوم إلا وينادي: «يا ابن آدم، أنا يوم عليك جديد والحق عليك شاهد». فالوقت لا يترك عليك شيئا إلى يوم القيامة يحصيه عليك وياتيك به (**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**) «**الكهف: 49**» لأنه شاهد صادق، فتراه يطلبك بلسان الحال

في كل وقت وحال قائلا : العمل العمل ! (**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**) « الزلزلة : 7 - 8 » . ولنا في هذا المعنى :

ألا فـوقت المريـد ظـرف لفعله ☆ يملؤه بمـا شـاء فهو لـه شرب

فهو عصير الخمر يعصر مما شـاء ☆ فإن عصر عذبا فيشرب منه عذبا

وقد قيل أيضـا :

أنت بمـا سقيـت شـارب ☆ مـن رحيـق كان أو كـدر

سهمـك في الغير فيـك صـائب ☆ مـا لك مـن نصله مفـر

يـا ذا الـذي ظـن أن يصيب ☆ بسهمـه وهـو لا يصـاب

أبعـدت عـن نفسك القـريب ☆ وأخطـأت في مـوضع الصـواب

ثم قال رضي الله عنه :

مَا فَاتَ لاَ يُسْتَدْرَكُ ، لِأَنَّ الْوَقْتَ الثَّانِي غَيْرَ الأَوَّلِ

أي ما فات من حقوق الأوقات لا يمكن استدراكه ، لأن الوقت الثاني غير الأول ، فهو ناسخ له وأنت مطلوب به ، أي بقيام حقوق الله فيه ، وإذا أردت استدراك ما فات ، فتضيع ما هو آت . وذلك لا يمكن . ولهذا ينبغي لك أن تكون فطنا راسخ القدم ، متمكنا في وجود التلوين ، لأن كل الأوقات عليك ورقات ، وأنت ناسخ فانسخ ما شئت ما طويته لا تنشره اليوم ، وما فات لا تستدركه ، وليس لك إلا الوقت الذي أنت فيه ، فحافظ عليه ، لأنه مار عليك بأسرع مسير ولم يلتفت إليك . فينبغي لك أن تقطعه بأفعال البر ، وإلا قطعك بالبطالة .

ثم قال رضي الله عنه:

ثَمَنُ التَّصَوُّفِ تَسْلِيمُ كُلِّهُ

لكل شيء ثمن، وثمن هذا الشأن بذل الكل. ومن ترك لنفسه أدنى شيء يستعين به في زعمه انقطع عن ربه. فسلم كلك أيها المريد ولا تترك لنفسك شيئا، فإن قبل منك هذا التسليم، فيا حبذا! وقل كمن قال:

مالي سوى روحي وباذل نفسه ☆ في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد اسعفتني ☆ يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وقد قيل: ثمرة حضرة القدس بذل الأرواح والنفوس. فالعارفون لا يصح لهم ذلك حتى يبذلوا الكل فيأخذوا وقتئذ الكل.

ولبعضهم في هذا المعنى:

فنيت كلي في كلك ☆ هذا جزاء من يحبك
عجزت عند خطابك ☆ والكل مني جوابك

أنت تريد أن تترك شيئا لنفسك وتزعم أنك مريد الحق. كلا! ولولا لطف الله ما كان لك شيء، لأن لكل شيء مهرا، تطلب ذات الحق وتبخل بذاتك بل بنفسك، وما لك ومألوفك ومعتادك فلا تصح لك، ولا تصح لك الارادة حتى تسلم فيما تريد (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**) «آل عمران: 92». فطلب الحق لا يصح لك إلا إذا سلمت له ذلك، لان العزيز لا يشترى إلا بالعزيز (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) «التوبة: 111». فهذه

الجنة كانت تحت ظلال السيوف اشتراها من عرفوها وخلقوا لأجلها، اشتروها بأنفسهم وأموالهم حقيقة لا مجازا، سلموا انفسهم للهلاك فقاتلوا وقتلوا، فكان لهم ما طلبوا، وليس ذلك إلا ابتغاء مرضاة الله.

ولبعضهم في هذا المعنى:

إن يكــــن يرضيــــك قتلي ☆ فـــاجعل المـــوت في قـــربي
أنـــــت قصـــدي ومنـــائي ☆ فتعطـــــف يـــــا حبيبي

وأنت تزعم أنك مريد الحضرة الإلاهية، وكشف الاستار عن الأسرار الربانية، ولا زلت تختار؟!. **(ما كان لهم الخِيَّرَةُ من أمرهم)** «الأحزاب: 36». لو كنت تعلم ما أنت بصدده لاشتريته بكلك ومالك في الدين والدنيا، واستحييت بذلك الثمن الزهيد البخس في جانب هذا الشان النفيس.

كفاه كرما أن قبل منك ذلك العوض وهو لا يقبله منك إلا استبدلك بغيره، وإلا لا يصلح لشيء فهو سواد في سواد. أيش أنت وأيش اعمالك؟ ومن أين أتيت ومن أين لك ذلك؟ **(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)** «الأحزاب: 23». خلفوا الكل وراءهم وطلبوا الحق بالحق **(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له)** «مريم: 49». كانت الهبة موقوفة على الاعتزال، ومن لم يعتزل الخلق لم يظفر بالحق. رجال كانوا إذا توجهوا لله تركوا ما سواه. لم يحل لهم ما في الكون طرا. وعند تركهم المزابل دخلوا المنازل. فتقبلهم الحق عز وجل قبولا حسنا.

لا تدعي محبة الله أيها المريد، وفي قلبك حب لغيره، لأنه لا تصح لك محبة حتى يهون عليك كل شيء في طلبه. فلو اتصفت

بهذا الوصف نصف يوم، وعلم الحق ذلك من قلبك لأخذك من بين الخلق وهم ينظرون. الحق يشتاق إليك كما تشتاق إليه. فهو ينظر إلى قلبك، كلما وجده فارغا كليا، أخذه كليا.

ولبعضهم في هذا المعنى:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ☆ فصادف قلبا خالياً فتمكنا

فهو لا يرضاك أن تكون لغيره. فتسبب - بارك الله فيك - واتصف بشعار القوم، فإن التصوف كله صفاء، أو تقول كله أخلاق. وليس هو كما يزعم بعض المتشردين على حد ما قيل:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ☆ ولا بكاؤك إن غَنّي المُغَنُّونَ

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ☆ ولا اضطراب كان قد صار مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر ☆ وتتبع الحق والقرءان والدينا

وأن ترى خاشعا لله مكتئبا ☆ على ذنوبك طول الدهر محزونا

وقيل أيضا:

ولست امنح هذا الإسم غير فتى ☆ صاف فصوفي حتى سمي الصوفي



الفصل الثامن عشر

في الخمــول وفضائلــه



قال رضي الله عنه:

الْخُمُولُ نِعْمَةٌ عَلَى الْعَبْدِ لَوْ عَرَفَ شُكْرَهَا

الخمول نعمة جامعة لأكثر النعم لمن عرفها وحققها وتدبر ما فيها من صفاء الأوقات وحسن الموافقات وأنواع القربات، والأنس بالله والتوجه إليه والاكتفاء بمعرفته. فمن ذاقها وحققها فلا محالة يشكر الله عليها ويستعمل كل الوسائل لدوامها، كما يفر من الشهرة ويستعمل الوسائل المناقضة لها لكي يصفو له الوقت بينه وبين محبوبه، لأن في الشهرة ما يكدر صفوه. وهذا سبيل الصديقين قد استعملوا أكثر الوسائل في ذلك حتى لا يعرفوا من بين الخلق. وربما تعاطوا شيئا مذموما في ظاهر الشرع لأجل التخيل، ولا تحسبنهم يستعملون المنكرات وحاشاهم من فعلها، وإنما يوهمون الغير باستعمالها كما يروى عن بعضهم: أنه دخل الحمام ولبس من ثياب الناس أفخرها وخرج من بينهم لكي ينظروا إليه، فأخذه صاحب الحمام وأخذ يصفعه ويوبخه، واشتهر أمره بالسرقة حتى كان يعرف عند الناس بلص الحمام. ويروى عن غيره، وقيل: هو سيدي «عبد الرحمٰن المجذوب» أو بعض من تلامذته: أنه اشترى عنبا ودخل به لبعض البساتين وأخذ في الأكل فدخل عليه صاحب البستان، فمسكه وأخذ يصفعه وفضحه بين الملأ. وهكذا.

وسيرة القوم - رضي الله عنهم - في مثل ما ذكرنا كخرق العوائد وفعل كل ما تأباه النفس مشهورة، لكي لا يألفهم أحد، إلا من أخذ الله بيده. وكل ذلك عكس نفوس المريدين، لأن النفس قد تسمح في بقية الحظوظ دون الاشتهار. ومن بقيت من نفسه بقية لم يحصل سر الألوهية. وقد قال بعض المريدين يوما لشيخه: إن نفسي تحدثني. قال له أَوَ لَكَ نفس؟ قال: نعم. قال له: المؤمن بلا نفس. فهكذا كانوا يجتهدون في زوال بقيتها من كل الوجوه، وكلما جنح المريد للشهرة لم يتم له الإخلاص في التوحيد. قال بعضهم: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه. وقال رجل «لبشر» - رضي الله عنه -: أوصني. فقال له: أخمل ذكرك وطب مطعمك. وقال بعضهم: لا يجد حلاوة الأخرة من أراد أن يعرف الناس. وقال «الفضيل» - رضي الله عنه -: بلغني أن الله عز وجل يقول في بعض ما يمن به على عبده: (**ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟**) وما أحسن ما قيل في الحكم العطائية: «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه». ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وأخلص لها واخلص عن رعونة ☆ افتقارك من أعمال بر تزكت
وعاد دواعي القيل والقال وانج من ☆ عوادي دعاوٍ صِدْقُها قَصْدُ سُمْعَةِ
فألْسُنُ من يُدّعى بألسن عارف ☆ وقد عبرت كل العبارات كلت
وما عنه لم تفصح فإنك أهله ☆ وأنت غريب عنه إن قلت فاصمت
وفي الصمت سَمْتٌ عنده جاه مُسْكَةٍ ☆ غدا عبده من ظنه خير مسكت
وكن بصرا وانظر وسمعاً وعِهْ وكن ☆ لسانا وقل فالجمع اهدى طريقة

ولا تتبع من سولت نفسه لـه ☆ فصـارت لـه أمـارة واستمرت

فكان مقياسهم في الطريق - رضي الله عنهم - على المريد هو أن يكون ولا شيء، أي لا رتبة له في الوجود (**يا أهل يثرب لا مقام لكم**) « الأحزاب : 13 » . حتى إذا وصل لما ذكرناه تمحضت آنيته لحمل الأسرار.

سئل يوما مولانا « العربي الدرقاوي » - رضي الله عنه - عن مهر الطريق ؟ فقال : إسقاط المنزلة. ومن اللفظ المتداول بين القوم « لا تصلح طريقتنا هذه إلا لمن كنست بأرواحهم المزابل. فمن لم يكن أرضا لم تمطر عليه السماء » . وقد كان عيسى عليه السلام يقول لأصحابه : (**أين تنبت الحبة ؟** فيقال له في الأرض. فيقول : **كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب خامل، ولا تبرز إلا من لسان متواضع ذاكر**) . (**ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض**) « الأنفال : 67 » . وكان « لقمان الحكيم » يقول لإبنه : (**ولا تمش في الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور**) « لقمان : 18 »

وعليه ينبغي للمريد الصادق أن يخمل ذكره ما استطاع، فلا يكون النبات إلا بعد الثبات. والأحاديث الواردة في مدح الخمول وذم الشهرة تغنيك عما نلقيه عليك. فمنها ما يروى عن « أبي أمامة » - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : (**يقول الله عز وجل : إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك ثم نفض يده. فقال : عجلت منيته، قلت بواكيه، قل عزاؤه**).

وعن « معاذ بن جبل » - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**إن يسيرا من الربا شرك ، وأن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وأن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة**).

وروي عن « أبي هريرة » - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ في حديثه الذي نوه فيه باسم « اويس القرني » وبذكره ، ونبه على عظيم أمره - رضي الله عنه - قال : (**بينما نحن عند رسول الله ﷺ في حلقة من أصحابه إذ قال : ليصلين غداً معكم رجل من أهل الجنة. قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبي ﷺ فأقمت في المسجد حتى انصرف الناس فبقيت أنا وهو ﷺ . فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزرا بخرقة ومرتديا بمرفقة. فجاء حتى وضع يده في يد الرسول ﷺ ثم قال : يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة ! فدعا له النبي ﷺ بالشهادة. وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر . فقلت : يا رسول الله أهو هو ؟ قال : نعم ، إنه لمملوك بني فلان. قلت أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله ؟ فقال : وأنى لي بذلك ، إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة ، إن لأهل الجنة ملوكا وسادات ، وأن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم . يا أبا هريرة إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤوسهم ، المغبرة وجوههم ، المخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا**

المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا. قلت : يا رسول الله، كيف لنا برجل منهم؟ قال : ذلك أويس القرني. قلت : وما أويس القرني؟ قال : أشهل، ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام بنظره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرءان، يبكي على نفسه، ذو طميرين، له إزار صوف، ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد أدخلوا الجنة ويقال لأويس القرني قف فاشفع، فيشفعه الله في مثل عدد ربيعة ومضر، يا عمر ويا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه ليستغفر لكما).

فانظر - بارك الله فيك - فضل الخمول وما دلت عليه هذه الأحاديث الشريفة، وراجع سيرة القوم لكي تقتدي بأحوالهم، وانظر كيف كانوا يستترون مع شرف رتبتهم وعلو مقامهم. وكفى ما بلغك عن أويس القرني - رضي الله عنه - وما له من الأوصاف المحمودة والقدر العظيم المشهود له من رسول الله ﷺ، ومن محاسنه اتصافه بالخمول خصوصا لما ظهر برفعة القدر، وانتشار حديث رسول الله ﷺ بين الصحابة في شأنه وتنويه «عمر» - رضي الله عنه - به على المنبر. فلما رأى أن الناس عرفوا حاله هرب منهم واختفى عنهم، ولبس أمره عليهم برعي الإبل وغير ذلك. وقيل لعمر لما سأل

قومه عنه ما فينا أخمل منه ذكرا. فلما لقيه هو وعلي - رضي الله عنهما - وسألاه من هو ؟ فقال راعي غنم وأجير قوم، أو ستريا ذلك أُويسا ؟ فلما سألاه عن اسمه قال لهما : عبد الله. ثم سألاه عن إسمه الذي سمته به أمه فامتنع أن يجيبهما عن ذلك. فلما أخبراه بوصف النبي ﷺ وأنهما عرفاه بذلك. قال لهما : عسى أن يكون ذلك غيري. فلما قالا له أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، وطلبا منه أن يوضحها لهما، لم يجد بدا من أن يوضحها لهما، ولعله أراد بتوضيحها لهما صحة حديث رسول الله ﷺ ثم امتنع بعد ذلك من أن يلقاهما مرة أخرى. من شرح « ابن عباد ».

وعليه أخي إذا أردت أن تفتش عن سر الله وتأخذه من أربابه فإنك تجده في الغالب عند من لا يعتنى بهم في الطريق المحتقرين في نظر العامة. فأولائك لهم سر مع الله. واعلم أنه لا توجد الخبايا إلا في الخفايا. ألا ترى إذا كان لك مال وأردت أن تدفنه، فهل تضعه في ممر الخلق، أو في بقاع الأسواق، كلا ! إنما تختار له أخفى الأماكن وأحقرها في نظر الخلق. ومن هنا تفهم قوله تعالى : **(ومن نعمره ننكسه في الخلق)** « يس : 68 ».

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

ولرُب أشعث حقرته دلوقه ☆ ولدى المليك هو العزيز الغالي
خمص البطون لما بهم من فاقة ☆ شعث الرؤوس لروعة الأهوال
لم تخل أرض منهم قد حكموا ☆ ذات اليمين بها وذات الشمال
سوى هم بين الثريا والثرى ☆ والفرش والعرش الرفيع العالي
لا ينظرون إلى سوى محبوبهم ☆ شغلا به عن سائر الاشغال
فهم إليك وسيلتي يا سيدي ☆ إلا وصلت حبا هم بحبالي

ثم قال رضي الله عنه:

الْغَيْـرَةُ أَنْ لاَ تَعْـرِفَ وَلاَ تُعْـرَفَ

غيرة العارف على معروفه أن لا يعرف سواه، أي لا يثبت له وجوداً ولا عدماً، فضلا عن أن يشاهده، فهو لا يعرف أحداً سوى الله لما تقدم من كلام المصنف: « من عرف الأحد لم يعرف أحدا ». فهذا شق من الغيرة.

والشق الثاني أن لا تَعْرِفَ ولا تُعْرَفَ أي فلا تتعرف إلى أحد بأنك عارف، فهذه هي الغيرة على معروفك، لأن الغير إذا عرفك بما أنت عليه يلزمك أن تعرفه وتشاركه. وذلك من عدم غيرتك عليه، ولو اشتدت غيرتك لفعلت ما فعله « أويس القرني » - رضي الله عنه - وقد بلغك تستره واختفاؤه، وكل ذلك من شدة غيرته على محبوبه. فهكذا تكون الغيرة لمن يؤمر بالظهور.

وتراني في هواها لابس اللونين ☆ غيرة مني عليها أن ترى بالعين

إذ لربما يكون الظهور مخلا بصدقك في عبوديتك إذا تعرفت للخلق بأنك عارف للحق، لما قيل في الحكم العطائية: « استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك ».

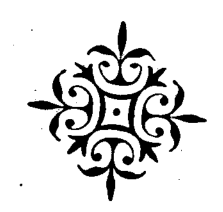
وحاصل الأمر من غيرة المحب على محبوبه، الانفراد به وعدم التشوق إلى غيره، وسيرة القوم في تسترهم لئلا يطلع الخلق على خصوصيتهم معلومة حتى قيل: ربما يتجاهل العارف وهو بين الجهال حتى لا يعرف من بينهم، وإذا سألوه عن أمر لا يجاوبهم لعلو مقامه وشرف رتبته. ولما ذهب مولانا « العربي الدرقاوي » ليأخذ عن

سيدي « علي الجمل » - رضي الله عنهما - وكان له ذلك بإلهام من الله، أو منام، فأخذ سيدي « علي الجمل » في رميه بالحجارة، وقال له: من أعلمك أنني من ذوي الخصوصية، إذهب إلى أمك. ففعل معه ذلك مرارا إلى أن حقق الصدق منه.

وكان يقول: منهل شرابنا شيخ مشائخنا سيدي « **محمد بن قدور الوكيلي** » - رضي الله عنه -: « إذا طلبونا بمعنى الخصوصية هربنا منهم إلى غاية الجهل، فلن يصل إلينا أحد منهم، ونستريح من شرهم ».

وكان أستاذنا سيدي « محمد البوزيدي » - رضي الله عنه - كثير التردد على الأسواق وغيرها، وكان يقضي مآربه بيده، فقلنا له: ألا تكلف من ينوب عنك في قضاء مآربك؟ فقال: أتريدون أن أحتجب عن الخلق؟ ألم يكفكم أني معهم ولا يراني أحد منهم؟ أي لا يراه أحد أنه من ذوي الخصوصية، وكان يريد بذلك الاختلاط مع الخلق، الخفاء، حتى لا يعرف من بينهم، فلا يصل إليه إلا من أراد الله أن يوصله إليه. وهذا إذا كان الولي لم يؤمر بإظهار ما خفي عن الخلق من خصوصيته، وإلا فله أن يفصح بما خصه الله عز وجل به. وقد كان بعض السلف إذا أصبح يقول: صليت البارحة كذا وكذا من ركعة، وتلوت كذا وكذا من سورة. فيقال له: أما تخشى من الرياء؟ فيقول: ويحكم! هل رأيتم من يرائي بفعل غيره. وقد جاء في الخبر، أن السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به. وقد كان إمام هذه الطائفة « أبو الحسن الشاذلي » - رضي الله عنه - تضرب له الدفوف وترفع إليه الأعلام وينادي في الطريق:

أيها الناس، إن القطب مار في طريقكم هلموا إلى حاجتكم. قال في لطائف المنن: «اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والإعتناء بشهوده». قال الله تعالى: (**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**) «التحريم: 3». وقال سبحانه (**أليس الله بكاف عبده**) «الزمر: 35». وقال: (**ألم يعلم بأن الله يرى**) «العلق: 14». وقال تعالى: (**أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**) «فصلت: 53» فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، واخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال، تحقيقا لفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكنوا من اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء رسخوا، وهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم. إن شاء أظهرهم هادين لعباد الله. وإن شاء سترهم، فاقتطعهم عن كل شيء إليه. فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله تعالى له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء، لا الجلاء كما قدمنا.



ثم قال رضي الله عنه:

مَـنْ أَرَادَ الصَّفَـاءَ فَلْيَلْـزِمْ الْوَفَـاءَ

من أراد أن يصفو له ما حصل عليه فليلزم الوفاء بما عاهد الله عليه **(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجراً عظيما)** « الفتح : 10 » .
ما من سائر أو واصل إلى الله إلا وقد عقد عقداً مع الله في سره، والله عليم بالسرائر. فمن أراد صفاء الحال وتمام المنة فليوف بذلك. ومن عدم الوفاء حرم الصفاء. وقد يحتجب العارف عن مقامه لإساءة أدبه وهو لا يشعر ولعدم وفائه بما يستحق المقام. وما من مقام إلا ويطلب صاحبه بالوفاء بحقه، ومن لم يوف بذلك يقول له لسانُ حاله: تنح عني فلست من أهلي. فإن لكل مقام أناساً ولكل مشرب كأسا.
الصفاء مقرون بالوافاء. **(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)** « الأحزاب : 23 » .

كان القوم - رضوان الله عليهم - يوفون بالعقود، وكلما مالت نفس أحدهم أدنى ميلان إلا وعوقبت ظاهرا شفقة من الله على بواطنهم. قال « جعفر بن نصير » - رضي الله عنه -: دفع إلي « الجنيد » درهما وقال: اشتر به التين الوزيري فاشتريته. فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها وبكى وقال: احمله. فقلت له في ذلك، فقال: هتف بي هاتف وقال لي: أما تستحيي! شهوة تتركها من أجلي ثم تعود إليها.

وقال « عتبة الغلام » « لعبد الواحد بن أبي زيد » - رضي الله عنهما -: إن فلاناً يصف من قلبه منزلة ما أعرفها. قال: لأنك تأكل

مع خبزك تمرا وهو لا يزيد مع الخبز شيئا. فقلت: إن تركت أكل الخبز عرفت المنزلة؟ قال نعم. وغيرها، وأخذ يبكي. فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله لك عينا، أعلى التمر تبكي؟ فقال «عبد الواحد»: دعه فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، لأنه إذا ترك شيئا لم يعد إليه أبدا.

قال الشيخ «أبو حامد الغزالي» - رضي الله عنه -: والأصل المهم في المجاهدة، الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسباب ذلك، ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه كسر العزم ألفته وفسدت. وإذا اتفق منه كسر عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه أي على كسر العزم.

روي أن «أبا الخير القسطلاني» - رضي الله عنه - اشتهى السمك سنين، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال، فلما مد يده إليه ليأكل، دخلت شوكة في أصبعه فذهبت بها يده. فقال: يا رب هذا لمن مد يده إلى شهوة حلال، فكيف بمن مد يده إلى شهوة حرام.

قال الإمام «أبو القاسم القشيري» - رضي الله عنه - وما أصدق ما قال: «إن من أدب في دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه، فقد خفف عنه في عقباه، بل ظهر بالتأدب جوهره ومعناه، فمن ترك شيئا لله فلا ينبغي أن يعود إليه».



ثم قال رضي الله عنه:

إنْ أَقَامَكَ ثَبَّتَكَ، وَإِنْ أَقَمْتَ بِنَفْسِكَ سَقَطْتَ

إن أقامك أيها المريد مولاك في حال أو مقام ثبتك وتكفل بك، فأرح نفسك، ولا تتكلف بشيء، بخلاف إذا أقمت بنفسك وتكلفت للمقام أو الحال فإنك تسقط لا محالة، لكونك وكلت نفسك لنفسك وحملتها ما لا تطيق، ولو كنت تفهم عن الله، لألقيت إليه مقاليد أمورك، حتى إذا أقامك في مقام ثبتك فيه وعصمك من طوارئه، وكيف تقيم نفسك أو تختار وأنت ادعيت مع الله عدم الإختيار، لأن سلب الإرادة من شأن الأخيار كما قيل: في هذا المعنى:

تكـــون مريـــدا ثم فيـــك إرادة ☆ إذا لم تُرِدْ شيئـــا فـــأنت مريـــد

ألا ترى لما أقام الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ في مقام الإرشاد وأنزل عليه قوله: **(والله يعصمك من الناس)** « المائدة : 67 ». فكان الحق تبارك وتعالى ينوب عنه في كل شيء، لا يتكلف لشيء حتى أنه لما ألقى ما ألقى على المشركين نزل قوله تعالى: **(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)** « الأنفال : 17 ». فكان الحق نائبه وناصره حسا ومعنى، ظاهرا وباطنا. فمن تثبيته له في الباطن قوله تعالى: **(لنثبت به فؤادك)** « الفرقان : 32 ». ومن كفالته له في الظاهر قوله أيضا: **(وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى)** « طه : 132 ». هكذا كان ﷺ، وكل من كان على قدمه كذلك، إذا أقامه الله في حال هو المتكفل له بما يستحق ذلك الحال والمقام؛ وقد وقع لي مثل ذلك لما أقامني الله في

مقام الإرشاد، وكنت لا أرى لنفسي استحقاق ذلك، ولكن لما تحققت إقامة الله إياي في ذلك المقام انطرحت بين يديه بدون أن أتكلف إلى شيء، لعدم رغبتي فيه، وقلة استعدادي لذلك الشان. فكان الحق ينوب عني في أشياء لا خبر لي بها. وقد أخبرني أكثر الفقراء على اختلاف طباقتهم بكرامات ظهرت لهم أفادتهم الرسوخ في الطريق، والتعظيم لجنابنا. فمن ذلك ما أخبرني به بعضهم أنه رآني دخلت عليه السجن وأخبرته أنه بقيت له ثلاثة أيام فكان الأمر كذلك. وغيره أخبرني بأني دخلت عليه الدار وأخبرته بعلوم إلى غير ذلك من الأمور الحاصلة يقظة فضلا عن المرائي التي يتعذر حصرها. وفي كل يوم يأتي أحد بخبر يصحح اعتقاده في الطريق. وأغلب الكرامات الصادرة لا خبر لي بها، فالحق تبارك وتعالى ينوب عني في صفاء قلوب أوليائه (**الله وَلِيُّ الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**) « البقرة : 257 ».

وأما من قام في حال بنفسه لا يثبت في الغالب بل يسقط لصعوبته مع طروء المحن عليه، وذلك لعدم صلاحيته لذلك الحال، أو المقام، إذ لو كان صالحا له لأقامه الحق فيه بدلا أن يقيم نفسه.

ومن أدب العارف وكمال معرفته أن يفهم عن الله.



ثم قال رضي الله عنه:

قَالَ تَعَالَى: (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) إِلَى الإِسْتِمَاعِ مِنْهُ وَالتَّبْلِيغِ عَنْهُ

فهذا صراط الله القويم ونهجه المستقيم. فمن وفقه الله للاستماع منه والتبليغ عنه، فقد وفقه الله إلى ما كان عليه أنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، وأخذ الحظ الأوفر من الإرث النبوي. فمن اهتدى لهذا السبيل لا يخشى عليه دنيا وأخرى، ومن مال عنه من المتصدرين للإرشاد لا محالة يسقط، لكون السبيل المومىء إليه لا يقبل الاعوجاج، وقد كان ﷺ لا ينطق إلا بوحي من الله **(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)** « والنجم: 3 - 4 ». ولا يبلغ إلا ما أمر بتبليغه **(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته)** « المائدة: 67 ». وكانت سيرة أصحابه وأتباعه كذلك على قدر إرثهم من مقامه **(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)** « البقرة: 253 ». فإنهم لا يزالون يسمعون من الله، ويبلغون عنه في كل لمحة ونفس، ولهذا استقام سيرهم وعظم شأنهم. قال عز من قائل: **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا)** « البقرة: 143 ».

أخذوا - رضي الله عنهم - بما أخذت الرسل، وكيف لا وهم بدل عنهم وبهم استغنت هذه الأمة عن بعثة المرسلين. وقد قلت في ذلك:

هم بدل للرسل في كل أمة ☆ قاموا بدعوة الحق فاستوجبوا الفضلا

وضحوا معنى السبيل لحق وقاموا ☆ شهودا على التوحيد كما قام الأولى

هنيئا لهم من قوم قد جاد ربهم ☆ عليهم بقربه وبالرضى تجلى

ومن المعلوم أن العارفين بالله لا يأخذون علومهم إلا من الله، ولا يبلغونها إلا عنه، وإن كان الوحي انقطع من حيث الأحكام، فإنه لم ينقطع من حيث الإلهام. فلو انقطع من حيث الإلهام عن أولياء الله عز وجل لما ثبتوا، وأي رابطة تبقى بينهم وبين الألوهية إذ انقطع عنهم.

نعم الرابطة موجودة وهي كتاب الله عز وجل لقوله ﷺ: **(كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض)** لكن هو رابطة من حيث ما احتوى عليه وصلاحيته لكل الأزمنة لمن فهم معانيه من العارفين، ولا يكون ذلك إلا بوحي من الله لهم، ووارد من الحضرة الإلاهية يرد على قلوبهم لكي يتصرفوا في بعض خزائنه، ويظهروا في كل زمان ما يليق بأهله، فكان هو الرابطة لهم من حيث الباطن، وقائد لهم من حيث الظاهر. يأخذون من باطنه ولا يخرجون عن ظاهره. وكل ذلك بوحي من الله حسب مراتبهم عند الله.

وتمام الفائدة أن أولياء الله واقفون مع الله في كل وقت وحال، ولا زال يرد على قلوبهم من الأوامر والأسرار والمعارف والأنوار ما يبهر العقول حسب المقامات والدرجات والأحوال، فكل له مقام، ومهما تخلف ذلك على أحدهم تضيق عليه الأرض والدنيا بما رحبت حتى تكاد روحه تزهق، حيث لم يدر مراد الله في الفعل، حتى إذا تداركه الله ببيان ما اعتاص عليه وأراه الحق عيانا، فوقتئذ يفهم مراد الله من سره، فيكون حينئذ على بصيرة من فعله. فهذه سيرتهم مع الله. لا أوحش الله العالم منهم. فليس لأحدهم اختيار مع الحق عز وجل، كأنهم لم تحدث لهم إرادة في أنفسهم.

ولهذا قال رضي الله عنه:

صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ

أي مع كونه سائرا فيه ودالا عليه لا يرى لنفسه حولا ولا قوة في كل الأعمال، ومهما نسب لنفسه أدنى شيء يخشى عليه السقوط. وقد تقدم الكلام عما يليق بهذا المعنى.

ثم قال رضي الله عنه:

اللَّهُمَّ فَهِّمْنَا عَنْكَ، فَإِنَّا لَا نَفْهَمُ عَنْكَ إِلَّا بِكَ

هذا المقام من أشرف المقامات عند العارفين خصوصا الدالين على الله، وهو المسمى عندهم بوحي الإلهام. فلا يسير العارف تلامذته ونفسه إلا به مع إضافة أشياء إليه. إذ لو لم يفهم العارف عن الله لم يلبث أن يسقط من عين الله، لأنه حامل سر الألوهية، إذ لربما يضعه في غير محله، أو يتكلم به مع غير أهله، وبسبب فهمه عن الله ينزل الأشياء منازلها، ويوفي الأوقات مستحقها.

وهذه السيرة هي الفطانة الواجبة في حق المرسلين صلوات الله عليهم. ومن فاته الفهم عن الله فاته كل شيء. وفي مثل ذلك قلت:

فمن يفهم عن الله عاش منعما ☆ يسير بسيره بصيرا على خبر
ومن جهل الأمور كان معذبا ☆ لم يدر حكمة الله في النفع والضر

اللهم فهمنا عنك حتى تصير أقوالنا وأفعالنا صادرة منك، وعائدة إليك، وما توفيقي إلا بك.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ سَكَنَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ لِنَشْرِهِ، نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعِبَادِ عَلَيْهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسَ الطَّمَعِ فِيهِمْ

أي من سكن إلى الخلق ليحبب نفسه إليهم لكي ينتشر صيته، ويذيع ذكره، ويعلو شأنه، فيكون له ذلك بعكسه ويفتضح بينهم، وينزع الله تعالى الرحمة من قلوبهم عليه، ويلبسه الله لباس الطمع، فيعرف بذلك ويظهر من بينهم، حيث كان لغير الله، فيسقط من نظرهم، وكل ذلك عقاب له حيث سكن لغير الله بسره، وطلب شيئا لم يصل إليه، وهو انتشار الصيت وعطف العباد عليه، وليس ذلك في وسعه **(لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)** «الأنفال: 63». لأن كل ذلك موكول إلى الله عز وجل. ليس في طوق البشر، ولأن الله إذا أحب عبدا أو أراد ظهوره حببه إلى قلوب عباده لكي ينتفعوا به. وقد يسبل الله عز وجل رداء الخمول على بعض أوليائه غيرة عليهم ومحبة فيهم حتى لا يعرفوا من بين خلقه.



ثم قال رضي الله عنه:

حُبُّ العُلُوِّ عَلَى النَّاسِ سَبَبُ الإِنْتِكَاسِ

من أعظم المضرات على المريدين حب العلو على المخلوقين. فبسبب حب العلو رجعوا للدنو. خلق الله تبارك وتعالى الناس أمة واحدة لا فضل لأحد على أحد إلا بفضل الله.

الناس من جهة التمثيل أكفاء ☆ أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم نسب ☆ يفاخرون به فالطين والماء

ثم فتح الله لهم باب الدنو ولم يأذن لهم في العلو. فمن أراد أن يتنزل له مجال رحب أي له أن يتنزل ما شاء. ومن أراد العلو منعه قوله عز وجل: **(وهو القاهر فوق عباده)** « الأنعام : 61 ».

قال شيخ مشائخ هذه الطائفة مولانا « العربي » - رضي الله عنه -: « الناس يتنافسون في العلو من هو أعلى، ونحن نتنافس في الدُّنُوِّ من هو أدنى ». وقد سئل أيضا عن مهر الطريق، فقال: « إسقاط المنزلة ». فمن طلب العلو بنفسه انتكس ورجع، ومن تواضع لربه تخلص وارتفع. قال ﷺ في وصيته لسيدنا « علي » - كرم الله وجهه -: **(لا تكن رأسا فإن الرأس كثير المصائب)**. وفي حب العلو من المضار ما لا يدخل تحت حصر.



ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَقُمْ بِأَدَبِ الْبِدَايَةِ كَيْفَ تَسْتَقِيمُ لَهُ دَعْوَى مَقَامَاتِ النِّهَايَةِ

أدب البداية شرط في صحة الولاية، إما ابتداء، وإما انتهاء، لأن العارفين قسمان: مجذوب وسالك، أو تقول: مريد ومراد. فمن لم يقم بأدب البداية حالة سلوكه لم تتحقق له النهاية، لما قيل: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته» والعكس بالعكس.

فلا بد من أدب البداية. ومن تصحيح الأحوال والأفعال والأقوال حسب مقتضى قوانين التصوف. فإذا صحت البداية، فلا جرم أنه تستقيم له دعوى مقامات النهاية، وإلا فلا، لأنه أراد الوصول على غير طريق الوصول، والشرط مقدم على المشروط. هذه حالة السالك.

وأما المجذوب، فهو مأخوذ من حضرة الخلق إلى حضرة الحق، أو تقول: المحبوب، فيكون مطلوبا بأدب البداية حالة التدلي، أي الرجوع، لأنها فتنة ابتداء حيث لم يستعد لكونه أخذ من حيث لا يشعر. فعلى هذا يتلاقى هو والسالك في وسط الطريق، هذا في الترقي، وذاك في التدلي. فتكون غاية وصوله هي رجوعه للبداية، ولهذا يقال: حقيقة النهاية هي الرجوع للبداية.

وحاصل الأمر، من لم يكن على ظاهره أثر البداية لم تستقم له دعوى مقامات النهاية، لأن البداية مجاهدة والنهاية مشاهدة، وهما ريشتان للولي. فلا بد لكل واحدة منهما بحسب الطاقة والإمكان.

(فاتقوا الله ما استطعتم) « التغابن : 16 ». فالناس في ذلك طبقات، لأن تصحيح الأحوال هو شرط على كل حال. ومن لم يكن حاله مطابقا لمقاله، فليس له من المقام إلا الكلام، والكلام دون المقام حرام.

وحاصل الأمر، إن المريد لا تستقيم له النهاية إلا إذا أخذ من البداية، فكيف بمن لم يقم بأدب الظاهر تستقيم له أحوال الباطن؟ قال في الحكم العطائية: « ما بطن في غيب السرائر ظهر على شهود الظواهر ». وفي مثل هذا قلنا:

فمن ادعى قرب الحق دون أدبه ☆ فهو على شك أظنه مغتر
ومن قام بالوصفين كان عند الله ☆ محمودا وعند الخلق صح له الفخر



خاتمة الكتاب

هذا ما يسّر الله لنا فهمه، والكل من فضله ونعمه. (**لينفق ذو سعة من سعته**) « الطلاق : 7 ». ولا ممسك لفضله.

نرجو الله أن ينفعنا وينفع به، وأن ينفع من قرأه وحصل عليه. وهو على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير.

إلٰهي منحتنا رشفة من بحرك فأسكرتنا عنا، فرجعنا بها إليك. فاقبلنا وأقبل علينا، إنك فرضت الإجابة على نفسك. فإننا دعوناك دعاء الخائف منك المتزر بك. فاحمنا، وقنا إنا هُدنا إليك، قائلين: نعوذ بعفوك من عقابك، ونعوذ بك منك، لا خيفة لنا إلا منك، ولا رجاء لنا إلا فيك، اقطع رجاءنا اللهم مما سواك، وقونا وثبتنا فيما فيه رضاك، وصل اللهم على من قام بدعواك، وعرفك وعَرَّفَكَ.

اللهم بحقه ثبتنا في معرفتك، وارزقنا حلاوة مناجاتك، بحرمة نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأنواع الرحمات وكل الفضائل والتعظيم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأتباعهم، وهب لنا اللهم محبتهم وارزقنا متابعتهم، إنك سميع عليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من هذا الكتاب صبيحة السبت وهو اليوم العشرون من شهر الله رمضان المعظم، سنة ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين 1328 مضت من هجرة سيد المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ولا حولة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

24 سبتمبر : 1910 م.

أيها القارىء الكريم

لا شك انك استفدت
من مطالعة هذا الكتاب الذي
انار لك سبل الرشاد فكريا وروحيا
ولهذا نقترح عليك قراءة كتاب

المنح القدوسية

لنفس المؤلف .

والله ولي التوفيق

الفهرس

مقدمة المخطوط الأصلي

وصفة للمخطط الأصلي
من كتاب المواد الغيثية

المؤمن لا يخلو في الدنيا من تعب لأنها دار عذاب وعمى وتعب وكيف
يتخلص من ذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام «الدنيا سجن المؤمن» لا
الإيمان مقرون بالمحن قال في الحكم العطائية «لا تستغرب وقوع
الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو موجب وصفها
ومستحق نعتها» ثم قال رضي الله عنه:

(من اشتغل بالدنيا ابتلي بالذل فيها)

أي من اشتغل بالدنيا اشتغالاً كلياً حتى أدبر عن الآخرة ابتلي بالذل
فيها لأنه صار مملوكاً لها مقهوراً في حبها لحبسها بل أسيرها وقد قيل
إن عبد الدنيا من أحبها وكلف بالأسباب لا هو تعيس لأسيره مطموس
البصيرة قال عليه الصلاة والسلام «تعس عبد الدنيا تعس عبد الدرهم»
حيث كانت همته لا تخرج عن الدرهم وكلما أعطي الدينار إلا وازداد في
الاحتياط حتى تجد أن من ابتلي بمحبة الدنيا وجمع الأعراض الزائلة
لو قيل له إن في جمع القاذورات فائدة عزيزة لصار يجمع في ذلك بدون
أن يبالي بشيء فهو يقصد الربح حيث وجد ينقطع الشك عن كل
عارض فيه أعظم، فالدنيا في تلك الدار هي التي تحجبنا عن زينتها
أقذر من القاذورات وأخبث من الخبائث وكفى بما وصفها به عليه
الصلاة والسلام «الدنيا جيفة وطلابها كلاب» ومن حيث أنها
جيفة لا يحل لمن اطلع على عوراتها أن يأخذ أكثر مما يحتاج إليه في
ذلك الوقت لأن الميتة تؤكل عند الاضطرار «فمن اضطر غير باغ ولا
عاد فلا إثم عليه» قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في مقالته
الخامسة من كتابه فتوح الغيب إذا رأيت الدنيا في يد أربابها بزينتها
وأباطيلها وخدعها ومصايدها وسمومها القتالة مع لين مس ظاهرها
وضرورة باطنها وسرعة إهلاكها وقتلها لمن مسها واغتر بها
وغفل عن وبالها وغرورها بأهلها ونقضها عهودها فكن كمن رأى إنساناً
على الغائط كاشفاً عورته بادية سوءاته وفائحة رائحته فإنك تغض
البصر عن سوءاته وتسد أنفك من رائحته ونتنه فهكذا كن في
الدنيا إذا رأيتها غض بصرك عن زينتها وسد أنفك عما يفوح
من روائح شهواتها ولذاتها لتنجو منها ومن آفاتها ويصل إليك

فسمك منها وانت منهي قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام
« ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا
لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى » وكلام الشيخ في ذم الدنيا
لا ينافي بعض الاشتغال بل ينافي الاشتغال الكلي وهو ميلان
القلب وتعلقه بحبها والرغبة في جمعها واما السبب المطلوب لا
لا ينافي وجود التوكل بل مما يزيد عزا لصاحبه ولا تنس نصيبك من
الدنيا قلت :

تسبب ولا تحسب انك مسبب ؛ ففي السبب عز اذا رايت المسبب
فلا يشغلك عنه لسبب وان جرى ؛ فاتركه لغيرك وله فاطلب

ثم قال رضي الله عنه :

« من تزين بزائل فهو مغرور »

كل ما سوى الله زائل لا محالة فحرصا الدنيا وزخرفها لقوله عليه
الصلاة والسلام « اصدق كلمة قالها الشاعر الا كل شيء ما خلا الله
باطل » ومن تزين بالباطل فهو مغرور لانه زائل فاما الزبد فيذهب جفاء
واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، وقد قيل من اراد ان يتعزز
بعز لا يفنى فلا يتعزز بعز يفنى . ومثل المتعزز بالزائل كمن رآى في
منامه انه قابض على دراهم او على اثر ذلك المنام فيفتح يده فى
يديه فلا يجد شيئا لان الحالة التي كان عليها ليس لها وجود في الخارج
انما هي اعتبار للمعتبرين فكذلك المتزين بالدنيا من مال وجاه وحولة
ورئاسة وما اشبه ذلك اذا خرج الى الآخرة يجد يديه فارغة كالباسط
كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه فيرى الحالة التي كان عليها
مجرد منام لقوله عليه الصلاة والسلام « الناس نيام فاذا ماتوا
انتبهوا » . اهل اليقظة العارفون بالله لم يتزينوا بالزائل انما زينتهم
العلم بالله والخشية منه وقد قيل في مدحهم :

تاهت على الكون من وجد ومن طرب ؛ فما التفت لهم ربع ولا طلل
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ؛ ولا جنان ولا حلي ولا حلل

وفعلت ذلك اقتداء بالسلف من الصالحين والخلفاء الراشدين حيث رفضوا
الدنيا وزخرفها انما اخذوا منها ما مستهم الحاجة اليه لم يشتغلوا
بها عن آخرتهم ثم قال رضي الله عنه :

« اطرح الدنيا على من اقبل عليها واقبل على مولاك »

الناس في حب الدنيا سكارى وفي طلبها حيارى « وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى » قد اغلقت قلوبهم واغشت بل سمعهم وابصارهم
« وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » صم بكم عمي فهم لا يعقلون ما
سواها ولا يلتفتون لما عداها ففر من الله فرارا الجبان من الاسد



المواد الغيثية

الناشئة عن الحكم الغوثية

رقم التسجيل : (2460/87)

لا ادري أي الكتابين اجل، واي الكاتبين اعظم؟ صاحب الحكم الغوثية: ابو مدين شعيب ام شارحها الاكبر: احمد ابن مصطفى العلاوي؟ وكلا الرجلين قطب في عصره، امام في فنه، وكلا الكتابين فريد في نوعه، غريب في شكله وحيد في مضمونه فهما عمدة السالك وغاية الواصل ومنهاج المريد لانه يضم بين دفتيه لب الحقيقة ومنهاج الطريقة.

والكتاب بشقيه بحر يعج بانواع الاصداف والجواهر. فعلى القاريء ان يحسن الغوص ليستخرج للناس ما يشتهون ولنفسه ما يحبه ويرجوه.